

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT





892.74

M 214sH

الدكتور
زكى نجيب محمود

شروق من الغرب

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الانجلو المصرية

إلى القارىء

هذه صفحات كتبها — إلا قليلا جدا منها — فى الأعوام الثلاثة : ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ ، وهى سنوات عصفت فيها العواصف بنفسى ، وتجهم الأفق أمام عيني ، ورأيت خريف عمرى يتساقط أمامى على الأرض أوراقا صفراء يابسة ، كنت أسمع لها خشخشة كأنها حشرة المحتضر

ونظرت فإذا بقيت — بعد جهاد طويل — حطبة جافة من ساق وفروع ، تعرت عن الورق والزهر والثمر ، تعوى فى ثناياها الريح عواء الأمعاء الجائعة ، وليس على مرمى البصر منها إلا اليباب فخلخلت التراب حول الفروع والساق ، وحملتها تجاه الغرب إلى طرف ناء من الصحراء ، حتى إذا ما أغمضت الشمس جفنيها من غروب ، أشعلت النار فى بقيتى — وبقيتى حطبة يابسة — فترأت من بعد أمام عيني العشوائين كأنما هى الشمس قد عادت إلى الشروق ، لترسل من حر أنفاسها شعاعا جديدا ، قبل أن تعود إلى مهدها فى ظلام الغيب

* * *

فمن الغرب تمنت لو أشرق على بلادى شعاع من نور — من الغرب الذى شاءت له إرادة الله أن يكون فى عصرنا مبعث المدنية

ومنازها : فيه ينتج العلم والفلسفة والأدب والفن ، وتنشأ النظم
الاجتماعية والسياسية ، وبين أهله تقوم الثورات التي تحطم أسوار
القديم لتنبت في الأرض نباتا جديدا

أليست المدينة الانسانية تغمر العالم موجة في إثر موجة ،
والموجات تارة يكون مسراها من هنا إلى هناك وطورا من هناك
إلى هنا ؟ ... خرافة أن يقال في الحضارة البشرية : شرق وغرب
وشمال وجنوب ، والصدق أن يقال : إنسان العصر وحضارته ، أينما
كان الانسان على وجه الأرض ، وأيا ما كانت حضارته
« إنتى فى ساعات حلى ، حين أحلم لبلادى باليوم الذى أشتيه
لها ، فانما أصورها لنفسى وقد كتبنا من اليسار إلى اليمين كما يكتبون ،
وارتدينا من الثياب ما يرتدون ، وأكلنا كما يأكلون ، لنفكر كما
يفكرون ، وننظر إلى الدنيا بمثل ما ينظرون ... » (ص ٢٢٣)

وإذن فستقرأ في هذا الكتاب صفحات تصور لك نفسا اكثرت
فيها الأفق وتلبدت سماؤها بالغيوم ، كما تطالع فيه كيف راحت تلك
النفس — فى ظلماتها — ترسل من غربها شعاعا كأنه البصيص الخافت
ينفذ خلال الرماد ، راحت ترسل شعاعها ذلك الضئيل الخافت ، قبل
أن ينطوى ظلامها فى ظلام الغيب

زكى نجيب محمود

أول فبراير سنة ١٩٥٢

ظلم

كان الفتى فى عامه الثانى عشر أو الثالث عشر ، طويلا نحىلا ، فى عينه اليمنى حول ظاهر ، ولا يفارق عينيه منظار التوت ذراعاة فمال على أنفه ، وكانت تبدو على الفتى علامات البلاهة التى لا يخطئها النظر .

سأل أباه ذات يوم إذ هما على مائدة الغداء ، فقال :

— كلمة « ظلم » ما معناها ؟

— وأين سمعتها ؟

— سمعت رجلا يصيح بها فى الطريق ، يصيح بها وهو يدفع عربة صغيرة عليها بطيخ وشمام ، وكان الشرطى من ورائه يصفعه ويركله .
— الظلم هو أن يوضع الإنسان فى غير موضعه اللائق به ، فإذا جلست الخادمة على مقاعدنا الحريية فذلك ظلم ، وإذا أسندت الرئاسة إلى من لا يستحقها فذلك ظلم ، وإذا أخذ العامل أجرا على غير عمل فذلك ظلم ، وإذا ظفر بالراحة من لم يعمل فذلك ظلم ، وإذا نزل العقاب على غير مستحقه فذلك ظلم ، كذلك من الظلم أن يفلت من العقاب من هو حقيق به . وهكذا . كل هذه أمثلة لناس وضعوا فى غير أماكنهم الصحيحة .

سمع الفتى هذه الإجابة من أبيه فى إنصات ظاهر ، وكأنا أعجبه

رنين الكلمة فراح يرددها وهو بعد على مائدة الغداء ، وبلغ إعجابه
بالكلمة أن كان ينطق بها في نغمات مختلفة ، ثم يضك ضحكاته البلهاء .
ولما أصبح صباح اليوم التالي ، ارتاعت أم الفتى لما رآته في كل
ركن من أركان الدار . . . إذ راح الغلام منذ الصباح الباكر يكتب
بقطعة من الطباشير كلمة « ظلم » — يكتبها على المقاعد والموائد
والجدران ، يكتبها أينما وجد فراغاً يصلح للطباشير أن يخط عليه ، فهي
على أواني المطبخ ، وهي على البلاط ، وهي على جوانب الأثاث ، وهي
على السجاد القائم . . .

ونودي الغلام وسئل عما فعل ، فلم يزد على أن ضحك ضحكة
بلهاء ، وماذا يصنع الأبوان في ابن لهما يعلنان فيه البلاهة ؟ انتهرت
أمه ونهره أبوه وتهدداه بالعقاب الصارم إذا عاد إلى مثل هذا العبث ،
ثم طفقت الأم من فورها تمسح « الظلم » من أجزاء بيتها بخرقه بالية ! .
ومضى يوم واحد ، جاء بعده الجيران يشكون الغلام لأبويه ،
فقد ظفر بقطعة من الفحم ، وراح يتسلل إلى حيث استطاع سبيلا من
دورهم ، وأخذ يخط كلمة « ظلم » على الأشياء فيفسدها ، حتى أتلف
للجيران أبوابهم ونوافذهم وجدرانهم وأثاثهم .
فضر به أبوه ، وسأله في غيظ قائلاً :

— ما الذي يغريك بهذه الكلمة تكتبها في كل مكان ، تكتبها
لنا بالطباشير ، وللجيران بالفحم ؟ .
فأجاب الغلام بعينين دامعتين : لست أدري يا أبت ! أعف عني
هذه المرة ولن أعود .

لكن لم يكذب يميني يوم آخر، حتى جاء أصحاب الدكاكين المجاورة
يشكون الغلام لوالديه، فقد ظفر هذه المرة بما ليست تمحى آثاره في يسر،
كما حيت آثار الفحم والطباشير، ظفر بوعاء فيه طلاء أسود وفرجون، جاء به
من عمارة قريبة يقام بناؤها، وراح يغاقل أصحاب الدكاكين ويكتب
أمام متاجرهم، على الطوار: «ظلم»، «ظلم» - فشوه الطريق بخطه
الردىء من ناحية، وأساء إلى المتاجر وأصحابها من ناحية أخرى،
لأن هؤلاء يريدون إغراء الزبائن بما يكتب أمام متاجرهم، لا تنفيرهم
بالمعنى السيء والشكل الردىء.

وها هنا بلغ الغيظ من الوالد أبلغ مداه، وجاء بغلامه أمام
الشاكين يضربه ضرباً مبرحاً هذه المرة؛ حتى مست الرحمة قلوبهم
وهم الغرباء قبل أن تمس قابله وهو الوالد.

وسأله أبوه من جديد: ما الذى يغريك بهذه الكلمة تسكتها
لنا بالطباشير، وللجيران بالفحم، ول هؤلاء الناس بالطلاء؟
فأجابه الغلام بصوت مخنوق بالبكاء: لست أدري يا أبت!
اتركنى هذه المرة، ولن أعود إلى مثل ذلك أبداً.

لكن الغلام لم يكن عند وعده هذه المرة أيضاً فمضت ثلاثة أيام
لم يعكر صفوها «ظلم» يصيب أحداً من الناس، وفى اليوم الرابع
تأخر الغلام عن موعد عودته من المدرسة، وشغل الأبوان وبحثا
عنه فى مظانه كلها فلم يعثرا له على أثر حتى إذا ما كانت الساعة العاشرة
أو نحوها فى الليل، دق الجرس وأسرع الأبوان فى لهفة إلى الباب،
فإذا ابنيهما فى صحبة رجل من رجال الشرطة.

قال الشرطي : هذا ابنكم وجدناه ينقر باباً لدار من دور الحكومة
بمبرة : فأخذناه إلى قسم الشرطة وكتبنا عن الأمر « محضراً » لسكرتنا
نريد مواصلة سؤاله وعقابه غداً ، ورأينا أن نسوقه إلى داره ليقضى
ليه مع والديه حتى لا يشغلا عليه بالاً .

ونظر الغلام إلى أبيه نظرة يطاب بها العفو والعطف ، فلم يسأله
أبوه عن شيء ، وبات محزوناً .

حتى إذا ما جاء الصبح ، وذهب إلى الدار الحكومية التي أتلف
الغلام بابها بمبراته ، وجد ابنه قد حفر على الباب كلمة « ظلم » - حفرها
كلمة كبيرة عميقة ، حتى ليدهش الرائي كيف استطاع أن يصنع ذلك
كله في ظلمة الليل ، وأين كان الحارس طول الساعات التي استغرقها
الفتي في حفر هذا كله على باب من الخشب الصلب المتين ! .

واتفق رجال الشرطة مع الوالد الخيران أن يخلو له سبيل
الغلام ، وكان ذلك بمشورة طبيب استشاره الوالد في أمر ولده ،
فأشار الطبيب بأن يصحب الأبوان ابنهما إلى مكان من الريف لتهدأ
أعصابه لأنه مريض .

وكم عجب الوالدان وهما في القطار أن سمعا عجلاته تترقع على
القضبان في صوت واضح لاسيل إلى إنكاره : ظلم . ظلم . ظلم .

يوم المي: _____ ا لاد

هذه سطور أكتبها يوم ميلادى الثالث بعد الأربعين ، (١)
وأقول « يوم » الميلاد ولا أجعله لنفسى « عيداً » من الأعياد ، فانى
أشهد الله أنه يوم ما أقبل قط فى حياتى مرة بحيث استقبلته بنفس
مرحة طروب ، بل إنى لأعجب عجباً لا ينقضى من رجل يحتفل
لنفسه بمثل هذا اليوم من حياته ، أو يرضى أن يحتفل له الناس به ،
فنحن من هذه الأعوام التى تكرر ماضية عاماً فى إثر عام ، بمثابة من
وقف على جسر النيل وفى يده عقد أخذ يلقى حياته فى الماء حبة
وراء حبة ، أفكلما نقصت لؤلؤات العقد لؤلؤة فرحت لنقصانها
مسروراً ؟

لكن لعل هؤلاء المحققين بأعوامهم تمضي ، أعقل مني وأحكم ،
فقد تكون الحياة عبئاً ثقيلاً ، ينقض ظهور الرازحين تحت حملة ،
فكلما انزاح من أجزائه جزء سر حامل العبء وابتهج ، نعم ، قد
تكون الحياة عبئاً ثقيلاً ينقض الظهور ، أكثر منها كنزاً ثميناً يشرح
الصدور ... ومهما يكن من أمر هؤلاء وأمرى ، فنحن على اتفاق
أننا أبدأ سائرون إلى نقصان ، مادمننا قد اجتزنا قمة الشباب في العشرين

(۱) کتبہ فی أول فبراير سنة ۱۹۴۸

أو نحوها ، على اختلاف بيننا في فهم هذا النقصان ، فيرونه كسباً
وأراه خسراناً .

وليس يخلو من المعنى أن يكون مولد العام الجديد أقوى أثراً
في نفسى من يوم ميلادى ، فيستحيل أن يمر اليوم الأول من يناير ،
وأنا عنه لاه ساه غير آبه ولا حافل ، أما يوم ميلادى فما أكثر
ما يمر لا أذكره ولا أحسه ولا أشعر به ، حتى إذا ما فات وانقضى
أذكر عرضاً أنه فات وانقضى وأصبح تاريخاً يروى ، وأرجح الظن
أنى في ذلك لا أشد عن كثير من الناس ، أ يكون ذلك لأن مولد
العام الجديد يسجل للإنسانية بأسرها ، بينما يسجل يوم ميلادى لفرد
واحد ؟ أم يكون لأن مولد العام الجديد تسجيل للحوادث ، وأما
يوم ميلادى فرقم لا يدل على شيء سوى ما انقضى من عدد السنين ،
وأن هذا العدد بغير الحوادث التى تملؤه رقم أجوف فارغ ؟

رقم أجوف فارغ !! لقد سألت نفسى ذات يوم : لو أرخت
لحياتك ودونت ما مر بها من حوادث ، فماذا أنت ذاكر ؟ إن من
الرجال من يكتبون قصص حياتهم فإذا هى حافلة بأحداثها ، تقرأها
فكأنما تقرأ قصة من خلق الخيال البارع ، فأين من ذلك ما عشت
من حياة فارغة جوفاء ؟ وهنا رأيت الشبه ماثلاً بينى وبين ساعى
البريد : رأيت كيف ينفق هذا الرجل حياته ساعياً بين الناس بيريده ؟
إنه لا يمس « الظروف » إلا من ظاهرها دون أن ينفذ إلى قلوبها
ولبائها ، إنه لا يعلم من الرسالة إلا عنوانها أو بعض عنوانها ، فأين
ذلك من صاحب الخطاب ؟ إنه يفض غلافه ويمس شغافه ، ويقرأ

السطور وما بين السطور ، إنه يستروح من كلماته أنفاس الحبيب ، أو هو ينظر إلى الألفاظ فإذا هي ألحاظ الصديق ناظرة إليه تباسمه وتناجيه .
لكننى من هذه الحياة إزاء مدينة حصينة سورت بمنيع الجدر ،
ولكننى منها طواف يطوف حولها ويطوف ، ثم لا يجد إلى جوفها
من سبيل . . . صه ! أذلك همس ؟ إنهما حبيبان يتغازلان ؟ أذلك
ضحكات طروب ؟ إنها جماعة أخذتها نشوة ومرح ، أذلك أنين ؟ إنه
بكاء حزينة ثكلى . يا ويح نفسى ، أريد أن أهمس كما يهمس الهامسون ،
أريد أن أضحك كما يضحك الضاحكون ، بل أريد أن يكون لى فى
حياتى ما أبكيه وأرثيه ! أين — يا صديق — الجواز الذى يبيح لى
الدخول فى هذه المدينة الصخابة فأشتريه ؟ !

رأيت الناس ذات صيف حرور يصطفون ، فأقسمت لا كون
كسائر عباد الله مصطافاً ، ذهبت إلى الشاطئ مع الداهيين فسرعان
ما برزت من إهابى شخصية الساعى : أقف على الشاطئ ولا أغوص ،
الناس يمرحون فى الماء ويلعبون ، والأطفال يتقلبون مع الموج
ويضحكون ، والنساء كعرائس الماء غائصات طائفات صائحات
ضاحكات . وليس لى من كل ذلك شىء ، ونظرت حولى ، فإذا أنا
واقف بين أكوام الملابس نضاها أصحابها ، ويشاء القدر الساخر أن
يكون أقربها إلى حذاء مخلوعا ، فأدركت عندئذ فى يقين ، أنى بين
هذه الأحياء كالقوقعة الفارغة ، يرسم على سطحها الحيوان ولا
تحتويه ، ولم أستطع أن أواجه هذا الحق المخيف ، فقفلت إلى الدار
راجعا .

رقم أجوف فارغ - إذا - هذه الأعوام تنقضي من حياة
الامة فلا يكاد يتغير من وجهها شيء ! نعم يا قائد الثورة الفرنسية
« إن أربعين قرنا تنظر إلينا من قمة هذا الهرم » وكأنها أربعون
لسانا يقول للبصرى : ماذا صنعت يداك ؟ هذه هي ذخيرة العلم توشك
بقوتها أن تميل بالأرض عن مسراها ، فماذا لك منها ؟ إذا أرخت
لحياتك ودونت مامرها من حوادث ، فماذا أنت ذاكر سوى أن
ساسة الأمم مازالت تعترك عليك وتصطرع ، وأنت بينهم واقف
كالصبي الأبله ، وضع إصبعه في فمه وأخذ ينقل نظراته بين هذا
وذاك ، حسبك من البقرة « نعيها » كما يقولون ، وكيفيك أن
تكون حياتك معدودة بعشرات القرون !

لست إذا أرى في حياتي الخالية الخاوية ما يستحق أن أحتفل له
إذا ما انقضى من الحياة عام ، بل إنى ما فكرت فيما بيني وبين الأيام
من أخذ وعطاء ، إلا ورأيتني قد نلت من الأيام صفقة المغبون ،
فقد ظلت - كما يظل كل إنسان منذ مولده حتى يبلغ من الشباب
ذروته - ظلت آخذ من دنياى مادة أكثر مما أعطيها ، فأزداد بهذا
الكسب المادى لحما وعظما ، ثم بهذا اللحم والعظم أنمو صيبا ويافعا
وشابا ، لكننى لقاء ذلك الكسب فى وزن البدن ، كنت محروما من
المال ، فلم أكن أرى منه إبان ذلك العهد إلا قروشا قليلة يعطينها
أبى - رحمه الله - مليمين مليمين ، أو على أحسن الحظوظ قرشا
قرشا ، حيناً بعد حين ، وقد كان يحدث أيام العيد أن يتبادل أبى وعمى
« الأعياد » للأولاد ، فكنت آخذ من عمى ريبالا أو نصفه ، فلا يكاد

الريال يستقر في كفي حتى يتقاضاه أبي من جديد إذا ما خلا بي ، ولم
أكن أفهم لذلك معنى حتى شببت وازددت علما ، فعرفت أن قد كان
للأمر اقتصاديات عليا لا يفهمها الصغار ، على نحو ما يفعل رؤساء
الحكومات اليوم ، فهم يضبطون الصادر والوارد بحيث يكون لهم
في نهاية الأمر ميزان متعادل ، والناس إزاء هذا الذي يحدث في السماء
العالية من دنيا الاقتصاد لا يعرفون إلا أن السكر كان يصرف لهم
بالأمس أقات تسعا فإذا هو اليوم يصرف لهم سبعا ، وأنهم كانوا
يأكلون الخبز أبيض خالصا ، فإذا هم اليوم يأكلونه مخلوطا أسود .

حتى إذا ما تجاوزت قمة الشباب ، وانتهى من الحياة طريقها
الصاعد ، وأخذت أسلك منها سفحها الهابط ، تغير الموقف رويدا
رويدا ، حتى انعكس الوضع ، خسارة من اللحم والعظم وكسب من
المال ، ذلك أني بدأت الآن أعطي دنيائي من بنيان جسمي أكثر
مما تعطيني ، فأسنان تفسد ثم تخلع ، وشعر يضعف ثم يتساقط ، وعضل
يفتر ثم يترهل ، وجلد ينكمش ثم يتغضن ، بعد أن كانت الاسنان
والشعر والعضلات والجلد تزداد مع الأيام قوة وفتوة — فهذا جانب
الخسارة ، ويقابله زيادة في كسب المال ، فقد كانت وحدة نقودي
مليما أو قرشا ، فأصبحت أفكر فيها بلغة الجنيهات ، وأخشى أن أقول
بعشراتنا ، فيظن بي القاريء ثراء أو ما يشبهه ، ولست من هذا بحمد
الله في غير أو فقير ، لكنها هذه السنوات السود التي أضاعت جزءا
عزيزا من حياتنا ، هي التي علمتنا ذلك الحساب كرها وقسرا ، فلم أعد
أدفع أجر مسكني بلغة الجنيه الواحد كما كنت أفعل ، بل أدفعه مبلغا

ذا رقبين سواء استطعت إلى ذلك سبيلا أو لم أستطع ، ولم أعد أشتري
البدلة بلغة الجنيه الواحد كما كنت أفعل ، بل أشتريها بالعشرات راضيا
أو كارها ، وهكذا ترانى اليوم — بالقياس إلى يفاعتى — أخسر فى
بنيتى وأكسب فى ثروتى ، أنقص فى دى ولحى وازداد فى مالى ،
فكأننى إزاء هذا كله أشتري الضلالة بالهدى ، وأبيع سمسم مقشورا
بسمسم غير مقشور ... ولست أدري ماذا تقول أيت فى مثل هذه
الصفقة ، لكنها عندى صفقة المخبون ، وبمثل هذه الصفقة الخاسرة
يدكرنى يوم ميلادى .

لو خيرت فى الأمر لسرت بالحياة فى طريق معكوس ، بحيث
تأتى الشيخوخة أولا والشباب آخرا ، فالخمسون تأتى قبل الأربعين ،
والأربعون قبل الثلاثين ، والثلاثون قبل العشرين ، حتى أنعم بالصعود
فى سلم الحياة ولا أحزن لمثل هذا الهبوط ، وأنا مسئول عن كل
النتائج التى تترتب على هذا الوضع المعكوس ... لو كنت موظفا مدنيا
فى الحكومة فبدأ بالدرجة الأولى وأتمتع براتبها الضخم ، وأنا
بعد فى سن العشرين ، ولا بأس عندى أن اعقب عليها بالثانية والثالثة
وهلم جرا ، بحيث أنحدر فى الدرجات والمال كلما دب فى جسمى
الهزال ، لأننا على هذا الوضع الراهن بمثابة من يخزن البنود حتى
تزول عن فكيه الأضرار والأنياب ، فقل لى بربك : ما غنا هذه
الدرجات تعلو ، وهذه النقود تزداد ، ولم يعد لها فى الجسم مستقبل
أو مستجيب ؟ هذه هى السوق قائمة ، وتلك هى الخلوى معروضة
أمام بائعها كما عهدتها وكما اشتيتها أيام الصبا ، وهذا هو المال فى جيبى

فلماذا لا أشتري الحلوى ولطالما تمنيتها؟ أما وقد تهيات لي الأسباب
فلماذا لا أشتري الحلوى ولطالما سال مني عليها اللعاب؟ ... لأنني
خزنت البندق حتى زالت الأضرار والأياب!! .

ولو كنت موظفاً عسكرياً ، فسأبدأ الشوط بكتف مملوءة بكل
ما عندهم من أنجم وتيجان ، ولا بأس عندي أن تتساقط عن كتفي
هذه اللوامع واحدة بعد واحدة كلما تقدمت بي الأعوام ، كما تسقط
عن الشجرة أوراقها في الخريف بعد أن أينعت ناضرة عاطرة في الربيع
وإلا فحدثني بربك ما معنى أن يكون ربيع على الكتفين وخريف
في صميم البدن .

ولو كنت كاتباً فسأبدأ الحياة بكومة من الكتب هي كتبي ومئات
من المقالات جرى بها قلبي ، فأزهي بهذا كله يوم يكون للزهو معنى
مستساغ ، ولا بأس عندي أن يخفت على مر الأيام صوتي ، ويقل
صيتي ، وينكمش اسمي سيرورة وذيوعا — فذلك كله عندي خير ألف
مرة من أن أزداد في درجات الحكومة رفعة ، أو أزداد في كتفي
التماعا ، أو أزداد في دولة الأدب أو العلم شيوعا وذيوعا ، حتى إذا
ما اكتمل لي من هذا أو ذاك قدر احسد عليه ، لم أجده في نفسي
صدي ، فكأنما أمتلىء من خارج — إن صح هذا التعبير — وأخلو
وأفرغ من داخل .. ولست أدري ماذا تقول أنت في هذه الصفقة ،
لكنها عندي صفقة المغبون ، وبمثل هذه الصفقة الخاسرة يذكرني يوم
ميلادي .

رسالة إلى صديقة أديبة

أهديها إلى الآباء والأمهات الذين قد
ينزلون بأبنائهم السوء من حيث لا يعلمون

صديقتي أ...

يشاء الله يا صديقتي أن تكون أولى رسائل إليك صادرة عن قلب
مكروب مكلوم حزين ، وقد كنت أؤثر أن يجيء أول اللقاء
إبتسامة صافية لا تشوبها شائبة من هذه الهموم التي أترعت بها نفسي ،
لكننا تعاهدنا — ألا تذكرين ؟ — تعاهدنا على الصدق الذي ينثر
مكنون القلب نثرا ، ولا يفترى على الحق شيئا ... أفلا تذكرين
ذلك اللقاء السريع العابر ، والبحر يطن في مسامعنا صداه . حين
اختلجت يداك ، ولمعت عيناك ، في إيمان صادق ، وقلت صارخة .
حرام ، حرام أن يعيش الناس في جو من أكاذيب ؟ ... فلنكن
نحن صادقين في رسائلنا ، ولنسكب خواطرنا ومشاعرنا على الورق
خالصة لوجه الفن ، لانتخى في تصوير الحق لومة لائم .

هذا القلب الجريء الذي لا يخاف لوم اللائمين ، هو أملى ، وهو
علة إخفاقي في آن معا ! .

نعم يا صديقتي ، فلست أرجو لنفسي شيئا أعز من أن يكون لي

قلب حر جرىء ، مثل عقلى الحر الجرىء ! ... فقد أشرفت بنفسى
على تربية رأسى وتغذيته بالفكر ، فجاء عقلا لا يتردد لحظة فى تحطيم
الأصنام كائنه ما كانت تلك الأصنام — فلا يعتز بقديم لقدمه ،
ولا يهوله جبار لجبروته .. لكن قلبى — واحسرتاه — صنيعه
سواى ! أشرف على تربيته والذى رحمه الله ، فجاء قلبا رعيديا
جبانا ، يريد له الرأس أن ينهض فيكبو ، يريد له أن يطير معه فى
أجواء الحرية الطليقة لكنه يسقط ويهوى ، يريد له أن يحطم الأصنام
فيعبد الأصنام ! يا حسرتى من هذا القلب الضعيف الخائر الذى أحمله
بين جوانحي ! .

فى هذا الصراع بين رأسى وقلبى — يا صديقتى تقع مأساتى ، يقرأ
الناس ما أكتبه ، فيتوهموننى سيلا عرمرما دفاقا كاسحا ، هيات أن
تقف مجراه سدود أو حدود ، ثم يلقانى من يلقانى ، فإذا أنا المستكين
الخائف الخائر المتهافت ، الذى لا يثبت على قدميه أمام تنوافه ! .
من لى بمن يعلم هذا القلب الجبان أن التخلص من الخوف هو
حكمة هذه الحياة ؟ من لى بقلب جرىء مثل رأسى ، فلا تهوله أرض
ولا سماء ، ولا يروعه عرف ولا تقاليد ؟ .

لكنه أبى — رحمه الله — هو الذى حطم بين أضلعى قلبا خلقه
الله وثابا ، فقد أنسى كل شىء من أحداث طفولتى ويفاعى ، قبل
أن أنسى كف والدى التى قست على ذلك الطفل منى أو اليافع ، وهل
أنسى يوما أجلسنى فيه والذى أمامه — وكنت ، لا أجاوز الخامسة —
وسألنى سؤالا فى الحساب ولم أسرع له بالجواب ، فضربنى بكتاب

ضخم كان أمامه ضربة لا أزال أشعر بالدوار كلها ذكرتها ، وكان
 بالغرفة أضياف ، فضحكوا ضحكات تهز الهواء من حولي حتى
 الآن ، وقال منهم قائل وهو غارق في ضحكه : « قد ضربته بالدنيا
 كلها على رأسه » ، وترددت الكلمة في سمعي دون أن أفهم لها معنى ،
 لكنني سأنسى كل شيء قبل أن أنسى كيف عز على نفسي أن أضرب
 « بالدنيا كلها على رأسي » مع أنني برىء ، فانفجرت باكيا ، لا أملك
 لدمعي زماما ، ولعلك تعلمين يا صديقتي أن الطفل كثيرا مايبكي
 مؤخرا ، فقد يصاب بجرح وهو لا يدري ، حتى إذا ما نبهوه أن
 دماؤه تسيل ، أخذ في البكاء ... ودارت الأيام ، وجاء يوم كنت
 فيه تلميذا بالمدرسة الابتدائية ، وتسلمت « الأطلس الجغرافي » بين
 ما تسلمته من الكتب أول العام الدراسي ، وأخذت أقلب صفحاته ،
 وأدير فيه البصر معجبا بألوانه ، فإذا جاري يهمس لي . « الدنيا كلها في
 هذا الكتاب الذي في يدك » فانتفضت لعبارة انتفاض الجريح ،
 لأنني ذكرت عندئذ حادثة طفولتي ، التي جرحت فيها كبريائي جرحا
 لم يندمل حتى اليوم ، ويومئذ فقط ، أدركت مع ما قاله ذلك
 الخبيث الذي قال لوالدي ضاحكا : لقد ضربته بالدنيا كلها على رأسه
 وطلب مني والدي ساعتئذ أن أكف عن البكاء ، فلما عجزت عن
 طاعته ، صفغني بكفه على وجهي صفعة أسمع الآن رنينها ، وأعاد لي
 أمره بالسكوت ، ولست أدري الآن كيف استطعت أن أقف
 البكاء ، لكنني فعلت ، وأنا أنتفض بين يديه جزعا فزعا ، ولم أجرو
 على رفع بصري إلى الجالسين ، خجلا من كبريائي الجريح ... وأعاد

والدى - رحمه الله - سؤاله من جديد، وأراد الجواب السريع .
لكنى كنت فى هذه المرة أعجز عن الجواب منى فى المرة الأولى ،
فحملنى بين ذراعيه حملاً ، وقذف بى خارج الغرفة - وكان الباب على
بعد منه لا يقل عن مترين أو ثلاثة أمتار - قذف بى كما يقذف
اللاعب بالكرة ، وقال لأضيافه فى نغمة المزهو الشامخ بأنفه : لن
يعيش لى ولد خائب ، فإما أن يفلح أو يموت ! .

أقسم لك بالله يا صديقتى ، أن دمة كادت تطفر منى ، وأنا أكتب
هذه السطور ، لعلها دمة باقية فى مجرى منذ ذلك اليوم ! ... إننى
لأنظر الآن إلى الناس من حولى وكأنى أرى فى وجوههم الضاحكة
انعكاساً لوجوه هؤلاء الأضياف الذين كانوا يجلسون إذ ذاك مع
والدى ، يشهدون ويضحكون ، أنظر إلى الناس من حولى الآن ،
يضحكون ، فأكره منهم هذا الضحك : ترى هل تضحكهم خيبة رجائى
فى حياتى كما كان يضحك أضياف أبى عند خيبتى فى حل المسألة التى
ألقاها إلى أبى وأراد الجواب ؟ ! ترى هل يرضى عنى روح والدى ،
لو ألقيت بنفسى فى اليم لأحقق له مبدأه الذى ألقاه فى مسمعى وأنا
بعد فى سن الخامسة ، ولا تزال آثاره عالقة برأسى ، تحركنى فى
مسالك الدنيا يمنة ويسرة : إما أن يفلح أو يموت ! .

ماذا يا أبت لو لم يكن نجاح - والنجاح ليست عناصره كلها
فى يدى ؟ .

واحر قلباه .. ألا إن الجواب على هذا السؤال مخيف فظيع .
لقد عشت ماعشت يا صديقتى ، وجاهدت ما جاهدت ، فلم يفتح

على الله من أبواب النجاة بمثل ما يفتح على سواى من الناس ، وأحاول
ما استطعت أن أشيع الرضى فى قلبى القلق الثائر ، فلا أستطيع ،
ترن فى رأسى عبارة أبى ألف مرة فى اليوم الواحد : إما أن يفلح
أو يموت ، ثم أفكر فى اليوم الواحد ألف مرة فى تحقيق ما أراد
لى أبى ! .

إنه لا يعلم إلا الله مدى ما أثر ذلك اليوم المشهود فى مجرى
حياتى ، فكما عز على نفسى عندئذ أن أرفع بصرى إلى وجوه الحاضرين
وأنا موصوم بالعجز والخيبة ، لا أزال حتى اليوم عاجزا عن
مواجهة الناس ، كلما ظهر فى حياتى مظهر جديد من مظاهر الخيبة ،
فما أسرعنى إلى الانزواء والانطواء كلما هاض لى الزمن جناحا ...
معذرة — يا صديقتى — فلم أرد أن يجيء هذا الخطاب فى هذا
السواد ، ولكننا تعاهدنا على مقربة من هدير البحر ساعة الغروب ،
ألا نخفى أحد منا فى رسائله شيئا — فهل تذكرين ؟ .

بغير مرآة

نزلت سبوعا في غرفة من أفندق ريفي (في فرنسا) كانت بغير مرآة ، فمن ظن - كما ظننت - أنه ضيق بنفسه صدرا ، ولم يعد يملك على حياته صبرا ، فليسكن - كما سكنت - أسبوعا في غرفة بغير مرآة .

لم أكن أدري كم أحيت نفسي ، حتى حرمت - خلال ذلك الاسبوع - من رؤية نفسي ، ترى أكان اليونان في أساطيرهم جادين أم هازلين ، حين رووا لنا عن « نارسيس » أنه رأى صورة وجهه لأول مرة معكوسة على صفحة الماء ، فأحبها - وهو لا يدري أنها صورته - وأراد أن يضم إلى صدره هذا الحبيب . فلم يجد إلى ضمه من سبيل ، ثم تمضى الأسطورة في قصتها ، فتروى أن « نارسيس » لما عز عليه الحبيب - الذي هو نفسه - اعتزل الحياة محزونا على حافة الغدير حتى فارقت الحياة ، وسمعت عرائس الجن بموته فأرادت أن توارى جسده في جدث يزوره الراح والغادي ، ولكنها لم تجد جسده الذي ذوى وذوى ثم ذوى ، لم تجد إلا زهرة نبتت على حافة الماء حيث كان الحبيب يتأمل وجه الحبيب البعيد وهو قريب ، نبتت زهرة مكان جثمانه الذاوى ، فاطلقت عرائس الجن اسمه على الزهرة وما يلاحقها في نوعها من زهرات فجعلوا اسمها

« نارسيس » - ومناها النرجسة - فكلماً رأيت نرجسة - أى
قارئ الكريم - فافرق بها ، واعلم أنك تبصر فيها رمزا نسجته يد
الطبيعة تخليدا للبرء يحب نفسه حبا قد يودى به الى الفناء .
كنت أتوهم - قبل الأسبوع الذى عشته بغير مرآة - أن اللحي
تثبت على وجوه الرجال كارثة أصيب بها الرجال ، لأنهم بين اثنتين
إما أن يطلقوها أو يزيلوها ، فإن هم أطلقوها ذواب تنوس على
صدورهم ، نفرت منهم جموع الغايات ، ثم . . . ثم إذا أنت أطلقت
للرجال لحامهم ، فأين يكون الفرق بين الكواسر والرجال ؟ وإن هم
تعقبوها بالخلق كل صباح ، فياله من عناء موصول لا يدري فداحة
رزئه إلا الرجال ! .

ولم أدر إلا خلال ذلك الأسبوع أن اللحي فضل من الله
ونعمة . . . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . . . هي فضل من الله ونعمة ،
لأنها ذريعة بتوسل بها الرجال لينظروا إلى وجوههم فى المرأة كل
صباح ، فلا بأس على المرأة إن هى استهلت يومها بالنظر إلى مرآتها
لتطمئن على جمالها ، لكن ماذا عسى أن يصنع الرجل المسكين ، وقد
عد عارا أن يطمش على جماله ؟ بماذا يبرر أمام ضميره وأمام الناس
نظره إلى المرأة ، بحيث لا تشوب رجولته شائبة من التخنث
والتأنث ؟ . هي اللحية أطال الله بقاءها ، هي اللحية التى تبرر لك أن
تجلس إلى مرآتك كل يوم ، فيسبق إلى وهم الناس أنك « حلاق
برىء عن الهوى ، أملت عليك الصناعة مواضع المجتمع وضرور
الحيش بين الناس ، لأن الناس - لسبب لا أدريه -

يريدون للرجال أن يبدووا بواجه ملساء ، أما الحق الذي لامراء فيه
ولا خداع ، فهو أنك تجلس أمام مرآتك كل يوم ، حبا لنفسك
وإعجابا بها ، ومن ظن أنى أفترى على الرجال كذبا ، فليختلس نظرة
إلى رجل جلس إلى مرآته ليخلق لحيته . سيراه يلوى عنقه يمنة ويسرة
فى عجب وإعجاب ، ويربت يده على خده فى رفق وحنان ، بل فيما
يشبه العشق والهيام .

والناس فى هذا العشق يختلفون درجات ، فمنهم من يشبه
« روميو » ومنهم من يصور « المجنون » ، ولست أدري كم أغرم
قارئ هياما بنفسه ، فأحب أن أسأله : كم صورة لك علقته على
جدران دارك ، وكم منها قد وضعت على المناضد ليطل على الزائرين
فى إبتسامة الظرفاء ؟ . وفى أى إطارات مزخرفة مزركشة قد
وضعت تلك الصور ؟ . أحب أن أسأله : كم تأخذك هزة الفرح
الحفى الحفيف حين ترى نفسك — عند الطرزي مثلا — معكوسا
فى كثير من المرايا فى وقت واحد ، فتتلفت إلى نفسك هنا وهنا
وهناك وعلى شفئك ابتسام ، حتى إذا ما أقبل الطرزي — أو صبيه —
نظرت إلى الأمام فى تبهم خفيف ، لتوهم القادم أنك رجل جاد مع
نفسك صارم ، ترض عليها بكل ماينم عن حب وإعجاب ؟ هذه فطرة
فى نفسى لا أكتتمها ، ولا أظن أنك كاتم ، ولقد ظلت حيناً
طويلا من الدهر ، أغالب هذه الفطرة من نفسى ، فلا أجلس أبداً
أمام آلة التصوير ، حتى اضطررتى القانون أن أصور نفسى لتمام
الشروط لجواز السفر ، لسكنى ماكدت أبصر نفسى مصورة على

الورق ، حتى أخذت أطيل النظر إليها ، أضع الصورة في غلافها
ثم أخرجها لأعيد إليها النظر ، ثم لم أملك سوى أن أعود إلى المصور
ليرسمنى مكبراً اثنتى عشرة مرة دفعة واحدة ! .

إنه لتعجبني من أجدادنا الأولين صراحة لم تعرف خداعاً ولا
رياء ، فإذا ما أحسوا في فطرتهم شهوة أشبعوها ، وأطلقوا لها السراح
فقيم كتمان ما فطرنا الله عليه ؟ كان هؤلاء الأجداد الأولون يرون
صورهم معكوسة على الماء أو غيره من صقيل الأجسام ، فيجبونها
كما يحبون أنفسهم بل يحبونها لأنهم يحبون أنفسهم ، ثم لا يكتفون
هذا الحب ، فيغارون على تلك الصورة ويشفقون عليها من اعتداء
الاعداء ، فيحيطونها بالطلاسم والرقى ، حتى لا ينال منها سحر
الساحرين ، فلا فرق في عالم السحر بين المرء وصورته ، وإن أعز
المرء صورته فقد أعز نفسه ، والحق أن أجدادنا هؤلاء كانوا
يحارون لهذا الازدواج العجيب لنفوسهم ، فما الجسم وما صورته ؟
أين الحقيقة منهما وأين الخيال ؟ أيكون هذا الازدواج من قبيل
الازدواج الأرواح وأشباحها ؟ إذا فليوضع في قبر الميت صورة له
أو صور ، وتمثال له أو تمثيل ، حتى لا يحرم في غربته من هذا
الحبيب ورفقته .

ونحن نحب نفوسنا إلى هذا الحد ، بل إلى أبعد من هذا الحد .

ثم نخفي ونستحي !! .

الصديق مرآة صديقه كما يقول شيكسبير ، قد كنت أفهم هذا
القول فهما صبياناً تافهاً قبل ذلك الأسبوع الذى عشته بغير مرآة ،

كنت في سذاجتي أظن أن شاعر الدنيا بأسرها إنما أراد بقوله هذا
 أن يدلني هذا الصديق أو ذاك عن رباط الرقبة أهو في موضعه أم
 ينحرف قليلا إلى يمين أو يسار ، وبذلك يكون الصديق مرآتي إذا
 عزت المرأة ! أو كنت إذا أوغلت في الفكر والنظر أظن أن الشاعر
 إنما أراد بقوله إن الصديق يدل على نوع صديقه كما تدل الصورة على
 شكل صاحبها ، على نحو ما يقال عندنا : قل لي من تعاشر أقل لك من
 أنت ، لكنني حين افترقت المرأة في ذلك الأسبوع فلم أجدها ، تنبه في
 ذهني معنى آخر ... إني أريد الصديق كما أريد صورتي ، أريدهما
 معا لا أثبت وجودي ! لست بالموجود الكامل حتى أراني معكوسا
 في جسم آخر ، ولست بالموجود الكامل حتى أجد الصديق الذي
 أتحدث إليه فيجيب ، فيكون في جوابه إنعكاس لروحي كما يكون في
 الصورة إنعكاس لوجهي على صفحة المرأة ، إنني أنظر إلى السماء
 والأرض وما بينهما فلا أجد في كل ذلك شيئا واحدا يدل على وجود
 العين التي ترى ! ... لولا أنني أراها معكوسة في المرأة ! ... كذلك
 أعيش وأحيا ، أحس وأفكر ، وأنعم وأتألم ، دون أن أجد شيئا
 واحدا يدلني على وجود هذا الذي يحس ويفكر وينعم ويتألم ! ...
 لولا أنني أراه - أي أرى نفسي - معكوسا في إنسان يجاوبني
 حين أوجه إليه الحديث ! يا إلهي ! كيف تكون الحياة بغير سمر
 وحديث ؟ أبعد هذا ألوم من يمتنع عليه المسامر فيحدث نفسه ؟ !
 ياليت شعري هل خلقت حواء إلى جنب آدم ليم بوجود اثنين كلام
 فتم الحياة ؟ .

يحدث الصديق إلى صديقه لسمع بأذنيه برهان وجوده ، وينظر
المرء إلى صورته في المرآة يرى بعينه أنه هناك كائن بين الكائنات .
نحن إلى هذا الحد البعيد نحب أنفسنا ، نحب أن نراها مصورة
بالكلام المنطوق والرسم المرقوم . . . ثم نخفي ونستحي .
والأمر في الأمة كلها كالأمر في الفرد الواحد ، تريد الأمة — إن
كانت تجرى في عروقها دماء الحياة — تريد أن ترى صورتها مرقومة
وأن تسمع صوتها منطوقا ، له في نفوس الآخرين رجوع وترديد ،
وعرف الناس ذلك الطبع في جبلاتهم ، فراحوا لأنفسهم بالريشة
يصورون وبالقلم يكتبون ، حتى إذا ما تقاطر الناس إلى جدران
المتاحف ، وجدوا الصور — صور نفوسهم — أخرجتها لهم ريشة
المصور ، أو قلبوا صفحات الكتب ، وجدوا الصور — صور
نفوسهم — دجبتها لهم يراعة الكاتب ، والأمة التي ترى صورتها
معكوسة على جدران المتاحف ، مبسوطة على صفحات الكتب ،
لا يساورها القلق على وجودها ، فهاهي ذى نفسها مرسومة مرقومة
على مرأى منها ومسمع .

ونحن — كسائر الأمم — إلى هذا الحد البعيد نحب أنفسنا ،
ونحب أن نراها بالعين ونسمعها بالأذن . لكننا نخفي ونستحي ١١ .
وإذا لم يكن بنا من إخفاء أو استحياء ، فقل لي بربك أين مرآتنا
التي نرى فيها أنفسنا معكوسة مصورة ، صامتة أو ناطقة ، وإن بيننا
لأدباء ومصورين ، وإنهم على فئهم لقادرون ١١٢ .
رفعت القلم الآن ، وأمسكت عن الكتابة لحظة ، ونظرت خلال

نافذة ضيقة على يميني إلى الأفق البعيد ، فصور ت لنفسي أدباءنا في قصر منيف ، يقلبون كتباً ويفحصون أوراقاً لعلمهم واجدون ما يصلح غداً أن يكون مقالة ! . . وأمام القصر ميدان واسع فسيح ، زاهر بمجموع الشعب الحاشدة ، وقد تحلق أفرادها في الزحمة جماعات جماعات : فلاح القرية والشيخ والعمدة ، مأمور المركز والحارس وضابط البوليس ، طالب المدرسة والأستاذ والناظر ، كاتب الديوان والحاسب والرئيس ، الكواء والحذاء والساعي ، والكناس والبواب وبائعة اللبن ، الحبيبان اللذان التقيا بين أعواد الذرة في الريف ، والحبيبان اللذان التقيا في ظلمة السينما في المدن — لأن الشعب لا يعترف بالحب ولا يعرفه — وإلى جانب هؤلاء وأولئك جماعات من طير وقطط وكلاب ، وبعوض وذباب ، وثيرة وأبقار .

ازدحم الميدان الواسع الفسيح بهذه الجموع الحاشدة الزاهرة ، محتجة صاخبة ، وليس احتجاجها هذه المرة على صعوبة المناهج في المدارس ، ولا على كثرة ساعات العمل في مراكز البوليس ، ولا على درجاتهم المالية التي اضطربت وأصبحت في حاجة إلى التنسيق والتنسيق ، لكنها احتجت تريد هذه المرة ما هو أخطر من ذلك ، تريد أن تطمئن على وجودها ، تريد لأنفسها الرسم والتصوير .

إننا لنحس في أنفسنا جنباً لأنفسنا ، وإن أدباءنا على فهم

لقادرون . لكننا نخفي ونستحي !!

شبكة الصياد

صبت صديقتي الشاي في قدحى ، فتناولته ساهما ساكنا ،
وأخذت أتحساه على مهل ، وكأنا بدا على وجهى ساعتئذ شرود
الفكر ، فسألتنى :

قلت : ماذا دهاك ؟ .

قلت : إنه اليوم الأول من شهر فبراير ، إنه يوم مولدى .

قلت : إذا فهو يوم تفرح فيه ، فما لى أراك قد بترت حبل
الحديث وأخذك الوجوم ؟ .

قلت : لا ، ليس ما بى من وجوم ، إنما هى خلقة طبعها الله على
وجهى ، فابدو واجما ولست بواجم .

قلت : لكنك شططت بفكرك فى السحاب . .

قلت : بل سرحت به ديبيا على هذه الأرض ، كررت به راجعا
عشرين عاما ، إلى العام الذى أتممت فيه دراستى العالية ، واستعرضت
فى مثل اللح بالبصر كل ما كان ، وكنت قد بدأت أحاسب نفسى . .
قلت : أعد لى مادار فى رأسك ، لابدأ معك حسابك لنفسك .

قلت : كان البحر مضطربا ، وكانت السماء مكفهرة دكناء ، حين
خرجت بشبكى أقصد الصيد ، وكان معى فريق من الزملاء ، حملوا
شبا بهم على أكتافهم ، إذ كانوا كذلك إلى الصيد يقصدون .

خرج الصيادون جماعة واحدة ، يحملون شباكهم ، كل قد حبك الشبكة حبكا يتفق مع وجهة نظره فيما يراه أنفع في الحياة وأجدى ، وكل لا يكاد يدرى شيئا عن شبكة زميله ، فكان الصيادون في جملتهم يعتقدون أن الشباك قد تقاربت نسجا وحبكا ، فإن اختلفت عيونها سعة وضيقا ، وإن تباينت خيوطها شدة وضعفا ، فاختلافها — في رأيهم — يسير على كل حال ، لن يردى إلى تفاوت كبير فيما يصيدون ، لذلك لم يكن بينهم يومئذ حسد ولا حقد ، ولم تدب في نفوسهم يومئذ شحناء أو بغضاء ، حتى لقد ذهب بهم الوهم الجميل إلى الإيمان بأنهم سيظلون أحبابا أصحابا ، فقد أخرجتهم إلى الصيد قرية واحدة وأسكنتهم تلك القرية منازل متجاورة متقاربة .

أقلعت الزوارق بجماعة الصيادين من مكان واحد عند الشاطئ ، ثم أخذ الموج المضطرب الهائج يباعد بينها ، فهذا زورق يمضى قدما في خط مستقيم ، وذلك زورق ينحرف ذات اليسار ، وثالث يتجه إلى اليمين ، ورابع لم يكد يسبح قليلا حتى ارتطم بالصخر ووقف حيث كان .

وهأنذا يا صديقتى أصور لنفسي جماعتنا وقد عادت إلى الشاطئ بعد رحلة الصيد .

قالت : فماذا رأيت ؟ .

قلت : هالتي الفوارق بين صيد وصيد .

هذا صياد قد أخرج من شبكته سمكة واحدة ضخمة جبارة . لم يكد يراها الزملاء حتى خجلوا من صيدهم الهزيل .

وسألناه جميعا بصوت المشدود المبهوت : كيف كان ذلك
فقال : جبكت شبكتي منذ البداية على هذا الأساس ، فجعلت عيونها
قليلة لكنها وسيعة ، وكنت أعلم منذ البداية أنى مغامر مخاطر متامر ،
فإما عدت بغير صيد على الإطلاق ، أو عدت بمثل هذا الصيد
السمين ، ذلك أن معظم السمك فى البحر — كما تعلمون — متوسط
الأحجام أو صغيرها ، وشبكتى هذه عيونها أوسع من أن تمسك
بمتوسط أو صغير .

فقال له زميل وهو يبلع ريقه الذى جف فى حلقه غيرة وحيرة :
لقد ركنت إلى الحظ فواتاك ! فأجابه الصياد الناجح ضاحكا مزهواً
بنجاحه : ليس الأمر كله حظاً مواتياً . يا صاحبي لا يحملنك الفشل
على غمط الناس حقوقهم ، إننى حين جبكت شبكتى على نحو
ما جبكتها ، كنت أصدر عن روية وتفكير وإرادة
وتدبير ، ثم جاء أوان الصيد فتخيرت الموضع الذى ألقى فيه شبكتى .
وليس التخير الصحيح من قبيل الحظ المواتى والمصادفة العمياء . . .
نعم قد كان من الجائز أن أحبك عيون الشبكة على نحو ما فعلت ، وأن
ألقى بها حيث ألقيت ، فلا تصادفنى السمكة الكبيرة التى رجوت ،
لكن الحياة السليمة الصحيحة القوية هى فى التعرض لمثل هذا الخطر ،
فهو تعرض للخطر قائم على حسن الروية لا على الطيش والجنون ، ثم
هو تعرض للخطر يحدوه الأمل .

وكان طبعياً أن تلتفت أنظارنا إلى شبكة الزميل المعترض ، فإذا
هى مليئة بالسمك الصغير ، إن صيده كثير غزير ، ومع ذلك فقد

أفرغ شبكته خجلاً ، ونظرنا إليه في ابتسامة الساخرين !! فاعجب
لكثرة تبعث على السخرية وتدعو إلى الخجل !! لقد رسم هذا
الصيد خطة صيده على أساس الحذر الشديد والحرص الشديد ، فأعد
لنفسه شبكة ضيقة العيون لا تفلت منها سمكة شاردة أو واردة من
صغار السمك ، لكن كبار الأسماك وأوساطها ليست من نصيبه . إن
السمك الصغير موجود في كل موضع من البحر ، فأينما ألقيت بالشبكة
الضيقة العيون جاءتك منه بعدد كبير ، وأهم ما كان يهتم له هذا الزميل
الصيد ، حين بدأنا رحلة الصيد ، ألا يعود من الرحلة صفر اليدين ،
إنه أراد حصاداً مؤكداً ، فكان لا بد له أن يستغنى عن أوساط
السمك وكبارها ...

لا ، فإني أذكر الآن صديقاً ثالثاً ، كان أكثر من ذلك عناية
وأشد حرصاً ، فقد استوقف صيده انظارنا بأنه خليط من متوسط
وصغير ، وسأله سائل كيف كان ذلك ؟ فأجابه بأنه قد تحوط للأمر
فحمل معه شبكتين ، ووقف في زورقه ممسكاً إحداهما يميناً ،
والأخرى يسيراً ، وعاد بما عاد به من صيد يستوقف الأنظار
لكنه مع ذلك يدعو إلى الإشفاق على صاحبه ! لأن المسكين قد
أجهد نفسه إجهاداً أضناه وأشقاه ، حتى ليكاد ينظر إلى صيده نظرة
المتحسر الذي يحس أنه قد صاد الصيد لسواه ..

قالت صديقتي : إنك لم تذكر شيئاً عن صيدك أنت ، فمالى الآن
ولصيد زملائك ؟ إن اليوم يوم ميلادك ، وقد حلاك أن تشطح
عني بفكرك إلى ماضيك تستعيده ، لتنصب لنفسك ميزان الحساب .

قلت : كانت عيون شبكتي أقرب إلى الضيق منها إلى التوسط أو
السعة فأمسكت بسمكات قلائل ، كلها أقرب إلى الصغر منها إلى التوسط
فضلا عن الكبير والضخامة .

قالت : أفهم أن تجيء أحجام السمك في صيدك أقرب إلى
الضالة منها إلى التوسط أو الكبير ، لكنني لا أفهم أن تكون سمكاتك ،
قلائل ، فما شأن الشبكة وعيونها بكثرة السمك أو قلته ؟

قلت : ها هنا يا صديقتي يقع الخطأ الأكبر في رحلة صيدى ، فقد
أخطأت الحساب وألقيت الشبكة في غير موضع الغزارة والدسم ،
فجعلت أطرحها وأجذبها ، ثم أطرحها وأجذبها ، مرة بعد مرة ، ولا
أظفر في كل مرة بأكثر من سمكة أو سمكتين .

قالت : ولماذا لم تتحول عن ذلك الموضع إلى سواه ؟
قلت : إنه يا صديقتي أمر عجب ، أن يدرك الإنسان مدى إخفاقه
في موضعه ، ثم يستحيل عليه أن يتحول عنه إلى غيره ، كأنما قد أصابه
الشلل فلا يقوى على الحركة ! وأعجب من ذلك أنى إلى اليوم لا أقصد
إلا إلى ذلك المورد من البحر كلها أردت صيداً ، أطرح الشبكة
نفسها في المكان نفسه وأعود بمثل ما عدت به من الصيد في كل
مرة !

لكنني فيما مضى كنت ألقى التبعة على الحظ الأنكد ، كأنما
هذا الحظ رجل من لحم ودم يضطرب معنا في سبيل الحياة ، فيعين
هذا ويعرقل الطريق لذلك ، فلها كبرت وازددت خبرة وودقة ، أدركت
أن تبعة الصيد الهزيل واقعة لا محالة على الصياد ، فالشبكة من نسج

يديه ، وموضع الصيد من اختياره ، إن هذا « احظ » المسكين الذى
نلطخه بأوحالنا ، ونفرغ على رأسه قمامتنا ، مظلوم مغبون ، إنه برىء
إلا بمقدار ضئيل جداً مما يصيبنا . ليتنى أعرف أين يسكن هذا الذى
ظلمه الناس وقسوا عليه ، لأبعث إليه بقطعة من الحلوى اليوم - يوم
ميلادى - تكفيراً عما ألقيته فى فمه من حنظل مر فى سالف
الأعوام .

ثم ابتسمت لصديقتى وسألتها : ترى أين يكون موضعك أنت
من هذه الأنواع المختلفة من الشباك والصيد ؟ .
فقالَتْ ضاحكة : نحن النساء لنا شباك أخرى وصيد آخر .

المئذنة والهـرم

على مقربة من دارى مسجد ، مررت به ألوف المرات ، ولم
أصعد بصرى إلى مئذنته مرة ، حتى كان الأمس ... فقد كنت ماشياً
أمامه ساعه العصر فى طريقى إلى غايتى ، مطرق الرأس ، مفكراً فى
هموم دنيائى — وإن همومى لمن الصغائر الحقائق ، وإن دنيائى
بأسرها لمن التوافه — وإذا بصوت المؤذن ينبثق من شرفة المئذنة
صارخاً : « الله أكبر » .

علوت ببصرى إلى المؤذن عن غير عمد ، لكننى بعدئذ أهملت
الخطى عامداً ، وأخذت أصعد نظرى فى المئذنة وأصوبه ، وأدور به
مع بنيانها حيث يدور ، وأحاول جاهداً — ما استطاع بصرى
الضعيف الكليل — أن أرى ما ازدانت به المئذنة من زخارف
ونقوش ، لأنها فى جملتها قطعة فنية جميلة ، تراها قائمة كأنها العروس
ازينت من رأسها إلى القدمين .

مضيت فى طريقى ، ولم تزل المئذنة ماثلة نصب عيني ، ثم أخذت
تتلاحق فى ذهنى خواطر تمت إلى المئذنة من قريب أو بعيد ، وحمدت
الله أن صرف عني بهذه المئذنة ما كان يضطرب به رأسى من وساوس
وهموم .

كان طبيعياً أن تذكرني المئذنة بالإسلام ، ثم بالعرب في فوزتهم
الجامحة ، وذكرت فتح العرب لمصرنا فتحاً جاءها كالموجة الكاسحة ،
فانتزع من أفواه الناس لغة قديمة ليجرى مكانها لغة جديدة ، واجتث
من قلوب الناس ديانة ليثبت فيها ديانة أخرى وليدة ، وفي غمرة هذه
الخواطر المناسبة سألت نفسي : ماذا لو لم تغزنا هذه الموجة العربية
الثائرة الفائرة القوية العارمة ؟ ولم ألبث أن همست لنفسي في دخيلة
نفسى مجيباً : جاءنا الفتح العربي بالمئذنة ... وكان لدينا الهرم ! فانظر
ما تنطوى عليه المئذنة وما ينطوى عليه الهرم ، ترا الانتقال من حال
إلى حال كيف كان .

كلاهما فارع سامق شامخ بأنفه في الفضاء ، وكلاهما من وحي الدين
يعبر عن القلب وما يختلج به ، أكثر مما يعبر عن الرأس وما يضطرب
فيه ... لكن المئذنة عروس في جلوتها ، والهرم مارد عملاق ، تذكرك
المئذنة بالصائغ الذي ينقر السوار وينقشه ويزخرفه ويزركشه ، وهو
جالس لا يتحول عن مكانه ولا يريم ، أما الهرم فيذكرك برباع يحمل
الأثقال بجسمه القوى وعضله المفلول ، وإن كان ذلك كذلك ،
فانتقالنا من هذا إلى تلك كان انتقالاً من الوثوب إلى القعود ، ومن
الطموح إلى الخمود ، ومن عزة الغالب إلى ذلة المغلوب .

وتذكرك المئذنة بمن طال فراغه ، فأخذ يطيل الوقوف عند
التفصيلات والدقائق ، أما الهرم فيذكرك بمن قصر فراغه فراح يركم
الجلاميد في لهفة العجلان ، وإن كان ذلك كذلك فقد كان انتقالنا
انتقالاً من حياة لاهثة كادحة إلى أخرى هادئة وادعة ، من المشغلة

إلى الفراغ ، من حمل لهُموم دنيانا بأنفسنا إلى اعتماد على سوانا يحمل
لنا همومنا .

المُثدنة تَشْدُ الجمال ، والهرم يريد الجلال ، الأولى تهدف إلى
الركة والرشاقة ، وأما الثانية فهدفه الضخامة والرسوخ ، الأولى أملها
أن تكون زينة للناظرين . وأما الثانية فأمله أن يكون خشناً صلباً قوياً
فتياً ؛ إن راعتك المُثدنة فكما تروعك الزهرة الرقيقة التي تحبها وتعطف
عليها ، وإن راعتك الهرم فكما يروعك الجبل الأشم ، تهابه وتخشاه ،
إن أوحى إليك المُثدنة فإنما توحى برقة العصفور الغرد ، وإن أوحى
إليك الهرم فبالصقر وقف ساكناً لكدنك تلح في سكونه تحفزاً
لانعراضه ، إن حركت في نفسك المُثدنة شيئاً فهو الخشوع ، وإن
حرك في نفسك الهرم شيئاً فهو الحكم والجبروت .

المُثدنة صفيّر ناعم فيه العذوبة الحلوة ، كصفيّر الناي تسمعه فريداً
وحيداً في جوف الصحراء إبان سكتة الليل ، فيميل بك إلى النعاس
الهادئ ، والهرم كضربات الطبول التي ينخلع لدويها قلبك فيستحيل
عليك النوم والرقاد وهي ملء أذنيك ، المُثدنة رقيقة رقة الإناء الجميل
تستحسن شكله وتخشى عليه سرعة الزوال ، وأما الهرم ففيه معاني
الرسوخ والثبات والصمود لأحداث الزمان .

المُثدنة شاعر والهرم فيلسوف ، والشاعر انفعال والفيلسوف
تفكير ، الأول ثورة والثاني روية وتديبر ، المُثدنة شعر والهرم نثر ،
جمال المُثدنة في سلامة الوزن واطراد القائية ، وروعة الهرم في عمق
المعنى وبعد النظر ، الأولى إيقاع يفتن القلوب ، والثاني حقيقة تأخذ

بالعقول ، أو قل إن المذنة بمثابة القصيدة الغنائية الرشيقة ، والهرم بمثابة الملحمة التي تحدث فيها المعارك ويقع فيها ضحام الأحداث ، فإن أشبهت المذنة شاعراً مثل بترارك ظل يتغنى بحبيته ، فإن الهرم شبيه بشاعر مثل دانتى يصف الخطوب ويخوض بك مشاهد الأهوال .

المذنة كالأديب المصنوع ، والهرم كالأديب المطبوع ، الأول يفكر كيف يزخرف ويزركش ، والثانى لا يبالي كيف جاء التعبير عن نفسه لأنه تعبير صدر عن قلب خصب عميق ، المذنة كالبلستان الذى قلت أشجاره وهذبت أطرافه بحيث يصلح تحفة فى قصور الأغنياء والأمراء تنظر إليها العيون ولا تدوسها الأقدام ، والهرم كالغابات والأحراش إن أخطأت النظرة الأولى جماله ، فهو قمين أن يستثير الإعجاب عند النظرة الثانية البليغة المتمهلة .

لو كانت المذنة سمراً خفيفاً لطيفاً لآتمل سماعه ، فالهرم هو صمت الراهب فى صومعته ، يفكر صامتاً ويتأمل صامتاً ، المذنة أشبه بالضاحك لخلاء باله من الهموم ، والهرم أشبه بالمتجهم لما يحمله فوق كتفيه من أثقال وأعباء ، المذنة ملهاة ، والهرم مأساة ، المذنة رجز والهرم من البحر الطويل ، المذنة كرجل أنيق يعنى كل العناية بهندامه ، يهذب شاربيه شعرة شعرة ، ويمشى بحساب ويقف بحساب ويجلس بحساب ، حتى لا يفسد وضع الثياب على جسده ، وأما الهرم فشبيه برجل شغله باطنه عن ظاهره .

قف إلى جانب المذنة ثم قف إلى جانب الهرم ، تحس إحساساً عميقاً عند الهرم أنك إزاء أثر يهبر عن أمة بأسرها ، وتحس عند

المئذنة أنك إزاء أثر أقامه فرد بماله ، فبنَّاء الهرم كالذى بينى بيته بيده
وبنَّاء المئذنة مأجور على صناعته لأنه كالذى بينى لغيره ، فلو قيل
لك : من بنى الهرم ؟ أجبت : المصريون ، وإن قيل لك . من أقام
هذه المئذنة ؟ قلت . فلان . الهرم يوحى بالمجد التليد ، والمئذنة كالنعمة
المستحدثة ، فلو سئلت . من بنى الهرم ؟ قلت . آباؤنا الأولون ، أما
إن قيل لك . من أقام هذه المئذنة ؟ أجبت . لست أدرى !!



المئذنة مثل شروق الشمس ، والهرم مثل غروبها ، المئذنة كالسما
المشرقة الصافية ، والهرم كالיום العابس المتجهم ، إن كانت المئذنة
أقرب إلى فرحة العرس ، فالهرم أدنى إلى كآبة الماتم ، المئذنة ولادة
والهرم موت ، المئذنة غناء ، والهرم رثاء .

فى المئذنة طلاقة الحرية ، وفى الهرم معنى الإذلال (لا الذل) ،
طبقات المئذنة واحدة فوق أخرى وسلمها واحد ، فكل أن يرتقى
ذراها إن أسعفه جهده ونشاطه ، وأما الأهرامات فمفرقات بينها
حواجز ، أقصى جهد الصاعد فى هرم أن يبلغ قمته دون أن ينتقل إلى
الهرم الذى يليه ، فى الأولى مساواة بين الناس مع تفرقة على أساس
مجهودهم ، وفى الثانية تفرقة على أساس الطبقات ، لا يجوز لفرد فى
طبقة أن يماوزها إلى طبقة سواها ، التفاوت فسيح بين قاعدة الهرم
وقمه . أى بين الشعب وحاكمه ، لكنه ضئيل فى المئذنة ، حتى ليكاد
التفاوت بين الأسفل والأعلى أن يكون اختلافا فى الوضع بغير
تفاوت فى القيمة .

المئذنة صريحة تنطق بسر ها على لسان هذا المؤذن ، وسرها بسيط
قوى لا تخشى عليه من الذبوع شينا ، بل إن شئت فقل إنها تريد لسرها
أن يذيع ويشيع ، أما الهرم فكتوم ضنين بسر ه بين جوانحه ، ترى
ألأنه سر عظيم أم لأنه متهافت يخشى ضوء النهار ؟ لكن السر إن كان
عظيما فمن الخسارة كتمان ه ، وإن كان تافها فمن العبث كتمان ه ، المئذنة
تفصح ، أما الهرم فيلغز ويومئ ، المئذنة جنينها حى يخرج من جوفها
يدب ويسعى ، والهرم جنينه ميت دفين يخرج من جوفه ليكون
تحفة للناظرين .

وبعد ، فماذا لو لم تغزنا هذه الموجه العربية الشائرة الفائرة القوية
العارمة ؟ . . . إذا أردت لنفسك جواباً — هكذا همست لنفسى —
فقل : جاءنا الفتح العربى بالمئذنة وكان لدينا الهرم .

حمل الهموم

قلت لنفسى بمناسبة مايحيط بي هذه الأيام من هم وغم ، وما
يكتنف نفسى من هواجس ووساوس . يومك هذا هو غدك بالنسبة
لأمسك ، ألم تكن بالأمس محزون النفس مكروب القواد تفكر فيما
عسى أن يتكشف عنه الغد ؟ ها هو ذا غدك المخوف قد جاء وكاد
ينقضى ، وكانت الشمس على إشراقها والسماء على صفائها ، وكان الناس
هم الناس والأشياء هى الأشياء ، وهكذا سيأتى غد وينقضى ، كما سينقضى
بعد الغد وما بعده إلى آخر أيامك المحدودة فى هذه الحياة ...

الحق أن أمر الإنسان عجب فى حمله لهمومه ، فتكاد لا تجد
إنسانا بغير عبء من الهموم ينقض ظهره ، ثم تكاد لا تجد من
بين هؤلاء واحداً لا ينسى همومه هذه بعد حين ، لكنه ينساها ليضع
مكانها أخرى ! ماذا لو نظرنا إلى همومنا الحاضرة بنفس العين
التي سننظر بها إليها بعد حين ؟ إنك بعد حين يقصر أو يطول ، ستذكر
هذا الذى كان يهملك ويشغل بالك ، فإذا به فى عينك تافه حقير ، فهلا
وزنته بهذا المثقال نفسه الآن ؟

لعل قارئى قد أناه بآاء الصداقة التاريخية المشهورة بين « الدكتور
جونسن » الأديب الإنجليزى الكبير ، وزميله المعجب به « بوزول »

لدى كتب كتاباً في سيرة صديقه وأستاذه « جونسن » فأصبح كتابه
هنا مثلاً يضرب لأدب السيرة في أرجاء العالم كله ، بل اشتقت اللغة
الإنجليزية من اسم « بوزول » فعلا يدل على علاقة الإعجاب التي
تقوم بين متبوع في الرأي وتابعه ، فيقال فلان « يوزول » لفلان ،
أى يبدى له من الإعجاب ما يكاد يفنيه في شخصه ، جاء « بوزول »
هذا ذات صباح عابس الوجه إثر معركة كلامية نشبت بينه وبين
صاحبة المنزل الذى كان يسكن في غرفة منه — والمعارك بين ربات
المنازل والساكنين في بيوتهم معروف مشهور متصل لا تنقطع أسبابه
— فقال له « جونسن » حين سمع النبأ . « إقص بخيالك ياسيدى اثني
عشر شهراً ، ثم انظر كم يبدو هذا الأمر في عينيك من تفاهة الشأن
بعدئذ » ويذكر لنا « بوزول » هذه العبارة في السيرة التي كتبها عن
زميله وأستاذه ، ثم يعقب عليها بقوله . « لو أننا طبقنا هذه النظرة على
معظم حوادث الحياة الصغيرة التي تثير الغضب في صدورنا ، والتي
تقلق طمأنينة نفوسنا قلقاً شديداً ، لكفينا أنفسنا كثيراً من
الإحساسات المؤلمة ، ولقد حاولت ذلك مرات عدة ، فنعمت بأطيب
النتائج » .

واست أذكر اسم الأديب الإنجليزي الذي قرأت له مقالا ممتعاً
رائعاً عنوانه « جبل الهموم » الذي يقول فيه إن جماعة من الناس
لاحظ بعضها على بعض أن كل فرد من أفرادها يحمل في صدره همّاً
ثقيلًا ، فظنوا أن مآدهم بالنسبة لهذا قد لا يكون هما بالنسبة إلى
ذاك ، على أساس الفكرة القائلة بأن مصائب قوم عند قوم فوائد ،

فاتفقوا على أن يخرجوا جميعاً إلى قطعة أرض خلاء ، حيث يلقي كل
منهم بهمه ، ثم يختار له بعدئذ ما شاء من هموم الآخرين ، وتم ذلك ،
فألقيت الهموم من الصدور بحيث تكسب بعضها فوق بعض جبلاً
عالياً ، وانطلق الأفراد بعد ذلك يختار كل منهم ما يحلو له من كومة
الهموم ، فإذا بكل واحد منهم يؤثر همه السابق على هموم سائر الناس
فيحمل همه القديم ويقفل إلى داره راضياً قانعاً ، يحمد الله الذي
لا يحمده على مكروهه سواء ... وإنما يخيل إلينا أننا المنكوبون وحدنا ،
المهمومون وحدنا ، وأن سائر الناس في راحة بال وطمأنينة نفس ،
لأننا لم ندخل صدور هؤلاء الناس ، ولو تغلغلنا في ثنايا قلوبهم ، إذا
لعلنا أن الناس في الهموم سواء ، كل يحمل منها قسماً موفوراً .

لقد ارتسمت على وجهي ابتسامة عريضة حين وقعت منذ أيام
في إحدى المكتبات على كتاب حديث لكاتب أمريكي ، عنوانه .
« كيف تتخلص من عادة حمل الهموم » وقرأت في مقدمته أسطراً
قليل ، هي التي رسمت الابتسامة العريضة على وجهي ، لكنني لم أشتري
الكتاب ، لأنني قلبت صفحاته فوجدتها مفعمة بالنصائح ، وقد آمنت
بعد خبرة حياتي الماضية أن ألف ألف نصيحة لا تساوي جناح بعوضة
إذا قيست إلى أثر الخبرة نفسها ، وإنما استثار ابتسامتي ما يقوله المؤلف
من أنه حين أراد الكتابة في موضوع الهموم ، ذهب إلى المكتبة
العامة في نيويورك ليطلع الكتب التي كتبت في الموضوع نفسه ،
فأخرج من دليل الكتب الحرف الأول من الكلمة التي معناها «هموم»
— وهو نفسه الحرف الأول الذي تبدأ به الكلمة التي معناها «دود»

— فكم كانت دهشته قوية عميقة حين وجد في المكتبة العامة ما يقرب من مائتي كتاب عن « الدود » ولم يجد إلا عشرين كتاباً في موضوع « الهموم » ، وتساءل في عجب . أيمكن بعد ذلك أن نقول صادقين إن الأدب تصوير للحياة ، وإن الكتاب يعكس اهتمامات الناس في مرآيا كتبهم ؟ إني ما سألت إنساناً واحداً إلا وجدته « مهموماً » مع أنني لو بحثت عن يهتمون بأمر « الدود » لما وجدت إلا نفرأ قليلاً ، فكيف نهمل موضوعاً هو من حياة كل إنسان في الصميم ؟ ! اسأل من شئت من الناس . كيف حالك ؟ فان أخلص لك في الجواب وزالت يديك وبينه الكلفة ، أخذ يقص عليك همومه ، على اختلاف الناس في تلك الهموم ، فهذا همه صحته وما أخذ يتعاورها من أسباب العلة ، وذلك همه ضيق ذات يده عما تقتضيه الحياة من نفقات ، وثالث يشكو ما يعانيه من لئوم في طباع الناس ، ورابع همه أبنائه ، فليسوا من النجاة أو من العافية بحيث كان يتمنى ويشتهي ، وخامس يحب فيضحك الناس من حبه مع أنه هو جاد فيه ، وسادس وسابع وثمان . . .

لماذا لانعد أنفسنا لأسوأ حال ، حتى إذا ما جاءت الحال خيراً مما توقعنا انشرحت لها صدورنا واطمأنت نفوسنا ؟ كم من مرة غيرت بدلتى ، فلها دسست يدي في جيب سروالى وجدت عشرة قروش أو عشرين ، كنت قد نسيتهما هناك ، فيكون لها في نفسى فرحة كبيرة كأنما عثرت على كنز دفين ! ! لماذا ؟ لأن الحالة الواقعة خير من الحال المتوقعة ، توقعت جيئاً خالياً ، فإذا به يحمل في طيه

القروش ، ولا عبرة بعد ذلك قلت تلك القروش أو كثرت ... ترى
 أتكون فرحتنا بالحياة موصولة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، لو أننا رسمنا
 خططها على هذا الأساس ؟ أعني لو أننا توقعنا في كل موقف أسوأ حال
 ممكنة ، فهما جاءنا بعد ذلك من نزر قليل ، كان في أعيننا فيضاً غزيراً .
 لو أنني جعلت من نفسي مقياساً لسائر الناس ، لقلت في غير تردد
 إن حركة الجسم أفعال أداة تزيل الهموم الجاثمة على صدر المهموم ،
 أجلس إلى مكتبي فتتراكم في رأسي همومي ، فأرتدى بدلتى وأنزل
 من فوري وأمشي مشية سريعة قوية ، فإذا الرأس قد خلا بما كان به
 ولا بد أن أرد الفضل في هذا إلى صاحبه ، فقد كسبت هذه الخيلة
 البسيطة النافعة من « ثورو » منذ أعوام طوال ، حين قرأت له موازنة
 جميلة بين حياة الإنسان وحياة الحيوان — وهو يفضل الثانية على
 الأولى — وكذلك ورد العلاج نفسه في إحدى قصائد « رديارد
 كبلنج » إذ قال . إن الإنسان إذا ما نال منه الهم ، فليس علاج حاله
 أن يجلس ساكناً أو أن يقطب الجبين وهو مكب على كتابه بجوار
 المدفأة ، بل علاجه أن يحمل منجلاً كبيراً ومجرافاً ، ويأخذ سمته
 نحو حقل أو غابة ، ويظل يقطع النبت والشجر ، ويعرف تربة الأرض
 حتى يقطر جسمه بالعرق ، فإذا لم يؤد ذلك إلى زوال همومه ، فلا
 أقل من أنه ينبغي للناس خضراً قد تملأ بهض البطون الجماعة !
 ورد ذلك كله على خاطري حين أخذتني الهموم هذه الأيام ،
 « وتفاسفت » على نفسي ما شئت لي قدرتي ، فأرأيت في كل ذلك
 نفعاً كبيراً ... فالظاهر أن الكلام شيء ، والواقع شيء آخر !

سحر الكلام

لئن زعمت لك أن للكلام سحراً ، فإنما أقصد السحر بمعنى الكلمة الدقيق ، ولا أرسل الكلمة إرسالاً على سبيل المجاز ، فلكم شهدت بعيني رأسي أناساً أحلامهم أتفه من أحلام العصافير ، ووهبهم الله نعمة الكلام المعسول ، شهدتهم يتحدثون إلى هذا الرئيس فيحكم لهم الرئيس المتزن العاقل برجحان التفكير ! وشهدتهم يتحدثون إلى تلك الفتاة فتحكم لهم الفتاة الحذرة المترتبة بخفة الدم ، ثم تفتح لهم قلبها على مصاريعه !! ولم يكن ذلك الرئيس عيباً ، ولا كانت هذه الفتاة حمقاء ... لكنه سحر الكلام !! فوالله لو انفتحت لي أبواب السماء لأتمنى ، لما تمنيت منك يارباه إلا أن تهني طرفاً من حلاوة الكلام التي تستميل عقول الرجال ، وتنفّح لها قلوب النساء ... ليت صديقتي تعلم أنني كلما عدت إلى داري بعد لقاءها ، جعلت أقرع نفسي تقريراً وأؤنبها تأنيباً ، هامساً لنفسي : كان ينبغي أن تقول هذا ، ولم يكن ينبغي أن تقول ذاك ، كيف يمكن - يا أحق - لإنسان أن يظفر بقلب إنسان بغير حلاوة الكلام ؟! وأذهب من جديد ، معزماً مصمماً ، فإذا بالكلام الجميل الذي فكرت فيه قد أوصدت دونه الأبواب ، وإذا باللسان يتلعم ، والقول يلتاث على سبيله ... إنها

طبائع ، بل إنها نعمة الله ، يهبها من شاء ، ويحرمها من شاء ، بغير حساب .

ومتى كان الكلام بغير سحر ؟ هذه شهر زاد قد سحرت السلاطين بحلو كلامها ، فإذا هو يبقى على حياتها ألف ليلة وليلة ، لينصت إلى قصصها الجميل ، الذى لولاه لطار عنقها بعد ليلة واحدة ، بل نستطيع أن نعمم القول تعميماً يشمل سائر النساء وسائر الرجال ، فنقول إن سيادة المرأة على الرجل مرهونة بحسن كلامها ، فما شهر زاد إلا واحدة تمثل جنسها كله ، وما السلطان إلا رجل يصور كافة الرجال . . . ومن يدرى ؟ لعل الله — جلت حكمته — قد وهب النساء ثروة الحديث من أجل هذا ، فإذا ما عاد الزوج منهوك القوى مهدود الجسد بارد القلب جامد اللسان ، فكيف تكون الحال لو سكنت الزوجة ؟ ! الكلام وحده هو مفتاح القلوب ، هو الذى يشيع فى الهواء روح الود والمحبة ، وإن كان ذلك كذلك فما ينبغى لنا أن نعيب فى المرأة انطلاق لسانها ، وإنما العيب كل العيب ألا تكون كذلك .

إن الحياة الاجتماعية لتقتضينا — رضىنا أو كرهنا — أن نتكلم حتى وإن جاء الكلام خالياً خاوياً لا يقول شيئاً ، فإذا جاءك ضيف ، أو إن قابلك صديق ، فحتم عليك لا مفر منه ، أن تتكلم ، ولن يلتبس لك الناس عدرا إذا أمسكت عن الحديث ، وها هنا يتفاوت الناس تفاوتاً فسيحاً ، فمنهم من « تدور أسطوانته » بغير انقطاع وفى أى لحظة شاء ، ومنهم من يظل ينكت رأسه نكتاً ليستخرج كلمة واحدة يقو لها فلا يجرد ، وهذه الطائفة الأخيرة هى التى حل بها غضب الله ونزلت

بها نقمة المجتمع ! الكلام مع الناس واجب ، ومن قصر في أداء هذا
 الواجب الاجتماعي ، كان جزاؤه الإهمال ، بل كان جزاؤه
 الكراهية والمقت ، وإن أنس لا أنس يوما دخلت فيه على رئيس
 أطلب حتما ضائعا . واستقبلني الرجل استقبالا طيبا كريما ، ولكن
 عز على نفسي أن أقف موقف الذي يطلب شيئا ، فاعتقد لسانى ،
 وزمت شفطى ، وسرت في جسمى رعدة ، وظننت أن قد أصابنى
 شلل ، فعجب الرجل عجبا ، وابتسم ابتسامة الذى لا يفهم . وذهب
 الحق الضائع مع الرياح أبديدا ... لأننى حرمت نعمة الكلام ! فقل
 شيئا من لاشيء ، تكلم فى غير معنى مقصود ، وإلا نبذك الناس نبذ
 النواة ، نعم إنى أعترف لك أن الثروة الفارغة فن يحتاج إلى قدرة
 ومهارة — أين أنا منهما يارباه ! — لكنه فن واجب ، وفى هذا
 الصدد يتندر الإنجليز عن فتاة لم يتقدم إلى خطبتها خاطب وكاد أوانها
 يمضى ، فقيل لها : العلة فى انصراف الناس عنك هو أنك لا تتكلمين ،
 تكلمى ثم تكلمى وتكلمى ينجذب اليك الشباب انجذابا ، فالكلام وحده
 هو أحبولة الصيد ! وصممت المسكينة على أن تتكلم مع جارها فى
 أول حفل للشاي عقدته صديقة لها ، وجاء أوان الحفل وجلس إلى
 جانبها شاب كما تمننت ، لكن أين فى رأسها الكلام الذى أرادته ؟ !
 اللهم احلل من لسانى عقدة وألهمنى ما أقول ! وأخيرا ، وبعد جهد
 ولأى ، قالت لجارها الشاب : أحب القهوة غير مخلوطة باللبن ؟
 فأجابها الشاب بقوله : لا ، وسكت ! ! فرغ الحديث فماذا تقول ؟
 فأعادت السؤال فى صورة أخرى : وأنتك هل تحب القهوة غير

مخلوطة باللبن؟ فأجابها : ليس لى أخت . ماذا تقول بعد ذلك ؟
أعادت السؤال فى صورة ثالثة : لو كان لك أخت ، فهل كانت
لتحب القهوة غير مخلوطة باللبن ، فضحك الشاب وضحك السامعون
سخرية ، وحكم المجتمع على المسكينة بالطرد من حظيرته طردا لارجعة
لها بعده . . . لأنها لم توهب نعمة الكلام ! .

للكلام سحر عجيب فطن إليه أقدم القدماء فجعلوا للكلمات المعينة
فعلا معيناً ، أو قل جعلوا للكلمات « أسراراً » ، فتستطيع — مثلاً —
أن تشفى من مرضك لو كتبت كذا وكذا ، وحملت المكتوب
معك « حجاباً » ، وتستطيعين أن تظفرى بحب حبيبك المارق إن
قلت كيت وكيت ، بل إن الجلود الثقيل فى سفح الجبل لينزاح من
مكانه إذا نطقت بلفظة « سسم » كما جاء فى بعض الأساطير ، ولو
كررت هذه اللفظة المعينة ألف مرة ساعة الفجر انفرجت كروبتك ..
إن من بين الآلهة المنقوشة فى الهرم ، إلها اسمه « الكلمة » ، ذلك
لأن « الكلمة » لم تكن فى عصور السحر رمزاً نشير به إلى هذا أو إلى
ذاك ، لكنها قد تكون مصدراً لقوة تحرك النفوس ، بل تحرك
الطبيعة إلى حيث يريد لها الإنسان أن تتحرك ، فإن جفت عيون السماء
وأجذبت شعاب الأرض ، ففى مقدورك أن تستنزل الغيث بكلمات ،
وإن حاربت العدو فقد تنتصر عليه بكلمات ؟ ثم انظر إلى الخطيب
وما يستطيع أن ينزله بنفوس السامعين من أثر ! واذكر أن معظم
الخطب القوية الفعالة لاتحمل ألفاظها إلا قليلا جدا من جيد المعنى ،
لكنه الكلام وسحره !

الحق أنك تخطيء أخش الخطأ لو ظننت الكلام « حبرا على الورق » أو موجات صوتية يهتز بها الفضاء ، إن كل كلمة كائن حي ينبض بالدماء الدائرة في عروقه وبالتنفس تهتز به رئاته ، كم ألف ألف من البشر قد ألقوا بأنفسهم في التهلكة من أجل كلمة ! الحرية ، الديموقراطية ، الوطنية ، وما إلى ذلك من كلمات تحرك بقوتها جحافل الجيوش ... إنها « كلمات » لا أكثر ولا أقل ، وبربك لا تقل إن هؤلاء الألو ف إنما يزهقون أرواحهم في سبيل ما وراء هذه الكلمات من معان ، لأنى أراهنك بنفسى إن وجدت رجلا واحداً يفهم على وجه الدقة ما وراء هذه « الكلمات » من معنى ، لست أشطح مع الخيال الجامح إن زعمت لك أن الكلمة من هؤلاء لها شخصية حية قد تكون أفعل وأقوى من شخصية الإنسان ، لأن الإنسان لا يتحرك ولا يحرك إلا بفعلها .

وهل تظن أسماء الأشخاص - وهى كلمات - مجردة عن الحياة ؟ إن اسمك جزء منك لا يتجزأ ، تحب له أن يكرم وأن يعلو ذكره ، إنك إذا قصدت إلى ساحرة ، تريد بأحد عندها خيراً أو شراً ، فحسبك أن تذكر الاسم لينوب عن المسمى ، والبدائيون - وأشباههم من الأمم المتحضرة - يكرهون أن تذكر أسماءهم علناً ، رأيت كيف يخفى الزوج اسم زوجته والزوجة اسم زوجها ؟ لأن الاسم ليس مجرد كلمة تقال ورمز يشير ، بل هو فى ذاته « شخصية » حية ، ولا عجب أن ترى عامة الناس يطلقون أحياناً على أبنائهم أسماء ذميمة كريهة ، إذا ما أرادوا أن يبعدوا عنهم رسل الموت .

إن كلمات اللغة تقام مشحونة بالفكر والعاطفة ، ويتكشف في بعضها تاريخ طويل ، لذلك قد تربط كرامة الفرد أو كرامة الأمة كلها بكلمة أو كلمات ... وإن كان ذلك صحيحاً بالنسبة للكلام يجيء كما اتفق ، فما ظنك بالكلام الذي يبلغ أن يكون بياناً ؟ ! ألا إن من البيان لسحراً .

النجاح والفشل

أصبت فشلاً في أمر من أمري ، فقلت لنفسي وأنا متزن الأعصاب هادئ التفكير : « لعله خير » .

وهذه العبارة التي قلتها لنفسي ، كثير آما تدور على ألسنة الناس كلما أصابوا في أمرهم فشلاً ، وهم يعنون بها : « لعل هذا الفشل أن يكون نجاحاً » .

وتوقع النجاح من الفشل فيه تناقض ظاهر ، لأنه إن كان فشلاً فيستحيل أن يكون في الوقت نفسه عاملاً من عوامل النجاح ، وإلا لكان الاسم هنا مطلقاً على غير مسماه .

لكنه تناقض ظاهر ، وأما المتعقب للأمر في بواطنها فقد لا يجد تناقضاً بين فشل الساعة الراهنة ونجاح المستقبل القريب أو البعيد . وإني إذ أستعرض حياتي الماضية وحياة من أعرف من الناس لأستخرج عشرات من الأمثلة لحادثات كانت فشلاً محققاً في حينها ، وإذا بالأيام تدور دورة سريعة وتخلف الظنون ، لأن ذلك « الفشل المحقق » في ظاهره ، قد كان في حقيقته نجاحاً لا شك فيه . فحوادث الأيام سلسلة متصلة حلقاتها . كل حلقة فيها نتيجة لما مضى وسبب لما هو آت . ونتائج الحادثة الواحدة لا عدد لها ولا تقف عند حد ، وربما خيل إليك أنها حادثة عابرة قصيرة العمر . جاءت لتوها ومضت لتوها

والحقيقة هي أن الحادثة مهما تكن تافهة قد تتسلسل نتائجها إلى أمد بعيد ، فكأنما الحادثة الواحدة حجر ألقي به على صفحة ماء بغير شطآن ، فتظل حلقات الماء تتسع وتتسع لغير نهاية معلومة ، وما أصدق الكاتب الإنجليزي الذي قال : إنه يستحيل الحكم على إنسان بنجاح أو بفشل حتى يموت ويصبح جزءاً من الماضي ، لأنه مادام حياً فهناك احتمال أن يظهر بعض النتائج في مجرى حياته ، مما يغير الحكم عليه بهذا أو بذاك .

فهذه فتاة أعرفها ، خطبها طبيب شاب ، ولم تكن تتوقع أن يخطبها كل هذا الشباب المزدهر وكل هذا المستقبل المديد العريض . لأنها من أسرة متوسطة الحال ، وليست على كثير من الجمال بحيث تفتن العقول وتسحر الأبواب ، لكن شاءت المصادفات أن يتصل ذلك الطبيب بأخ لها ، وأن تكثر الزيارة بينهما وأن تكثر رؤيته لها في تلك الزيارات ، ثم شاءت المصادفات لهذا الطبيب أن يفكر في الزواج في هذا الحين وكلما فكر لم يثب إلى خاطره إلا تلك الفتاة . . . نخطبها إلى أخيها . وقل ماشئت عن نشوة الفرح التي أخذت الفتاة وأهلها جميعاً . لأن ما هو أبعد من الأحلام قد تحقق في مثل اللحم بالبصر ! وراح أبناء الأسرة يتهامسون في عجب : فلانة خطبها فلان ؟ ! وهنا كنت تسمع من تعليقات السامعين ما يبعثك على التأمل حيناً والضحك أحياناً .

واتفق على يوم تعلن فيه الخطبة وتلبس الخواتم في الأصابع ، ويحجى اليوم المضروب ، ويدعى أفراد الأسرة جميعاً ، ويصطفون

صفوفا على الكنبات والمقاعد ، وتدار أقذار « الشربات » وقطع
الخلوى أشكالا وألواناً ، ولم تكن أسرة الفتاة بقادرة على تلك
النفقات كلها ، لكن « العريس » صفقة رابحة جداً ويستحق هذا كله
وأكثر من هذا كله . . .

وما هو إلا أن جاء الخاطب الشاب وأبوه ، ولم يكن في صحبته
أم ولا أخوات ، مما جعل العيون تتلفت والشفاه تهمس ، لكن
ماقيمة الأم والأخوات ، بل ماقيمة الدنيا كلها ، مادام « العريس »
بنفسه وشخصه قد جاء ، جاء في سيارته الخاصة !! ولم يكن يخطر على
رأس إنسان من محيط الفتاة أن تقف على بابها سيارة خاصة . . . وما
أسرع ماتشعر القلوب بالخطر حين يقبل ! ماأسرع ماتخفق القلوب
وتنبض خفقاً غريباً ونبضاً عجيباً حين يحس الإنسان بأنه قادم على
كارثة قريبة الوقوع ! لكن الإنسان في مثل هذه الحالات لايزيد
على قوله لنفسه ولأصدقائه الخلاء : « إن قلبي يحس خطراً » ، ثم
يمضى فيما هو ماض فيه إلى آخر الشوط ! أين أين هذا الإنسان
الذى يزعم لنفسه ولنا أنه يسير في حياته وفق العقل والمنطق ؟ أين
هو لأضرب له ألف مثل ومثل على سير الإنسان في حياته مدفوعاً
كأنه الحجر الأصم ينزلق على سفح الجبل ، لاحول له في ذلك ولا قوة
يدرك الخطأ في سيره ، ويرى الخطر في طريقه ، ثم يمضى فيما هو ماض
فيه إلى آخر الشوط ! .

إذاً فقد أقبل « العريس » ولم يكن في صحبته إلا أبوه ، وتلفتت
الآعين وهمست الشفاه ورجفت القلوب إحساساً بالخطر ، وما هو

إلا أن أعلن الخطر عن نفسه وتبدى ، ذلك أن الطبيب الشاب قد جلس مطرقاً من هم ظاهر ، وما هكذا يكون « العريس » . وأما الوالد فما لبث أن نقر الأرض بعصاه ، وأعلن أنه جاء ليعتذر عن إتمام الخطبة لأن الظروف غير مواتية من بعض وجوها . .

وانقض كل شيء ، وبكت الفتاة ماشاء لها البكاء ، ورثت لحظها المنكود ماوسعها الرثاء ، وكانت تشاركها أمها بكاءها ورثاءها حيناً ثم تعزيها عن مصابها حيناً ... ومضى شهران ، وخطبت الفتاة وتزوجت ، وأما صاحبنا الطبيب الذى كانت الدنيا قد فتحت له آفاقها فقد اندك صرح حياته فى لمحة واحدة ، إذ قرأنا فى الصحف نبأ اشتراكه فى جريمة مما انتهى به إلى السجن حيث لا يزال فى غياهبه ، وقال قائل : إنه لم يجرم عن رذيلة مطبوعة فى نفسه ، لكنها الحوادث لفته لفا فى أحاييلها وهو لا يدري .

وليس من شأننا الآن أن نعلم ، كان الطبيب فى حقيقة الأمر مذنباً أم بريئاً ، لكن الذى نكتب من أجله ، هو أن الفتاة وأهلها جميعاً راحوا يغبطون أنفسهم على هذا الحظ الجميل الذى افلتت به الفتاة من زوج كان على قيد أشهر قليلة من السجن ... وهكذا كان « الشر » « خيراً » بل هكذا يكون الشر الظاهر خيراً فى حقيقة فى كثير جداً من الحالات .

وليس يمكن أن نجد تعبيراً عن هذا المعنى خيراً مما ورد فى القرآن الكريم عما دار بين موسى والخضر عليهما السلام : « قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلن بما علمت رشداً ؟ قال : إنك لن تستطيع

شئى صبراً ، وكيف تصبر على ما لم تحط به ؟ خبراً ؟ قال : ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً . قال : فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكراً ، فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها . قال : أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمراً . قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً ؟ قال : لا تترأخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً ، فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله . قال : أقتلت نفساً ذكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئاً نكراً ، قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ؟ قال : إن سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيّفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ، فأقامه . قال : لو شئت لاتخذت عليه أجراً . قال هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ، أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين ، فخشيّنا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً ...

كم وجهاً عابساً من حقه أن يتسم إذا عرف صاحبه أن ما ظنه فشلاً قد أصابه ، إنما هو فى حقيقة الأمر نجاح إذا قيس إلى نتائجه البعيدة ! إن الإنسان قد يدرك عاملاً واحداً من عوامل الحياة الجارية

ويقوته ألف عامل ، ثم تراه يحكم بما علم ، وما خفي عنه واستتر كان
أعظم ، يقول الناس عن فلان إنه نجح في حياته وعن فلان إنه فشل
والنجاح والفشل لا يكونان إلا بالنتائج . والنتائج لا تقف عند حد ،
فكيف يمكن الحكم ؟ لقد قيل عن هتلر في غضون الحرب : إنه نجح
لأنه انتصر ، ثم قيل : بل فشل لأنه انكسر ، ثم قرأت مقالا منذ عام
للسير يفردج يقول عنه : إنه المنتصر حقا ، لأن ألمانيا زاد سكانها
في آخر الحرب عنهم في أولها ، وستكون العبرة آخر الأمر بالسكان
وهكذا ستظل النتائج الجديدة التي تتكشف عنها الأيام تحملنا على تغيير
حكمنا بالنجاح أو بالفشل كل يوم مرة .
وإن كان ذلك كذلك ، أفليس جديراً بالإنسان العاقل أن يتسم
متفائلا لكل ما يجيئه به الأيام ؟ .

الصدقة العابرة

كثيرون هم أولئك الذين كتبوا عن الصداقة والأصدقاء ، فوفقوا وأجادوا - أذكر منهم على وجه التخصيص أرسطو وبيكن ، لكنى لا أحسب أحداً من هؤلاء جميعاً قد كتب شيئاً فى نوع من الصداقة عجيب ، يمر فى حياة الانسان مرور الأطياف والأحلام ، فلا يستغرق أمده إلا ساعة أو ساعتين ، أو قل يوماً أو يومين ، ومع ذلك تراه يترك فى النفس أثراً قد يبلغ من الشدة والعمق ما لا تبلغه الصداقة الثابتة الدائمة .

وإنما أردت بذلك تلك الصداقة العابرة التى تنعقد أواصرها بين اثنين يلتقيان فى قطار أو فى فندق أو على شاطئ البحر أو ما إلى ذلك من أماكن لا تتيح للجمعيين إلا حيناً قصيراً ، حتى إذا ما بلغ القطار غايته ، أو انفض الاجتماع حيثما كان ، تفرق « الصديقان » ، ولم يعد للصديق منهما شأن بصديقه ، بل قد تنعقد أواصر هذه الصداقة العجيبة وتتوثق عراها ، دون أن يعرف أحد من الصديقين اسم زميله ! .

وقد التقيت منذ قريب بطيف من هاتيك الأطياف العابرة ، التقيت به فى فندق أقيم فيه ، حيث شئت لنا المصادفات أن يكون مكانه فى غرفة الطعام على نفس المائدة التى أجالس إليها .. أكلنا الوجبة الأولى

معاً ، دون أن ينطق أحد منا بكلمة لأخيه ، أما هو فأنجليزى نشأ
وتربى على أن يلتزم حدود نفسه لا يكلم أحداً ولا يتدخل فى شأن
أحد إلا إذا دعى إلى ذلك ، وأما أنا ففى خلقى من هذا الالتزام شىء
كثير ، أضف إليه موجة مؤقتة من الكآبة وضيق النفس تغمرنى
فلا تكاد تترك لى متنفساً أستششق منه الهواء النقي الطليق ، وهى بالتالى
لا تدع لى من فسحة الصدر متسعاً يفتح شهيتى لمبادلة الناس
الحديث .

وجاء وقت الوجبة الثانية ، وبدأنا صامتين ، لكن الظروف لم
تلبث أن دفعتنا دفعاً إلى الكلام ... وما هو إلا أن أخذ الرجل
يبدى إعجابه بالقاهرة ، فقد جاءها زائراً لأول مرة ، وتمنى لو أتحت
له الفرصة فيعمل فيها ويقيم ، وهكذا بدأت سلسلة الحديث بيننا .
لسكنها سرعان ما غاصت بنا فى أعماق نفسينا ، وراح ينفص لى هذا
الزميل شيئاً من أخص خصائص نفسه ، إذ أخذ يقص على كيف
نشبت خصومة حادة عنيفة بينه وبين أبيه بسبب فتاة إيرانية أراد أن
يتزوجها ، التقى بها فى اكسفورد حيث كانا يدرسان معاً ، وأحبها
وصمم على الزواج منها ، وأبوه لا يريد أن يتم بينهما هذا الزواج ...
فكأنما وجدت فى ذلك ذريعة كنت أشدها منذ أيام ، وجعلت
بدورى أفرغ فى أذنه كلاماً كان جيساً فى صدرى ، لم أبح به إلى
أخلص الأصدقاء ، واستمع الرجل إلى فى صبر جميل واهتمام ظاهر
كأنه أراد أن يدرس أوضاع الأمور فى مصر من حوادث قصتى ،
ومهما يكن من أمره فى ذلك ، فقد وجدت أنا فى ذلك الصديق

العابر متنفساً لحم كان يضطرب بين جنبي كما تضطرب النار في جوف
البركان لتلتبس لها مخرجاً .

لقد أخلصت الحديث لهذا الصديق العابر ، وأوشكت ألا أبقى
في صدرى شيئاً دفيناً ، كأنما كان الرجل قسيساً ، وكأنما كنت آثماً
أراد أن يزيح عن صدره عبء إثمته بالاعتراف به في حضرة ذلك
القسيس ، ولو كان هذا الصديق العابر صديقاً من أصدقائي الملازمين
الدائمين ، لقلت بما بنفسى شيئاً وأخفيت شيئاً .

فالصديق العابر في مثل هذا التنفيس والترويح خير من الصديق
الأصيل الدائم ، لأنه لا يعرف عنك إلا أنك إنسان يبادله الحديث
فلا شأن له بماضيك ولا حاضرك ، لا شأن له بأصلك وفصلك وآمالك
وآلامك ومطامحك ومطامعك ودخائل نفسك ، فلا نرى وأنت
تنفض إليه جملة حالك . ما يبرر لك أن تكتم عنه من سرّك شيئاً .
إن موقفه منك كموقفك من الممثل تراه على المسرح أو على الشاشة
البيضاء . فلا تدري من أمره إلا ما يقوله في هذا الدور المعين من
هذه الرواية المعينة ولا شأن لك به بعد ذلك .

إن الصداقة الدائمة مهما بلغت من الشدة والعمق والإخلاص ،
فلا تخلو من تنافس بين الصديقين . بل ماذا أقول ؟ أقول في غير
تحفظ إن التنافس لا يشتد إلا بين الصديقين ؟ إن روح النسابق تكاد
تعدم وأنت غريب بين غرباء . ولا يكون تسابق وتنافس وتنازع
إلا وأنت في دنياك الاجتماعية الخاصة ، وما دنياك هذه إلا جماعة
معارفك وأصدقائك ، فلا غرابة — إذاً — أن تجد من نفسك حافزاً

يحفزك على كتمان شيء من نفسك على أصدقائك الخالص لأنهم — على
شدة إخلاصهم لك وإخلاصك لهم — هم منافسوك . وليس من
صالحك أن تطلع منافسك على كل سر . أما الصديق العابر الذي
لن يلزمك إلا ساعة أو ساعتين في قطار . أو يوماً أو يومين في
فندق ، فلا يكون بينك وبينه سباق على شيء ولا تنافس في سبيل شيء ،
إنها ساعة أو ساعتان أو يوم أو يومان ، ثم ينصرف كل منكبا بعد ذلك
إلى سبيله . فهو إذاً خير متنفس للكروب المغموم . وأفضل من يثبه
الإنسان همومه وأحزانه .

عجبية هذه الصداقة العابرة في سرعة نموها وسرعة ازدهارها .
فكانها شجرة وضعت في ظروف صناعية لشمر فاكهتها قبل أوانها
المعهود ، كأنها شجرة لم تترك للعوامل المناخية الطبيعية تتولاها فتعينها
على النمو مرة وتعوقها مرة . ولا تسمح لها على كل حال بطرح الثمر
إلا بعد شهور معلومة . بل وضعت في بيت من زجاج ، نفخت فيه
تيارات هوائية بدرجة الحرارة المطلوبة . فلم تجد الشجرة إلا العوامل
المواتية المساعدة دون المعاكسة المعرقة فأسرعت نمواً وإيراقاً
وازدهاراً وإثماراً . نعم إن هذه الصداقة العابرة عجبية في سرعة نموها
فقد تبلغ بعد ساعات قليلة من الشدة وحرارة العاطفة ما لا تبلغه
الصداقة في الظروف الطبيعية في أشهر وأعوام ، وكأنما هي تعوض
عن قصر أمدها بعمق شعورها ، تعوض عن قلة اتساع السطح بزيادة
العمق وبعد الغور .

وتدنو هذه الصداقة العابرة من نهايتها مسرعة ، فيتولاك شعور

فريد في نوعه ، شعور افتراق لالقاء بعده ، هو شعورنا إزاء الموت ،
لكنه بدرجة أخف وألطف وأبعث للنفس على الخصب والفاعلية ،
تنظر إلى صديقك هذا الذي عرفته منذ حين قصير ، والذي توثقت
بينك وبينه الصلة على نحو أتاح لك فرصة تفرغ فيها كل ما يثقل نفسك
من شواغل الهموم التي لا تجيز لنفسك أن تبوح بها لأحد من أهلك
وأصدقائك ، تنظر إليه بعين المتحسر على هذا اللقاء الجليل الذي لم يكد
ينشأ حتى كان ختامه ، تنظر إليه وصوت في نفسك يهمس متعجباً :
هذا صديق لن أراه إلى الأبد .

لقد أمسكت عن الكتابة هاهنا لحظة ، فأخذت تنساب في رأسي
صور متلاحقة لأشخاص التقيت بهم هنا وهناك ، ودامت الصلة
بيني وبينهم ساعات أو أياما ، اشتدت فيها العلاقة بيننا حتى امتزجت
نفوسنا امتزاجا . واندجت قلوبنا اندماجا ، ثم تفرقت بنا سبل الحياة
حيث لالقاء بعد ذلك إلى الأبد !

قابلت « م » في قطار « السهم الذهبي » بين لندن وباريس ، ولم
نكد نبدا الحديث حتى خيل إلينا أننا أصدقاء منذ أمد بعيد ، جعلت
أخبرها وجعلت تخبرني كأن جبل الحياة متصل بيننا ، ثم بلغ بها القطار
غايته ، ولعلني كنت أحس بهذه الخاتمة القرية ، ولعلها كانت تحس ،
فأخذت صداقتنا تتكشف وتغزر لحظة بعد لحظة ، كأنما عز علينا أن
يتبدد هذا اللقاء ونشبثنا بمسكين بقبضتين قويتين على هذا الود الوليد ،
لعله يدوم ، لكن القطار بلغ بها غايته وافترقنا إلى الأبد ، وقابلت
غير « م » كثيرين وكثيرات هنا وهناك ، وتوثقت بيني وبينهم

أسباب الصداقة الحققة والود الصحيح ، وهما هي ذى ذكرياتهم تنساب
الآن فى رأسى متلاحقة ، هذه أذكرها بابتسامتها ، وهذا بعبارات
معينة تحدث بها إلى ، وتلك بنبرة صوتها ... كل هؤلاء قد ضربت
الأيام بينى وبينهم إلى الأبد ...

أليست هذه الصداقة العابرة — بكل ما تترك فى نفس الإنسان
من أثر يدوم عميقاً مع الأيام — جديرة من الكاتب بالتحايل
والتسجيل ؟ .

قيص السعادة

يحكى أن رجلا ضاق بنفسه وضاقبت به نفسه ، ومل الحياة وملته الحياة ، لا يكاد يستقر في مكانه من مأواه حتى يخرج هائما على وجهه في الطريق ، ثم لا يكاد يهيم في الطريق على وجهه حتى يتقل راجعا إلى مكانه من مأواه ، ولبت على هذا النحو حيناً ، فاشتد به القلق ، ولم يعد في قوس الصبر عنده منزع .

وما هو ذات يوم إلا أن ضرب المنضدة أمامه بجمع يده ، وقال لنفسه في لهجة حازمة جازمة : إما موت وإما حياة — كما يقول هاملت — إما موت يقضى على هذه الحياة الخيالية الخاوية الفارغة إلا من التافه السفساف ، وإما حياة خصبة مليئة غزيرة بعيدة الأغوار .. فأما الموت فلست أشتهيته لنفسي ، وإذا فلا بد لي منذ اليوم أن أعيش وأن أعيش سعيدا .

راح يفكر كيف السبيل إلى ذلك العيش السعيد المأمول ، واستهدى الناس إلى هدفه المرجو سواء السبيل ، فقال له قائل : الأمر هين ميسور ، ابحث عن أسعد الناس عيشا وأحفلهم بالحياة ، حتى إذا ما جئته ، البس قميصه ساعة أو ساعتين ، تكن مثله سعيدا محتفلا بالحياة . وانطلق صاحبنا يبحث عنه في الحضر تارة وفي البادية طورا ، يبحث عنه في القصور مرة ، وفي أكواخ الريف مرة ، حتى جيء به

يوماً إلى رجل شهد لنفسه وشهد له الناس من حوله أنه سعيد هائى ،
لم يعرف قط فى حياته كيف تضيق النفوس وتخرج الصدور ... فإذا
هو عريان الجسد لا يملك قميصاً ! .

عاد الرجل من سفره وهو يتدبر ما وجد وما رأى .. هاهو ذا
الحق قد وضح أمام عينيه أبلج ناصعاً ، لم تعد السعادة فى رأيه مشكلاً
معضلاً ، فقيم هذا الكلام الطويل العريض الذى ما انفك يديره الناس
فى أفواههم عن السعادة والحياة السعيدة ؟ .. إن اللغز لم يعد لغزاً ،
إن سر السعادة قد افترضح ، سر السعادة فى قلة الحاجات ، فقل لى كم
تطلب حياتك من حاجات ، أقل لك كم أنت سعيد ... هى عملية حسابية
أولية بسيطة : لو بلغت حاجاتك صفراً كانت لك مائة السعادة كلها ،
وتزيد حاجاتك فيهبط مقدار السعادة فى نسبة عكسية دقيقة .. لم يكن
ديوجينيس — إذا — هازلاً حين اكتفى من دنياه بـ برميل يقيم فيه ،
فلما جاءه الإسكندر العظيم يسأله : ماذا تريدنى أن أصنع لك من
معروف ؟ أجابه : لا أريد منك سوى أن تبعد عنى الآن حتى
لا تحجب ضوء الشمس ...

إذا آمنت بأن ملابس الشتاء تنفعك فى الصيف كذلك ، فأنت
أقرب إلى الحياة السعيدة ممن لا يتصور الحياة بغير ملابس للصيف
وأخرى للشتاء ، وإذا آمنت بأن غرفة واحدة تكفيك للنوم والاكل
والجلوس والقراءة ، فأنت أقرب إلى السعادة ممن لا يتصور الحياة
بغير عشر غرف أو عشرين ، وإذا آمنت أنك تستطيع بيدك أن
تؤدى لنفسك معظم حاجاتك ، فأنت أدنى إلى العيش السعيد ممن

يستحيل عليه العيش بغير خدم وأتباع ... وهكذا قل في شتى جوانب الحياة وأوضاعها .



لكن ما أيسر القول وما أشق العمل ، فأيسر اليسر أن تقول لنفسك : البس ملابس الشتاء في الصيف ، واسكن غرفة واحدة ، واصنع هذا وذاك بيدك ، وامش إلى هنا وهناك برجليك .. أيسر اليسر أن تقول لنفسك : إن كان عبء الحياة ثقيلاً على كاهلك فانفضه عن نفسك بضربة واحدة وعزمة واحدة ، ترح عن كاهلك العبء الثقيل الذي يهبط ويثقله ، أما أن تنفذ هذا الذي تنصح نفسك بفعله ، فأمر دونه أقوى ما عرف البشر من مضاء الإرادة وقوة التصميم ، وإن شئت فاقرأ للغزالي كيف كادت نفسه تتمزق إرباً من شدة ما كان يعانيه من تردد ، حين أحس الرغبة في اعتزال حياته المدنية بكل ما جاءته به من مجد وجاه ، ليلوذ بحياة بسيطة ساذجة متقشفة زاهدة .

ولا أكنتم القاريء أنى في موقف شبيه بهذا : أحس رغبة عارمة في الانطواء والانزواء والاختفاء وخلع الحياة المعقدة لالوذ بما هو أبسط وأخف من ألوان الحياة ، لكن ما حيلتى إن عزت على إرادة الغزالي وأمثاله ؟ إني أتمنى الآن أن أعيش أبسط العيش وأبعده عن التركيب والتعقيد ، ومع ذلك ترانى لا أصنع شيئاً فى سبيل التنفيذ ، فلا أزال أتألق فى ثيابى ، وأجعل منها شيئاً للصيف وشيئاً للشتاء ، وهذا الثوب للنهار وذلك للساء !! ...

حيلتى إزاء ذلك كله هي حيلة العاجز ، وقد اصطنعتها ، ألا وهي التنفيس عن طريق القراءة ، فأقرأ لرجل عاش هذا العيش البسيط الذى أتمناه ، ووصف لنا أسلوب عيشه ، فعلى أستمع على صفحات كتابه بحياة أتمناها ولا أقوى على تحقيقها ، ومن يدرى ؟ فقد يكون هذا هو أنفوس ما يقصد إليه الأدب كله من غايات ، فيعيش الأديب للناس ، بمعنى أنه يعاني حياة معينة ليقدّمها مكتوبة ، فيعيشها غيره وهو مضطجع على مخدعه مسترخى البدن مستريح البال ! .

وكان الكتاب الذى اخترته ليحقق لى ما أبغيه هو كتاب « وولدن » الذى وصف فيه الكاتب الأمريكى « هنرى ديفد ثورو » حياته فى الغابة التى فر إليها من وجه المجتمع الممقوت البغيض ، وقد كنت أهم بقراءة هذا الكتاب منذ سنين ، وكانت تصرفنى عن ذلك شواغل الحياة ، حتى سنحت هذه الفرصة البديعة لقراءته ، فمأنا فيما يشبه الحالة التى دفعت « هنرى ديفد ثورو » إلى هجر المجتمع فرارا من تكاليفه المزدولة وتقاليد الممقوتة ، لكنى لأملك الشجاعة التى كانت له فحققت له ما أراد من هروب ، فلا أقل من أن أصاحبه فى فراره وأنا مستلق على مخدعى !

ضاق « ثورو » بهذا التنافس الحاد العنيف الذى يتدافع الناس فيه بالمناكب ، سعيا وراء أدوات العيش التى ألهتهم عن العيش ذاته ، وفكر وتدبر ، فلم يجد مهربا إلا الحد من حاجاته حتى لا يضطر إلى العمل إلا بضع ساعات قليلة ، وهو فى ذلك يقول : إن أوضاع الأمور يجب أن تنقلب رأسا على عقب ، فبدل أن نسعى ستة أيام

ونستريح في السابـع ، ينبغي أن يكون سابـع أيام الأسبوع هو فترة العمل التي نكسب فيها رزق الحياة بالكـدح وعرق الجبين ، أما الستة الأيام الأخرى ، فكلها يكون عطلة الأسبوع ، نستمرىء فيها حياة الوجدان والروح ، ونستجلى فيها روائع الطبيعة في جلالها وجمالها .

لكن المدينة — بالطبع — لم تسمح له بمثل هذا الذي تمناه ، ففر إلى غابة عاش فيها مع الحيوان الذي أحبه لأنه أحب الحياة في شتى صورها ... وهل تظنه قد استراح في عزلته تلك من أعباء المجتمع ؟ لا والله ، بل ذهب إليه في مكمنه جباة الضرائب يطلبون منه ضريبة للدولة ، فأبى أن يجيبهم إلى ما طلبوه ، احتجاجا على سياسة الدولة عندئذ في إرغام العبيد الفارين على العودة إلى المزارع التي كانوا يعملون فيها لسادتهم ، فقبض عليه وسيق إلى السجن . وها هنا يروى أن « إمرسن » زاره في سجنه وسأله : « ما الذي جاء بك إلى هنا يا هنرى ؟ » فأجابه : « العجيب هو أنهم لم يجيئوا بك أنت أيضا إلى هنا يا إمرسن » ...

قرأت كتاب « وولدن » وتعلت منه درسا لن أنساه ما بقيت على ظهر الأرض حيا ، تعلت ذلك الدرس من سؤال ألقاه « ثورو » على نفسه وأجابه لنفسه :

— ما الذي يبرر للإنسان أن يعيش حياته ؟ .

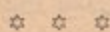
— إنه لا مبرر للإنسان أن يحيا لحظة واحدة إن ملك الدنيا بأسرها وفقد نفسه .

حمى الحياة

يروى أن آخر عبارة نطق بها سقراط قبل أن يطبق حفيه عن نور الحياة ، هي هذه : « يا أقريطون ! إني مدين بديك لأسكليبيوس ، فهلا تذكرت أن ترد عني هذا الدين ؟ » .

وذلك أن الناس كانوا إذا ما ألم بأحدهم مرض ، ثم عوفي منه ، قدم ديكا إلى اسكليبيوس ، فكأنما رأى سقراط نفسه وهو مشرف على الموت ، بمثابة من أصابته الحمى حيناً ، ثم زالت ، فوجب عليه إذا أن يقدم الديك التقليدى إلى من تقدم له الديكة إثر الشفاء من المرض ، والحمى التى أصابته فى هذه الحالة ثم زالت ، هي حمى الحياة ، والشبيه يذكر بشبيهه ، فقد أمضيت ساعات من القلق الذى لا يستقر على قرار ، أجلس إلى مكتبي ساعتين ثم أنهض إلى مقعد وثير فى ركن الغرفة أستوى فيه لأسترخى وأسترخ ، ثم أمل الراحة والاسترخاء ، فأعود إلى المكتب ساعة أو بعضها ، ثم يعاودنى القلق فأتفض نحو النافذة أطل منها دقائق ، ثم يغربنى السرير بضجعة تقصر أو تطول — فمعظم حياتى أقضيه فى غرفة واحدة لأملك أثنائها ، نعم قد يغربنى منظر السرير بضجعة تقصر أو تطول حسب هذه السرحات التى أسرحها ، أستعيد بها الماضى بكل مرارته ، وأتوجه إلى نفسى فيها

بالتأنيب والتقريع ، حتى لأكد أمرها تأنيباً وتقريعاً : لماذا لم تفعل هذا ، ولماذا لم تقل ذلك ؟ .. وأنتزع نفسى من هذه السرحات انتزاعاً لأعود من جديد إلى مكتبي دقائق ، وتقع عيني على بدلتى معلقة مدلاة كالمنشوق انتحاراً ، فأرتديها وأخرج إلى مكان قريب أحسو قهوتي إن كنت من النهار فى ساعة الضحى ، أو الشاى إن كان الأصيل ... حياة أرقه قلقة أعيشها كالمحموم يتقلب فى الفراش بين جنبيه ، هى التى ذكرتنى بما يشبه الفكرة التى طافت برأس سقراط وهو يحتضر ، مودعاً الحياة ببسمة على شفتيه ، لأنه رآها عندئذ مرضاً ورأى نفسه قد دنا من البرء والعافية .



لكنى فى ساعة من طمأنينة النفس أكتب هذه السطور ، لأقول لسقراط حين سخط على الحياة ، ولأقول لنفسى حين سخطت على الحياة لما فيها من قلق لا يعرف الرضى : لقد أخطأتما ، فالحياة محبة لهذا القلق نفسه الذى لا يعرف الرضى ، ولو حلت محلها سكينة الهدوء والقرار ، لما كانت جديرة بالعيش ، ولم يخطيء « ستيوارت مل » حين قال : « إنى لأفضل أن أكون سقراط فى قلق نفسه ، على أن أكون مطمئناً طمأنينة الغر الأبله » .

ولولا هذه الشرارة المقدوحة التى تؤرق جنوب الناس ، وتباعد بينهم وبين السكينة والهدوء ، لكان الإنسان قطعة من طين لم تنفخ فيها النفخة التى تنقلب معها إنساناً قلقاً طامعاً طامحاً ، ثم لولا طموح الانسان وأطامعه ، لما كان هنالك ما يبرر ارتفاع السماء عن الأرض ،

ولا ما يبرر أن يكون الأفق بعيد المدى ، فكلما دنوت منه خطوة
تقهقر إلى الوراء خطوة ، حتى لا ينقطع لك سير ولا يخمد لك نشاط
إنتى لا أستطيع أن أعرف الحياة المتوثبة المتوقدة بخير من قولى
إنها عصيان الطبيعة ، ولا أن أعرف الموت فى خموده وهموده
بأحسن من القول إنه الخضوع لقوانين الطبيعة ، فالكائن الحى يعصى
الطبيعة ، بمعنى أنه إذا فرضت الطبيعة على الحجر أن ينحدر من قمة
الجليل إلى أسفل مدفوعا بقانون الجذب ، فلإنسان أن يعصها ويصعد
من بطن الوادى إلى قمة الجبل ، وإذا فرضت الطبيعة على الحجر أن
يتمدد لها إذا سخنت وأن ينكمش لها إذا بردت ، وأن تتفتت أجزاؤه
هباء إذا شاءت له عواملها ، فلإنسان أن يرغبها على البرودة له إذا
سخنت ، وعلى الحرارة إذا بردت وألا يصيح إلى ماتأمر به عواملها
من تفتيت أجزائه ... إلا إذا مات !

والسكينة الهادئة هى إلى الموت أقرب ، فقل لى كم يبلغ بك استقرار
الحياة ، أقل لك كم فعلت بك أسباب الموت ، وقل لى كم أنت قلق ،
أقل لك إلى أى حد قد بلغت من سلم الحياة ، فالقناعة — التى هى
الرضى بما أنت فيه كنز لا يفنى عند من خمدت فى صدره شعلة الحياة ،
أما عند اليقظان الحى فهى والهزيمة شىء واحد ، ودرى ببصرك حيث
شئت فى جنبات الأرض ، وفى أرجاء التاريخ ، لتعلم علم اليقين أنه
ماذل أبداً من طمع ، ولا عز أبداً من قنع .

ولئن صدق هذا القول على الأفراد مرة ، فهو على الأمم
أصدق ألف مرة ، ولو شئت فاستعرض أمم الأرض جميعا ، وإن

شئت فاسترجع أم التاريخ منذ فجر التاريخ ، لتصل إلى هذه النتيجة
الواحدة ، وهى : أنه حيثما دبت الحيوية فى جسم الأمة لسبب من
الأسباب ، أخذها القلق بما هى فيه ، وراحت « تطمع » فى غيره
وتطمح إلى سواه ، والعكس صحيح أيضاً ، أى أنه إذا قلقت أمة
فاعلم أنها بهذا القلق فى طريقها إلى الحياة بمعناها الكريم ، الذى لا يكتفى
بتردد الأنفاس فى الصدور .

إن المادة الموات من دأبها دائماً ان تتلس فى سيرها سبيلا
لا تعترضه من عوامل المقاومة إلا أقلها ، فاسكب على الأرض ماء
وانظر كيف يسيل ، إنه لا يصعد من أسفل إلى أعلى ، ولا يقتحم
صخرة أمامه إذا استطاع أن يدور حولها ، لكن الحيوية السليمة
تبحث عن الصعب لتذله ، ولا تنفك أمام العقبات حتى يساس قيادها ،
وهؤلاء هم أبطال الانسانية جميعاً : أنبياءها وعلمائها وقوادها ورجال
الفن فيها ، كان بوسع كل واحد منهم أن يقنع ويرضى ويغضى العين
لينام ويستريح ، لكن أحداً منهم لم يجد فى القناعة عزة ، وراح يطرد
عن نفسه وعن أمته هذا الذل القانع ، طامعاً له ولها فيما هو أعز
وأكرم .

وإذا كان ذلك كذلك ، فكم يغيظك أن تسمع هنا وهناك هذه
المقارنة السخيفة السمجة بين ما يسمونه شرقاً وما يسمونه غرباً ،
فيقال : قد عرف الشرق كيف يخلد إلى السكينة فهو نعيم ، وأما الغرب
فهو الآتون الذى يغلى بالحروب وبالمعامل التى شغلت نفسها بإنتاج
القنابل الذرية وغير القنابل الذرية من أدوات الفتك والتقتيل ،

لكنى أرى هناك قلق الحياة الطامعة ، وأرى هنا سكينه الموت ،
وإذا أخذت تدب فينا الحياة ، فبمقدار مانحن آخذون في سبيلنا إلى
مشاركة "غرب في مثل قلقه واضطرابه .. فوالله لو خيرت بين ان
اكون فرداً في أمة تنتج القنابل الذرية أو اكون عضواً في جماعة
تلقى 'القنابل الذرية فوق رؤوسها لما ترددت في الخيار لحظة وبالطبع
أترك للقارىء كامل الحرية يختار لنفسه ما يشاء .

فلئن كان هذا القلق الذى يدوخ منه الرأس ، هو حمى الحياة التى
سخط عليها سقراط ، وسخطت عليه أحيانا ، ويسخط عليها كثيرون ،
فقد أخطأنا جميعا ، لأن مثل هذه الحمى هى التى لا نرجو لأنفسنا
منها شفاء .

الأدمية الصحيحة

أهديها تحية إلى « قارئه » — فلرسائلها
في نفسى أجمل الأثر وأعمقه

كانت ليلة من شتاء انجليزى برده زمهرير ، تغوص الأقدام
غوصاً في أكوام الثلج وكثبانها ، حين التمسست طريقى إلى حفل راقص
أقامته الجامعة في لندن ، التمسست طريقى إلى هناك بعد تردد طويل ،
إذ كنت في غرفتى جالساً أمام النار مستدفئاً ، فما كان أغنانى عن
التعرض لذلك البرد الذى يقرض الأطراف قرصاً ، ويأكل الأنوف
والآذان أكلاً .

ترددت طويلاً ، شأنى دائماً كلما دعانى داع للرح والفرح ، فعندئذ
تتألب في ضميرى أسباب الموانع والتعلات ، ويظل عقلى يفند لى تلك
الأسباب واحداً في إثر واحد ، ويدفعنى دفعاً للأخذ من لذائذ الحياة
بنصيب . . . فإن وجدت الناس تدفعهم طبائعهم إلى اجتراع اللذائذ
وعبها ، لا يمنعونهم عن ذلك أحياناً إلا صوت العقل فيهم ، فإنى على
عكس ذلك : أتخوف بطبعى من الإقدام على متع الحياة ، وأتردد
طويلاً كلما سنحت لى ظروفها ، ثم لا يدفعنى إليها إلا صوت من العقل
ومنطقه .

النسب طريقي إلى هناك ، ولم أجد أخطو داخل البهو خطوه
أو خطوتين « حتى شمل الدفء أطرافي ، وعادت إلى حرارة الأحياء
بعد أن كدت أنقلب من برد الطريق عوداً جف وذوى .. فالمكان
دافئ جميل ، وحسي هذا الشباب النضير من فتيان وفتيات ، يشع من
حواله حرارة تستنهض من به ميل إلى قعود ، لكنني جلست هنيهة على
هامش المرقص ، لا أضرب بسهم في زحمته ، جلست أنظر مفتوناً
بهذه الموجات المتناغمة المتهادية من الراقصين والراقصات .. إن أجمل
شيء في الدنيا عادة في « فستان » السهر ! فماذا تقول في مجموعة كبيرة
منهن دفعة واحدة تراهن راقصات مع زملائهن من الشباب الفتي
الوسيم ؟ ..

وإني لا أنظر تجاه الباب ، وإذا الداخلة مرغريت — فتاة عرفتها
من الجامعة — كانت تطمئن إلى حديثي ، وأسعد بحديثها ، فيالفرحة
قلبي حينئذ ! لقد كنت أتوقع كل إنسان إلا هذه الصديقة ، لأنها
كانت تسكن ضاحية بعيدة مع أبويها ، ولم تكن بها عادة التخلي إلى
هذه الأمسيات الراقصة التي يقيمها الطلاب أنا بعد آن .. لكنها جاءت
وفرحت لمجيئها ، وما هي إلا أن أخذت تنفض إلى هم يومها :

— جئت إلى الرقص على غير نية سابقة ، فأعذر عن ثيابي ، كان
ينبغي أن أكون بثوب السهر .

— لا داعي لاعتذار منك عن ثيابك ، فكل شيء رائع وجميل ..

— كأنني بك لم تذهبي إلى الدار ؟ .

— لا ، بل ظللت هاهنا في المدينة أبحث لي عن غرفة أسكنها .

— ماذا تقولين ١٢ .

— نعم ، فقد بلغت روحى الحلقوم من أبى ، إن مصيبتى الكبرى
هى هذا الفارق البعيد بينى وبينه فى العمر ، فلست فى هذا كسائر الناس
مع آبائهم ، إنه تزوج من أمى وهو قريب من الخمسين ، وكان يكبرها
بخمسة وعشرين عاماً ، فلا عاشا سعيدين ، ولا عرف كيف يعيش
سعيداً مع أبنائه وبناته ، إنه الآن يدنو من السبعين ، وأنا فى الثانية
والعشرين ، فالتفاهم مستحيل بين عمرين يفصلهما خمسون عاماً ، فلا كبر
ما شئت لى الأيام ، ولا نضج ما وسعنى النضج ، لكنى مازلت فى
عينه طفلة .

— هونى على نفسك الأمر يا مرغريت ، فأحسب هذا شأن الآباء
فى كل زمان ومكان ، إن أعجب ما فى الآباء أنهم لا يقررون لأنفسهم
هل يريدون لأبنائهم أن يكونوا كباراً أو صغاراً ، فإن تصرف
صغيرهم كما يتصرف الصغير ، قالوا له : إنك لم تعد صغيراً ، وإن سلك
لهم مسلك الكبار ، قالوا له : تذكر أنك لاتزال صغيراً . . . لم تكن
مساقة العمر كبيرة بينى وبين أبى ، ومع ذلك فكنت إذا تصرفت
تصرف الأطفال وأنا طفل فعلاً ، نهزنى ، لأنى فى رأيه ينبغى أن
أصنع صنيع الرجال ، وإذا تصرفت تصرف الرجال وأنا رجل فعلاً
غضب منى قائلاً : لاتنس أنك فى عيني طفل وستظل طفلاً ! الحق
أنى كم تمنيت لأبى أن يستقر فى ذلك إلى قرار يطمئن إليه .

— ليت أبى مثل أهلك ، يعترف لى ولو مرة واحدة بأنى رشيدة
ناضجة ، وينبغى أن أسلك سلوك الراشدين الناضجات ، لكنى عنده

طفلة دائماً . . لا ، إن هذه حال لن تدوم بعد اليوم ، لقد كان يصبحني
بنصيحة ، ويمسني بنصيحة . فلما أحسست إزاء نصحه الذي لا ينقطع
أنى لا أكاد أملك من أمر نفسي شيئاً ، أبلغت أمي أن تنقل إليهِ نذيري
بأنى تاركة له الدار إن عاد .. وكف يوماً ثم عاد ! فكان لي أن أختار
لنفسى طريق حياتي ، ولا طريق عندى إلا ما يصون لي شخصيتي
وفرديتي بحيث لا تنطمس معالمها في شخصية أخرى ، ونتيجة اختياري
هى أنى سأستقل منذ غد في غرفة وجدتها اليوم .

فهمت لنفسى وأنا أنظر لها نظرة الإعجاب ، قائلاً : تلك يا بنيتي
هى الآدمية الصحيحة !

* * *

إن ذلك منك يا فتاتي هو الآدمية الصحيحة ! والآدمية الصحيحة
هى أن يتصرف الآدمى كما تصرف آدم نفسه ، ومن شابه أباه فما
ظلم ، لقد جاء خروج آدم من الجنة رمزاً لما يتفرد به الإنسان دون
سائر الكائنات جميعاً ، وهو أن تكون له إرادة حرة . يختار بها
لنفسه هذا الطريق أو ذاك ، وكان خروجه من الجنة أول عمل إنسانى
جر كتب السابقة لكل من أراد أن يكون حراً من بنيه ، بل كان
خروجه من الجنة أول عمل فيه تفكير ، لأن التفكير كذلك هو فى
اختيارك لطريق دون أخرى ، وهل تفكر الآلة كيف تسير ؟ هل
تفكر النحلة كيف تجمع الرحيق ؟ أمام الآلة وأمام النحلة طريق
واحد لا اختيار فيه ، وإذا فلا فكر ، ولا إرادة ثم لا كرامة ،
الإنسان إنسان لأنه يفكر كيف يعيش هذه الحياة التى لا تقع له أبد

كان خروج آدم من الجنة رمزاً لتقرير الذات الفردية ، كان أول خروج للانسان على الطبيعة ، وبالتالي أول خروج على القانون الذى يسد المسالك أمام الإرادة سداً ، كان خروجه من الجنة أول خروج للانسان عن محيطه ، وانفراده ذاتاً حرة تفكر لنفسها وتعمل وفق تفكيرها .

بل إن تبرعم الأفراد أفراداً هو معنى التطور فى الطبيعة نفسها ، فقد كان العالم كله سديماً واحداً ، فلها انفصالات عن السديم أجزاء ، وقام كل جزء مستقلاً بذاته ، قلنا إن العالم بهذا قد تطور .. التطور فى كل شىء هو السير من الوحدة التى تنطمس فيها الأجزاء ، إلى التفكك الذى يبرز تلك الأجزاء أفراداً ، فكان الناس فى بدائيتهم يعيشون قبائل ، كل قبيلة وحدة لا تعرف لأفرادها وجوداً ولا وزناً ، فالقبيلة كلها جسم واحد ، ولها شيخ رئيس يسيرها كيف شاء ، حتى إن اعتدى على أحد أفراد القبيلة معتد من الخارج ، عدت القبيلة كلها أن الضر قد مسها جميعاً ، لكن المجتمع اليوم هو أقرب إلى أفراد تعاقدوا على العيش معاً ، لكل فرد منهم شخصيته ، ولكل منهم صوته فى انتخاب الرئيس .

تقرير ذوات الأفراد هو الهدف الذى تهدف إليه الحياة فى خطوات سيرها ، وليس مصادفة عمياء أن تكون العبادة عند الهمج البدائيين طقوساً جماعية ، يؤدىها أعضاء القبيلة معاً ، لأن الفرد لم يكن له وجود مستقل عن سائر الأفراد ، ثم تطور الانسان وتقدم ونزلت

شرائع السماء تقضى بان تكون العبادة واجبا يؤديه الفرد بغض النظر عما يفعله فى ذلك سائر الافراد ، لان الفرد أصبح مسئولاً عن نفسه أمام الله يوم يكون السؤال ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

إن ما فعلته يا مرغريت هو الآدمية الصحيحة ، الآدمية التى تفعل ما فعل آدم ، حين قسم الروابط التى كانت تربطه بمحيطه ، مادام ذلك المحيط من شأنه أن يطمس وجوده ، ترى هل ذلك ما أرادت الطبيعة حين جعلت ولادة الطفل مصحوبة بقطع الحبل الشرى الذى يصل الجنين بأمه ، إيدانا من الطبيعة بأن هذا الوليد لم يعد جزءاً من غيره ، بل أصبح فرداً يعد واحداً فى عداد الناس ؟ .

إن من طمس فرداً من البشر ، بحيث حرمه معالمة التى تميزه من سواه ، قتل نفساً حرم الله قتلها ، وقد يكون القتل بغير دماء تسيل ! وليس أشد إهداراً لآدمية الإنسان من ذوبان وجوده فى أسرته أو فى أمته ، بحيث لا يعود له وجود شخصى بارز ظاهر ، وهل العبد الرقيق إلا إنسان أهدرت آدميته حين جملوا وجوده جزءاً من وجود مولاه ؟ .

وددت يا فتاتى أن أذكر لك - لولا وطنية منى - كيف يتبرع الناس عندنا تبرعاً بمحو أنفسهم ، فيقول الواحد منهم (أستغفر الله فما هو فى هذه الحالة بواحد) يقول لكبيره الذى يملكه : أنا محسوب عليك ، يعنى أنه بذاته لاشئ ، ويريد أن يحسب تابعاً من الأتباع ، وهو بذلك مغتبط سعيد ! .

وددت يا فتاتي أن أذكر لك - لولا كبرياتي - أننا أمة تحسب
بالحزمة لا بالعود ، فأبناء العزبة كلهم - عند الوجيه صاحب العزبة
- خلية واحدة تتبعه ، والأصل عندنا في الأسرة - يامرغريت -
هو إما أن يكون الزوج كل شيء والزوجة لا شيء ، وأن يكون الوالد
صاحب الكلمة التي لا ترد ، والأبناء في عينه هباء ، وإما أن يفلت
الزمام ، فتصبح الزوجة كل شيء والزوج لا شيء ، ويصبح الأبناء
الصغار مردة طغاة والوالدون أتباعا .

الأصل عندنا - يامرغريت - ألا يعيش فرد إلا إذا أكل
في جوفه أفرادا ، أما أن يعيش الأفراد جميعا في توازن واتساق كما
تقوم أنغام الموسيقى ممزجة متجاورة ، فهو عندنا ضرب من المحال .
لكني مستبشر ، فمن اليوم في رجة اجتماعية عنيفة قد ايقظت
بعضا ، وما تزال توقظ بعضا ، ليعلموا - كما علمت - كيف يعيش
الفرد آدميا كاملا .

عندما أطلت من النافذة

هذه المقالة تجربة أدبية قمت بها . وأريد عرضها على القراء ليروا رأيهم . . فمن أهم الاتجاهات الأدبية السائدة اليوم ، اتجاه نفسى يريد للأديب أن يسجل مجرى خواطره كما تقع فى شعوره ، لا يتخير منها شيئا ليدع شيئا آخر ، إذ لا نفرق هذه المدرسة الأدبية بين وقائع الحياة الشعورية ، بحيث تجعل منها ما هو هام فيؤخذ ويسجل ، وما ليس بهام فيترك ويهمل ، ولا مانع عند أنصار هذا المذهب الأدبى من أن تأتى الخواطر مفككة و « تافهة » ، مادامت قد وردت على هذا النحو فى رأس الكاتب ، . . ولم يتخير الأديب ؟ إن الإشارة العابرة والفكرة الشاردة قد يكون لهما مدلول لا يقل فى خطره عما اصططح الناس على تسميته بالفكرة المجيدة الجليلة .

فى ذلك تقول الكاتبة فرجينيا وولف : « علينا أن نسجل الخواطر كما تقع فى الذهن ، وبالترتيب الذى تقع به . . مهما تكن من التفكك فى ظاهرها . . . إن الحياة لا تتمثل فى الذى يسمونه فكرة عظيمة ، بأكثر مما تتمثل فيما يزعمونه تافها حقيرا . »

وفى مثل ذلك أيضا يقول الشاعر الانجليزى ت . س . إليست :

« لتكن (كتابة الأديب) كالسحابة تزجها الرياح الشمالية

الشرقية مناسبة فى غير شكل . . . »

حياة الإنسان مجموعة من حوادث عابرة

لقد ملئت أيامنا بالتوافه الضئيلة . . .

يشغلنا هذا ، وذلك ، ثم ذاك وما يتلوه .

يشغلنا ما قاله فلان هنا ، وما قاله علان هناك ، وما دار في ظن

العم المكتهل

نسأل : أمطرت السماء أو لم تمطر ؟ ومتى أمطرت ؟ هل عجننت

الفطيرة ببضتين أو ثلاث ؟

....

فإن كان قوام حياة الإنسان من أولها إلى آخرها ، هي هذه
الخواطر ، فلماذا لا تكون كتابة الأديب تسجيلا لسلسلة قصيرة أو
طويلة من مجرى خواطره ، لكي يصور بذلك نفسه أدق تصوير
وأصدق ؟ .

ذلك ما نقوله هذه المدرسة النفسية الحديثة في الأدب ، وقد عن
لى أن أنسج على هذا المنوال مرة على سبيل التجربة فأسجل خواطري
كما انسابت في مجرى الشعور فعلا ، أثناء فترة قصيرة قضيتها في
شرفة غرفتي .

* * *

الهوة سحيقة والأرض بعيدة ، بيني وبين الأرض سبعة طوابق
١ - ٢ - ٣ - ٠٠٠ - ٦ - ٧ ، إن هذه الشرفات المتراسة في
إطلالها على فناء المدرسة والكنيسة تشبه مقصورات الأوبرا ، ما كان
أروع المشية التي مشيتها معك في بهو الأوبرا بباريس ، وكانت الأضواء

لآلامه وزحمة الناس يفوح منها العطر ، ضاعت منى الفرصة التي سنحت
 لي حينئذ ، إنها الآن سعيدة بمن هو خير منى ألف مرة ، هذا الغسيل
 القذر المعلق في الشرفة المجاورة أقطع دليل على أن مدام «ح» عديمة
 الذوق ، ترى هل عاد الرجل الأحمر صاحب الصدر المفتوح من
 رحلته ؟ ان نافذته لاتزال مغلقة ، يخيل إلى أن صديقته الجميلة في لهفة
 ترقبه ، ما أكثر ما أحسست بالخبرة الخفيفة من هذا الرجل الأحمر
 الذي يسكن الى جوارى ، لأنه قوى مليء بالشباب ، ومدام «ح» معجبة
 به أشد إعجاب ، ١ - ٢ - ٣ - ٠٠٠ - ٦ - ٧ - ، سبعة
 طوابق بيني وبين الأرض ، مسافة هي الحد الفاصل بين الحياة والموت ،
 هي بضع ثوان ، بضع ثوان قليلة كفيفة لك أن ينسدل الستار على كل
 شيء ، فلا عظيم ولا حثير بعدئذ ، ولا نجاح ، ولا فشل ، كم حز في
 نفسي أن يكلمني «ع» وهو يركب السيارة ، كأنما هو يخاطب حنينة من
 هواء ، ساعة الكنيسة تدق ، لماذا لا يضبطون هذه الساعة ، فهي
 تضلل بما تقدم أو تؤخر من دقائق ، دقيقة واحدة ، لا ، بل بضع
 ثوان هي كل ما يلزمك ليسكن في أذنك كل صائت ويسود كل شيء
 إن هؤلاء الأطفال الذين ياجعون ويصيحون في فناء المدرسة لا يابهون
 لدقات الساعة ، إنهم لا يابهون للزمن ، لا يزال في الوقت متسع
 للنزول وشرب القهوة في مكاني المؤلف . فربما أرى اليوم أيضاً
 ذلك الرجل وتلك المرأة اللذين رأيتهما هناك ، إنها فاتنة ، ظلت طول
 الوقت شاخصة يبصرها إليه مفتونة به ؟ ماذا كان يعجبها في ذلك
 الحلف البدين ؟ بوت ، بوت ، بوق هذه السيارة الفخمة المسرعة

دلائل قوى على أن راجعها شاب يلهو بشبابه . قالت لى مرة إن عيبك
 هو هذا الهدوء . هب ! تبدل نور المرور أحمر ، ووقفت السيارة
 المسرعة ، وتأخر صاحبها الفرحان عن غايته بضع ثوان ، بضع ثوان
 تكفيك أن تلقى بهذا الجسد الثقيل إلى الأرض البعيدة . طاخ ،
 انتهى كل شيء ، ما أجراً الذين يزعمون أنفسهم عن هذا الطريق !
 إنى أفضل الليل ، لن أترك جسدى فى العراء يراه هؤلاء الأطفال ،
 مؤذن يصيح ، من أين جاء هذا الأذان الذى أسمعته ، وليس على
 مقربة منا مئذنة ولا مسجد ؟ أنا جائع ، بقى على موعد الغداء ساعة
 ونصف ساعة ، تلك الفتاة التى تسير على الطوار هناك بصدارها
 الأصفر وثوبها الرمادى وحذاءها الأبيض . إنها مليئة بالشباب كما يبدو
 من سرعة خطاها ، يا لحفة الشباب ورقته ، إنها ستسبق الرجل الشيخ
 الملفف بعباءته ، تصور هذا الرجل وهذه الفتاة زوجين ! لماذا لم أحسم
 الأمر حين ازورت بوجهها أول مرة ؟ أقسمت لى أنها لا تضم السوء
 وصدقها ، كنت أخشى دائماً أن أسىء إليها ، فكيّلت لى الإساءة
 لطمات بعد لطمات ، اشرب يانذل ! اشرب ! لو كان هؤلاء الناس
 الذين أساكنهم يكفّون عن تقديم الفاصوليا والقرع مسلوقين على
 النحو الذى يفعلون ! لا أحب أن أراهما فى طبقى ، لكل شيء فى
 هذه الدنيا ثمن ، جئت إلى هنا وأردت البعد عن وجع الدماغ ، فلا
 بد لك أن تأكل هذا الخضار المسلوق الذى لا يحسنون طيبه ، مسكين
 هذا الشاب اللبنانى الذى شكالى اليوم حبه المرفوض ؛ مغفل ! فى الدنيا
 كثيرات سواها ، ليتنى ماتت دخلت فى أمر « أ » ، ربما كنت سدياً فى شقائه ،

نصحته بما يرضى العقل ، ناسيا أن العقل في هذه الأمور لا شيء ، صياح
الأطفال في فناء المدرسة يملاً الفضاء ، أين لى شيء من هذا النشاط ،
كانت غاية في الرشاقة حينما رأيتها ، لماذا خفق قلبي لها وما كان ينبغي
له أن يفعل ؟ يا بنى لا تتحدث حديث القلب ، فهذه لغة الشباب ولم تعد
شبابا ، ما أشد غرور « ش » ! لو كنت أجد الشجاعة فأسيء إلى من
يسيئون بمثل ما أساءوا ! مدام « ح » تطل من نافذتها ، جميلة لكنها ثقيلة
الدم ، غريب زوجها هذا ، انه مفتون بها ، لكنه لا يغار أبدا من
الرجل الأحمر صاحب الصدر المفتوح ، ترى ماذا أنا فاعل حين تصل
« ر » قادمة من بلادها ، إنى أريدها ولا أريدها ، إنها معتمدة على في
قدومها هذا ، لكنى خائف أشد الخوف من قدومها ، هل أبحث لها
عن غرفة في مكان بعيد ! يعجبني ذكاؤها وثقافتها وسعة أفقها ، لكن
لا يعجبني كثير من طباعها ، ترى هل تغير من طباعها في مصر ؟ ليتهـا
تفعل ، إنى خائف من قدومها ، إنها تريد شيئا لا أريده أبداً ، قلت
لها في صراحة إنى معتمد على عقلى ، فقالت في لغة أصرح : وأنا
معتمدة على عزيزتى ١ - ٢ - ٣ - ٠٠٠ - ٦ - ٧ سبعة طوابق
٨ - ٩ ، التلفون يامسيو « ح » ، كانت نعمة كلامها في التلفون أخاذة
لكنها إبليس في صورة البشر ، إنها الشر كله في صورة إنسان ، إنى
لأعجب كيف يكون هذا الشر كله في هذه الرقة كلها ! الحمد لله ، آه لو
رددت الاساءة بإساءة مثلها ، إذأ لما عانيت شيئا من لدغ الضمير
الذى يؤرقنى ويعذبنى ، لن أنسى أن أقول لمتولى حين أراه ساعة
الغداء ألا يضع لى فى طبقى خضارا ، سأكتفى اليوم بالبصل والطماطم

واللحم ، ياليت لى شخصية مستر «ك» ! رأسه فارغ مع أنه فى الستين من عمره ، لم أره عابسا مرة واحدة ، قال لى مرة : أنا معجب بذلك . قلت له : بل أنا المعجب بفرحك بالحياة يامستر «ك» ، كان منطلق الحوادث يحتم أن يتزوج من مس «ج» ، لكن يظهر أن ذلك لن يحدث ، خسارة مس «ج» هذه ، قاربت الخامسة والأربعين بغير زواج ، وفيها كل الصفات التى تجعل من المرأة زوجة صالحة ، ١ - ٢ - ٣ - ٠٠٠ - ٦ - ٧ ، سبعة طوابق بينك وبين الأرض ، لكن الأطفال مازالوا فى الفناء يصيحون ، كان العريس شابا وكانت العروس شابة ، هو أكثر من العشرين قليلا ، وهى أقل من العشرين قليلا ، وهكذا يكون استقبال الحياة ، وإلا فلا ، أنا من ضيع فى الأوهام عمره ، ما الذى أعجب تلك المرأة فى رجلها الذى لبثت شاخصة إليه يبصرها طيلة اليوم بعين المفتونة المعجبة ؟ أوه ، من يدريك ؟ لعله معها فى جحيم ، الظواهر تخدع ، وقد انخدعت بها أنت حتى شرقت وغرقت ، حسبونى أبلة ساذجا ، هم مخطئون ، لكن أمسكت عن الردود الصحيحة فى المواقف المختلفة ، فما ذاك الإحياء ، لم يكن بلاهة ولا سذاجة ، إن الماضى لا يعود ، وجرحك لن يندمل إلى الأبد ...

وضع العقل في غير موضعه

اكتبي إلى ، فما أنا إلا مخلوق ضعيف ، يفرح بالرسائل تأتيه ،
فرحة الأطفال بالحلوى .

اكتبي إلى ألف مرة ، وارفعي الضواغط عن سن القلم ، خففي
بعض الشيء من الضوابط واللجم والشكائم التي تكبحين بها القلم إذ
تكتبين ، لعله ينساب انسياباً ، فيمتزج بانسيابه قلب بقلب وروح بروح .
اكتبي إلى ، فإني أقرأ الرسالة وأطويها ، ثم أقرأها ثانية وأطويها ،
ثم احفظها في مكتبي ، لأعود إليها بعد أيام ، أو بعد ساعات ...

وقد عدت إلى رسالتك لأقرأها مرة أخرى وأطويها ، حين
أحسست في القلب خفقة غامضة تناديني ؛ لكنني لم أكد أمسها
بأصابعي ، حتى وسوس لي العقل بالتأنيب ، الذي ما انفك يوسوس
لي به كلما نزت مني نزوات قلبي : يا بني لا تتحدث حديث القلوب ،
فهذه لغة الشباب ، ولم تعد شاباً ... إن من سلخ من دهره ما سلخت
من دهرك ، خليك به أن ينظر إلى الأشياء نظرة العقل لا نظرة الهوى .
وخفقان القلب — عند العقل — اضطراب في دورة الدم ،
وهذا الخطاب — عند العقل — ورقة عليها نثار من مداد ! .

هكذا همس لي العقل عندما عدت إلى رسالتك أقرأها ،
فارتعشت أصابعي ، وبردت دمائي ، وتندى جبیني بقطرات باردة ،

لأنى رأيتنى عندئذ تافها سخيفا ، قد أفلت زمام عقلى من يدى ،
وأسلمت نفسى لما يشبه 'ترهات الشباب' ، فأعدت الرسالة مكانها ،
ليرضى العقل عنى ، وعرفت بعدئذ كيف أسكت القلب وأصرفه عن
سخافات الصغار .

لماذا أنصت للعقل فى نزوات الفؤاد ؟ .

لا ، عودى بربك فاكتبى إلى ، فإن كان وضع الهوى فى موضع
العقل عيباً ، فكذلك وضع العقل فى موضع الهوى .

✱ ✱ ✱

لكن أين يكون موضع العقل ، وأين يكون موضع الهوى ؟
هذا هو السؤال الذى تنزاح بجوابه مشكلات لا أول لها ولا آخر ،
فلو تحدد لكل منهما نطاقه ، انحسرت أسباب الغضب عند الناس حين
يقوم بينهم خلاف .

فأولاً : لن يكون بين الناس اختلاف فى مسائل الهوى ، لأن
الآهواء شخصية ذاتية بحكم تعريفها ، وما هو ذاتى بطبيعته لا يكون
موضعا لجدال ، فإذا شعرت بالبرد ولم أشعر به ، وإذا أحسست ألماً
ولم أحسه ، وإذا استحسنت طعاماً ولم أستحسنه ، لم يكن هنالك
ما يبرر أن نعترك أو نصطرع ، فإلك خاص بك ، وحالى خاص بى .
وثانياً : قد ينشأ بين الناس اختلاف فى مسائل العقل ، لكنه
اختلاف يستحيل أن يؤدى إلى غضب أو حقد أو قتال ، فإذا رأيت
مثلاً أن الضوء يسير فى موجات ، ورأيت أنه جسيمات تنفث نفثات
متتابعة بينها فواصل ، وإذا رأيت أن الخطين المتوازيين لا يلتقيان

مهما امتدا ، ورأيتُ أنهما يتلاقيان في اللانهاية ، وإذا رأيتُ
أن الصحراء يمكن إخصابها ورأيتُ استحالة ذلك ، لم يمكن
هنالك ما يبرر أن نعترك أو نصطرع ، إلا اعتراض الحجة واصطراعها ،
وما سمعنا قط أن عالِمين من علماء الرياضة أو العلوم الطبيعية قد انتهى
بهما اختلاف الرأي إلى مبارزة بالسيف ، ليكون الحق للغالب .

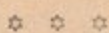
إنما ينشأ الغضب بين فريقين ، وينشأ الحقْد ، وينشأ العراك
والقتال ، حين يختلط نطاق العقل بنطاق الأهواء الشخصية ، فنخضع
مسائل الهوى لأحكام العقل ، ونظل في جدال يستحيل — بطبيعة
الحال — أن ينتهي ، لأن الأهواء لا تنتقل من شخص إلى شخص
بالحجة ، إنما تنتقل بالإغراء ، فإن لم يُجسد إغراء ، فلا سبيل إلى نقلها
بالإقناع ، ثم يستحيل أن يخلو اختلاف الناس في مسائل الأهواء من
الغضب وثورة النفس ، لأن أهواءك متصلة أوثق صلة بذاتك ، فمن
أنكرها عليك ، فقد أنكر عليك وجودك كله وكيانك كله .

أعود فأقول إنه لو تحدّد لنا على وجه الدقة أين يكون موضع
العقل ، وأين يكون موضع الأهواء ، لا نحسمت كل أسباب الغضب
والخلاف في مسائل العقل ، ولأنه لا وجه للمناقشة حين يكون الخلاف
في مسائل الأهواء الذاتية .

بل إننا إذا حددنا على وجه الدقة ، أين يكون موضع العقل ،
وأين يكون موضع الهوى ، لما كان سبيل لاختلاف المرء مع نفسه
كهذا الخلاف الذي دب بين عقلي وقلبي حين هممت بقراءة الخطاب
بدافع من القلب ، وأبى عليّ العقل ذلك لما فيه من سخافة ظاهرة . . .

فإذا كنت مثلا بصدد قياس البعد بين الشمس والأرض ، فلا يجوز لهوأي الشخصى أن يتدخل فى أمرى ، بحيث يقول لى : اجعله كذا ميلا واخلص من الإشكال ، وكذلك إذا خفق قلبى لهذا الخطاب وأردت تلاوته مرة بعد مرة ، فلا يجوز لعقلى أن يتدخل فى الأمر قائلا : إنه لا ينبغى لك أن تحس هذا الإحساس إزاء ورقة انتشرت عليها قطرات من مداد .

لكن الناس يخلطون بين نطاق العقل ونطاق الأهواء ، بل إن الفرد الواحد ليخلط بينهما ، فيعترك الناس فريق مع فريق ، ويعترك الفرد عقله مع قلبه .



ولو جاز لنا أن نقول إن ميدان العقل هو ميدان العلوم على اختلاف أنواعها ، فهلا يجوز لنا أن نقول كذلك إن ميدان الأذواق الشخصية هو الفنون على اختلاف صنوفها ؟ أظن ذلك .

فموقف العالم إزاء جبال الهملايا ، هو أن يصف صخوره ويقيس ارتفاعه وما إلى ذلك : حقائق لو خالفته فى واحدة منها ، لم يشعر فى نفسه بدافع لمبارزتك بالسيف ، واكتفى بمطالبتك أن تسافر إلى الهملايا كما سافر ، وتصفه أو تقيس ارتفاعه كما وصف أو قاس .

أما موقف الشاعر أو الفنان بصفة عامة إزاء الهملايا ، فهو أن يحس إحساسا خاصا ، فيرهب جبروت الطبيعة مثلا أو يحب الإقامة فى غابات السفوح هناك ، وما إلى ذلك : إحساسات لو خالفته فى واحد منها ، لم يكن ثمة سبيل إلى اتفاق بينكما ، فإذا أحس هو جبروت

الطبيعة بحيث عبدها ، وإذا جئت أنت فأحسست إزاء الطبيعة نفسها بالاستهزاء والاستخفاف ، فقد يردى في شعوره إيذاء يدفعه إلى حمل السلاح ، فإما خشعت معه لما خشع له ، وإما فناؤك أو فناؤه . وليس كل من يحس إحساسا خاصا إزاء شيء يخافه أو يحبه بقادر على إخراج هذا الإحساس فى كلمات إن كان أدبيا ، أو فى ألوان إن كان مصورا ، أو فى حجر أو برونز إن كان نحاتا ، أو فى أصوات إن كان موسيقيا . . . على أنه لا يجوز لك فى كلتا الحالتين — فى حالة قدرة صاحب الإحساس على التعبير الفنى وحالة عدم قدرته — أن تجادل فيه أحس ، وإلا كنت بمثابة من يضع العقل فى موضع الهوى ، كل مالك من حق فى هذا الصدد هو أن تذوق مذاقه أو لاتذوقه ، وكفى الله المؤمنين شر القتال .

ومن ثم كان أكبر اختلاف بين العلم والفن ، أى بين الحالات التى يجوز لنا أن نحتكم فيها إلى العقل والتى لا يجوز فيها ذلك ، هو أن الأولى عامة يشترك فى إدراكها الناس جميعا لو أتيت لهم وسائل الإدراك ، والثانية خاصة يدركها صاحبها وحده ، ولست أريد للقارئ أن يظننى مدافعا عن الاحتكام فى النقد الفنى إلى الذوق دون العقل ، لأننى على نقيض هذا الرأى ، فأنت تنتج الفن تبعا لذوقك وهواك ، وتتمتع بفن غيرك تبعا لذوقك وهواك أيضا ، لكنك إلى هنا لست بناقذ . أما إذا بدأت تنقد ، فقد بدأت تناقش صاحب الفن فى فنه ، أعنى أنك قد أهملت الجانب الذاتى الخاص فى فنه ، لأن ذلك يستحيل بطبيعته أن يكون محلا لمناقشة بينكما ، وأخذت من فنه

إطاره أو بناءه أو هيكله ، فهذا وحده ما يصح أن يكون عاما بينك وبينه ، وبالتالي ما يصح أن يكون محلا للمناقشة والنقد .

إننى حين كتبت مقالى « عندما أطلت من النافذة » لأسوقه مثالا على سبيل التجربة للاتجاه الحديث فى الأدب — بل فى الفنون عامة — وهو أن يسجل الأديب خواطره كما تقع له فى مجرى شعوره بغير تفرقة بين ما يسميه الناس فكرة جليلة تستحق التسجيل ، وما يسمونه فكرة وضعية لا تستحق الذكر — لم ألتزم موقف المدافع عن هذا المذهب ، لكنى أردت عرضه وتطبيقه على سبيل التوضيح والتثيل وتفضل أستاذنا الجليل الدكتور أحمد أمين بك فنقد هذا المذهب — لكنه جعل بعض نقده قائما على أساس أن الخواطر المناسبة كما اتفق ، لا تتفق مع العقل ، لأنها لا تفرق بين ما هو شريف وما هو ضيع من الخواطر ، وأنها تهم علم النفس ، لأنها تصور نفسية الكاتب أكثر مما تهم الأديب .

وإنى وإن كنت لا أتصدى للدفاع عن هذا المذهب الأدبى بصفة عامة ، إلا أننى لا أرى أن هذا الجزء من نقد أستاذنا أحمد أمين بك يهدمه ، لأننا إن قلنا لا نصاره : إنكم لا تفرقون بين الشريف والضيع من الخواطر ، كان جوابهم حاضرا على أطراف ألسنتهم ، وهو أن الرفعة والضعفة من القيم الذاتية ، التى لا سبيل إلى المناقشة فيها كما نناقش المسائل العلمية ، إننا نصور لك نفوسنا كما هى على حقيقتها ، فلك أن تحب هذه النفوس من أوصافها ، أو تمقتها لأنها من نوع

لا يعجبك ولا تمل إليه ، وهل تقول للكاتب المسرحي : لا تصور
في مسرحيتك إلا الشخص العظيم ؟ .

إن غاية ما ينشده الأديب بأدبه أن يصور نفوسا : نفسه أو
نفوس غيره في ضوء خبرته ، وكلها دنا تصويره من الحكمة التي تجعل
النفس المصورة حية واضحة المعالم ، كان أدنى إلى الكمال في فنه ، ولا
عبرة بعد ذلك أبدا للقيمة الخلقية لما صور ، فلا تفاوت في القيمة الفنية
بين تصوير الكريم وتصور البخيل ، أو بين تصوير الشيطان وتصور
القديس . المهم دائما هو صدق التصوير ، وكما أنه لا وجه للاختيار
على أساس خلقى بين شخص وشخص عند التصوير الفنى ، فكذلك
لا وجه للاختيار بين خاطر وخاطر على هذا الأساس الخلقى .

وكذلك إن قلت لأنصار هذا المذهب : إن خواطركم المنسابة في
مجرى شعوركم تهم عالم النفس أكثر مما تهم الأديب ، كان جوابهم هنا
أيضا على أطراف أسنتهم ، لأنهم سيقولون : إنها تهم الأديب وعالم
النفس في وقت واحد ، لكن من وجهين مختلفين : فهى عند الأديب
صورة فذة فردة حية ، وهذا كل ما يريد ، وهى عند عالم النفس مثل
يستطيع أن يضيف إليه أمثلة أخرى من الأدب أو من الحياة
الواقعة ، ليستخرج ما يريد استخراجا من قواعد وقوانين .

لكن أستاذنا الجليل الدكتور أحمد أمين بك يؤثر أن يكون
الأديب مهتديا بعقله فيما يكتب ، فيختار الطيب ويدع الخبيث ، ويريد
أنصار هذا المذهب ألا يكون الزمام هنا في يد العقل ، لأنه ليس
من اختصاصه ، كما يقول أصحاب الدواوين الحكومية ، فهل هم

على حق في هذا التقسيم ؟ .

الحق أنى لو استطعت أن أضع حدا لاختصاص العقل فى شئونى
لما عانيت فى حياتى الخاصة كثيرا جدا بما أعانيه من صراع بينى وبين
نفسى ، وقد صدرت لك المقال بمثل يسير من هذا الصراع .

الأخلاق التي لا تزال بخير !!

هذا قارىء من المنصورة ، ذكى حصيف ، قد كتب إلى « الثقافة » كتابا ، يعلق فيه على مقالتي « عند ما أطللت من النافذة » ، التي عرضت فيها اتجاهها جديداً في الأدب وفي الفنون عامة ، فشرحت أساس المذهب شرحاً موجزاً ، وأردت أن أزداد له فهماً ، وأزيد القارىء به علماً ، فأجريت له تطبيقاً ، إذ سجلت مجرى خواطري كما وقعت في تيارها الدافق ، لأرى — وليرى معي القارىء — كيف يكون هذا المذهب في صورة عملية ، فليس أصلح اختباراً للفكرة من تطبيقها .

وقرأ قارىء المنصورة الذكى الحصيف هذا المقال ، فوقفت شعراته فوق رأسه على أطرافها جزعاً وفزعاً ، ونهض من فورهِ وحمل القلم ليرسل إلى « الثقافة » هذا « الخطاب المفتوح » يوجهه إلى ، ويستله بمدح أشكره عليه أبلغ الشكر وأوفره ، ثم يعقب على هذا الثناء المشكور ، برأيه في مقالتي التي أسلفت ذكرها ، ولو قد استطاع القلم أن يستقيم بين أصابعه ثلاثة أسطر كاملة ، بحيث يجرى في عريّة صحيحة ، لأفسحت الثقافة لرأيه مكاناً رحباً فسيحاً .

ولست أنوى بطبيعة الحال أن أناقش خطابهُ من حيث الرأى والفكرة ، فكل ما في الخطاب دليل ناهض على أن أدنى ما أهبط إليه مع كاتبه هو أن أعليه ، وأرقى ما يرقى إليه معي هو أن يتعلم .

لكن الذى استوقف نظرى فى خطابه ، بحيث حملنى على الإغراق
فى الضحك أولا ، ثم على الكتابة ثانيا ، هو أن قارئ المنصورة
الفاضل ، يرى أن مثل هذا الكلام الذى نشرته ، لو جاز أن
« يستساغ نشره فى الصحف الغربية ، فهو مما لا يصح نشره فى صحافتنا
حيث لاتزال الأخلاق بخير ، والفتاة بخير » !! — بارك الله فيك
يامولانا ، والله إن الدنيا كلها بخير ما بقيت وما قرأت وما كتبت ! .

لست أدري إن كان قارئ المنصورة الذكى الحصيف ، قد سمع
بكتاب كامل أخرجته منذ حين ، وأسميته « جنة العبيط » ... وإذا لم
يكن قد سمع به ، فإنى أتقدم إليه خجلا متواضعا ، لأنبئه بأن العبيط
الذى أردته بهذا العنوان ، بل بهذا الكتاب كله ، هو ذلك الذى يعيش
ها هنا ، ويتلفت حوله ، حيث قد اجتمع كل ما أراد الله لعباده من
نكد وبؤس فى صعيد واحد ، ويهتف لنفسه مع ذلك كله — ومن
يدرى ؟ فلعله يهتف لنفسه بسبب ذلك كله — أن الحمد لله رب العالمين ،
الذى هيا لنا فى بلادنا ما لم يهيه لأهل الغرب المناكيد مثيلا له
ولا شيئا .

إن العبيط الذى أردته — ياسيدى — بعنوان الكتاب ، بل
أردته بالكتاب كله ، هو الذى يتلفت حوله فى هذا البلد ، ثم يرسل
بصره المديد الحديد إلى ما وراء هذه البلاد ، فإذا هو يطمئن نفسا
وينعم بالا ، لأن الله قد أراد لنا من الخلق المتين المكين ما لم يرد مثله
لأهل أوروبا الذين يخبطون فى أدران الضلالة وأحوال المنكر والبغي ! .

أيسمح لي سيدي بذكر فقرة أو فقرتين مما ورد في ذلك الكتاب على لسان العبيط إذ يتحدث وهو في جنته؟ .. قال العبيط :

« أنا في جنتي الحارس للفضيلة أرهاها من كل عدوان ، لا أغضب الطرف عن مجانة المجان ، والعالم حول جنتي يغوص إلى أذنيه في خلاعة وإفك ورذيلة ومجون ، دعمهم يطيروا في الهواء ، ويغوصوا تحت الماء ، فلا غناء في علم ولا خير في حياة بغير فضيلة ، دعمهم يحلقوا فوق رؤوسنا طيرا أبابيل ، ترمينا بحجارة من سجيل ، فليس الموت في رداء الفضيلة إلا الخلود ، إني والله لأشفق على هؤلاء المساكين ، جارت بهم السبيل فلا دنيا ولا دين ، أتدري ما معنى الفضيلة عند هؤلاء المجانين ؟ معناها كل شيء إلا الفضيلة ! فالنساء عندهم يخالطن الرجال ، والنساء عندهم يراقصن الرجال ، ثم النساء عندهم يعملن مع الرجال ، وهن يقاتلن مع الرجال ! أرايت أفحش من هذا الإفك إفكا ! وأقبح من هذا المجون مجونا ؟ ! حدثني صديق أنه رأى هناك ذات يوم بعينه ، في مكان واحد من دكان واحد ، قبعة وقبعا (وأراد بالقبع قبعة الرجل تميزا للذكر من الأنثى ، إذ لا يجوز عند أرباب الفضيلة أن يجتمع الرجال والنساء على لفظ واحد !) رآهما معروضين ، لا يسترهما عن أنظار المارة ، إلا لوح من الزجاج ، يشف للهارة عما وراءه ، وأعجب العجب أن علامة واحدة من علامات الحياء والخجل ، لم تبد على رجل منهم أو امرأة... » الخ

هذه ياسيدي فقرة مما قال العبيط لنفسه ، إذ هو يتحدث إليها في جنته ، وأستأذنك في ذكر فقرة أخرى ، وأقسم لك غير حانث أنتي

لا أريد بذلك إعلاناً عن كتابي ، فقد أنفقت عليه ما أنفقت ، وأعطيته
للناشر بنصف تكليفه ليضمن لي أن يباع لعله يقرأ ، فینصت الناس إلى
قول العبيط .. قال :

« أنا في جنتي السمع الكريم ، الذي ورث الجود عن آباء وجدود ،
فمن سواي كان أبوه يذبح الجمل والناقة ليطعم كل ذي مسغبة وفاقة ؟
من سواي إلى حاتم ينتمي ، وبهذا العنصر الكريم يحتمي ؟ وهل كانت
صفات آبائي وأجدادي لتذهب مع الهواء هباء ، أم هي تجري في
العروق مع الدماء دماء ؟ هاأنذا أحنو على البائس عطفاً وإن كنت
لا أعليه ، وأذوب على المصاب أسي وإن كنت لا أواسيه ! وتبت
يدا حاسد يقول إن أصحاب الحاجة عندي يستجدون ولا عطاء ،
والمعوزين أكفهم تنقبض على هواء ، فقلب عطوف خير للفقير من
قرش إنفاقه سريع ، وفؤاد ذائب أبقى له من عون لا يلبث أن يضيع ،
إني أعوذ بالله من إنسان يفهم الإحسان بلغة القرش والمليم ، تلك
لعمري مادية طغت موجتها على العالم كله ، ولولا رحمة من ربي ،
ورشاد من قادتي ، لكنت اليوم في غمرتها من المغرقين ! لقد أقفر
العالم حول جنتي ، فلا عطف ولا عاطفة ، واستحالت فيه القلوب نيكلا
ونحاسا ، تعرفها بالرنين ، لأنها لم تعد من لحم ودم ! أهكذا يقوّم
كل شيء بالمال ، حتى إحسان المحسن وعطاء الكريم ؟ ! فالقرش
والمليم هو معنى الإحسان في الغرب الذميم ، الذي غلظت فيه الأكباد
كما قدت من صخر جماد ، كم جامعة عندهم أنشأها ثرى ؟ وكم دارا
أعدها للفقير غنى ؟ كم منهم يلبي النداء إذا مادعا الداعي بالعطاء ؟ لا ،

بل إن هذا الغرب المنكود ، ليسير إلى هاوية ليس لها من قرار ، إذ
هو يسعى إلى نحو الفقر محوا ، حتى لا يكون لفضيلة الإحسان عندهم
موضع ! فاللهم إني أحمدك أن رضيت لي الإسلام ديناً ، وجعلت
لي الإحسان ديناً .



معذرة سيدي ، فقد أطلت لك الاقتباس من كلام العبيط ، وما
كان ينبغي أن أفعل مادام العقلاء من حولنا كثيرين ، لماذا نطبل
الانصات إلى هذا الأبله المجنون ، والحق أبلغ واضح ؟ إن قبائل
الغابات كلها قد أجمعت على أن الأخلاق لاتزال بخير مادامت
الفتاة بخير !!

الطاغية الصغيرة

كتب هيجل — الفيلسوف الألماني في النصف الأول من القرن الماضي — يقول في مجرى عبارة له عن تطور الحرية : «... إن أهل الشرق لا يعرفون حتى اليوم (١٨٤٠) أن الإنسان حر لمجرد كونه إنساناً عاقلاً ، إنهم لا يعرفون إلا أن تكون الحرية لرجل واحد ، ثم لا تكون حرية هذا الرجل الواحد إلا اندفاعه وراء نزواته... »

وقد مضى على هذا الذي كتبه هيجل قرن أو يزيد ، وتبدلت أحوال الشعوب الشرقية في كثير جداً من الجوانب والأوضاع . فصدرت لها الدساتير وقامت فيها مجالس النيابة وما إليها من مظاهر الحكم الديمقراطي الذي يعترف للإنسان العاقل بحريته ، ولا يقصر الحرية على رجل واحد يندفع وراء نزواته — كما يقول هيجل — لكنني برغم ذلك كله ، ماكدت أقرأ لهيجل هذه العبارة ، وأدير فيها الفكر ، أو أديرها في الفكر بتعبير أصح ، حتى تبيت صدقها إلى اليوم (١٩٥٠) .

نحن أهل الشرق لا نعترف بالحرية إلا لرجل واحد من كل هيئة أو جماعة ، ثم لا تكون حرية هذا الرجل الواحد إلا أهواءه ونزواته ، هذا قول صادق في الأسرة المصرية الصميمة ، وفي ديوان الحكومة

المصري الصميم ، وفي كل علاقة تنشأ بين جماعة من الأفراد كائنا
ما كان شأنها ولونها .



المثل الأعلى في الأسرة المصرية الصميمة ، أن يكون الزوج
صاحب الكلمة النافذة على زوجته ، ثم أن تكون هذه الكلمة النافذة
متقلبة مع أهوائه ونزواته ...

فقد عرفت زوجين ، أراهما يمثلان وجهة النظر المصرية تمثيلاً
صادقاً دقيقاً ، فالزوج مستبد طاغية ، والزوجة لا يطوف برأسها ،
ولو على سبيل الأحلام العابرة ، أن تنكر على زوجها حقه في استبداده
وطغيانه ، كلاهما من الريف ، لكنهما أنفقاً في حياة المدن أربعين
عاماً ، وهما من الطبقة المتوسطة التي تعتقد أنها إلى أصحاب العوز
أميل منها إلى ذوى اليسار .

جاء إلى المدينة يحملان في أصلاهما تقاليد الريف كلها ، أعنى
التقاليد المصرية الصافية الخالصة من أخلاط الثقافة الأوربية ، ولم
يكن للزوجة نصيب من التعليم كائنا ما كان ، أما الزوج فيكتب ويقرأ
ويحسب ويناقش ويجادل ويفكر على نحو يدعوك إلى الاعتراف
بحدة ذكائه أكثر مما يدعوك إلى احترام دقة تفكيره وصدق خبرته .
كان للزوج حقوق على زوجته ، وكادت أن تكون هي صفراً
من كل حق إزاءه ، فهو يحاسبها وهي لا تحاسبه ، البيت بيته هو لا بيتها
والأبناء أبناءه هو ، حتى ليوشك أن يظن أنهم أبناءها بالمصادفة ،
من حقه أن يدعو من شاء من الضيوف ، ولا وزن إطلاقاً لقبولها

أو رفضها ، أما هي فيستحيل عليها استحالة قاطعة أن تدعو زائراً أو
زائرة إلا بعد استشارته وموافقته .

وحدث في ليلة ليلاء من ليالى الشتاء ، أن تأخر الزوج عن
مواعده المألوف ، فنامت الزوجة ونام الأبناء ، وكان أكبرهم في
نحو العاشرة ، حتى إذا ما انتصف الليل ، نهض هذا الغلام — وهو
الذى قص على قصة والديه بعد أن شب واكمل — نهض من نومه
فزعا لأنه سمع أمه تبكى ، وتسلك من غرفة نومه خائفا مرتعشا ،
مشوقا متطلعا ، كان يرتعش خائفا لأن أباه في الدار ، وحسبه هذا
باعثا على الرعدة والخوف ، فما بالك وأبوه هذا يقرقع بصوته غاضبا
ثائرا ، ثم ما بالك والغضب والثورة قد جاء في هذه الساعة من الليل ،
التي يسكن فيها الإنس وينشط الجن ؟! وكان مشوقاً متطلعاً لأنه يسمع
بكاء أمه نحيباً قوياً حزيناً ، ويود لو يعلم فيم بكأؤها في مثل هذه الساعة
التي يخلد فيها المحزون فينسى حزنه في غمرة من أحلام الظلام ، حتى
تعود الشمس فتستيقظ لتوقظ في الناس أحزانهم من جديد .

وقف الغلام في ردهة الدار دقيقة أو نحوها ، يتسمع ، ويبني
بما يسمعه قصة فاته نصفها الأول ، وإذا بأبيه يناديه دون أن يراه ،
فأسرع الغلام إلى سريريه ليحجب النداء من فراشه ، وأجاب الغلام
من مخدعه نداء أبيه ، وجاءه مسرعاً إلى حيث كان ، وإذا بالغلام
الصغير — وهو في العاشرة من عمره !! — يرى عجبا
ويسمع عجبا .

فقد عاد الوالد إلى الدار ومعه سمك ، وأمر الزوجة التي استيقظت

كالذاهلة الحاملة في تلك الساعة من الليل ، أمرها أن تعد له من هذا السمك عشاء ، وهمت الزوجة أن تعترض على هذا الأمر الشاق العسير ، فكان ما كان من ثورة وغضب وصياح .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد ، لما كان في الأمر ما يمتضى الحكاية والرواية ، ففي كل دار زوج يثور ويغضب ويصيح ، لكن الرجل الطاغية ، أقسم بالطلاق ليقذف بالسمك في النيل ! ومن ثم كانت دعوته للغلام الصغير أن ينهض من نومه ليحمل له السمك ويصحبه في هذه الساعة من زمهرير الليل . . . إلى النيل ! والشر بعينه أهون من بعض ، فخرج الصبي مع أبيه على هذه الحال ، أهون شراً من خراب الأسرة وانفصال الوالدين .

ويمضي الصديق في حكاية ذكرياته عن هذا الحادث العجيب فيقول دفاعاً عن أبيه ، إنه كان مفرط الذكاء ، ولولا اندفاعه لكان خيراً من ذلك حالا ، ويروى كيف أن أباه قد أحس لدعاً قوياً من ضميره على ما فرط منه ، وراح يلتمس لنفسه الخفران عند ابنه الصغير وهو يسير إلى جانبه يحمل مقطفاً صغيراً ، يحمله بيمناه مرة ويسراه مرة ، حتى لم يسع الغلام عندئذ إلا أن تدمع عيناه إشفاقاً على أبيه ! .

ووصل الوالد والولد إلى مكان من ضفة النيل ، وإن الفقى ليذكر جيداً كيف اضطرب جسمه كله عندئذ حين خيل إليه أنه يسمع حفيفاً في أعشاب الشاطئ ، وتوهم أن عفريتاً من الجن قادم إليهما من مكانه ، لكن الوالد طمان ولده ، وتناول مقطف السمك ، وقبّله

قُبلة أحس فيها الغلام كل ما ينطوى عليه الوالد الطاغية من حنان
الأبوة الذى استحال على طغيان الشرق أن يحويه من القلوب .
تناول الوالد من ولده مقطف السمك وأفرغه فى النيل عند
شاطئه : ووقف قليلا ، وعاد مع ابنه خطوتين ، ثم رجع إلى كومة
السمك يعيدها إلى وعائها ، قائلا لابنه الغلام الصغير ، إنه لم يعد
يرى مانعا من أخذ السمك إلى الدار بعد أن نفذ اليمين ، والغلام لم
يفهم بعد ماتلك اليمين التى تدعوها معاً أن يخوضا فى هذا البرد الشديد
وفى تلك الساعة التى لا يخرج فيها الناس من بيوتهم .

لما قرأت قول هيجل إن أهل الشرق لا يعرفون إلا أن تكون
الحرية لرجل واحد ، وإن حرية هذا الرجل الواحد لا تكون إلا
اندفاعه وراء نزواته ، ارتسمت فى ذهنى صور لرجال ثلاثة : منهم
هذا الوالد الذى قص على الفتى قصته .

بل إنى بعد قليل من تفكير وتدبر وتذكر ، لم ألبث أن أتبين أننا
— أهل الشرق — قد أقمنا على أنفسنا من أنفسنا ، فى كل منعطف
من طريق حياتنا ، طاغية صغيراً .

غير مطلوب ...

ليس أشد مرارة على نفس الإنسان من شعوره بأنه غير مطلوب لذاته ولشخصه الذي يختلف به عن سائر الذوات والأشخاص ، فالإنسان إنسان بمقدار ما ينفرد بخصائصه ويتميز من سواه ، ومن وسائل التفرد والتميز أن توكل إلى الإنسان مهمة يشعر أنه وحده دون سائر الناس جميعاً هو الذى يستطيع أن يؤديها ، ومن ثم كان شعور الآباء والأمهات بالزهو بما قد عهدت إليهم الطبيعة من أبناء يقومون على تربيتهن ، مهما لاقوا فى سبيل ذلك من عناء ، ومن ثم أيضاً تولد الشعور عند من لا ولد له يراه بأنه تافه القدر قليل الشأن اذا قيس إلى من له ولد ، وعبثاً يحاول الناس إقناعه بالمنطق والأرقام أنه مستريح البال موفور المال بسبب عقمه ، فالشعور بالخلاء يملؤه ويطارده ، واستخفافه بقيمة نفسه ما ينفك يتابعه ويلاحقه ، لأنه يعلم أنه غير مطلوب لذاته ، وقد يكون البنون زينة الحياة الدنيا بهذا المعنى ، فالحياة الدنيا نسيجها من التوافه ، ولا تنقلب هذه التوافه شيئاً له قيمة فى عينيك إلا إذا أحسست بمهمة تعتمد عليك أنت دون سواك ، وإذا فلا عجب أن يقول لنا رجال الإحصاء إن حوادث الانتحار أكثر فى غير الوالدين منها فى الوالدين .

وأقسى ما تنقسو به على إنسان هو أن تشعره بأنه غير مطلوب

لشيء مما يستطيعه هو ولا يستطيعه سواه ، ولعل هذا بعينه هو ما اتخذ
 الناس أساساً لتقسيم الارزاق بينهم منذ أقدم العصور ، فأجر العامل
 يزدد كلما ازدادت فيه العناصر التي تجعل العمل متعذراً على غيره ،
 ويقل كلما قلت فيه هذه العناصر بحيث يستطيع كثيرون أدائه ، فإذا
 سأل سائل : لماذا يتقاضى الكناس أجراً أقل ، مما يتقاضاه الطبيب ؟
 كان الجواب هو هذا : ليس في عمل الكناس ما يجعل صاحب العمل
 مطلوباً لذاته ، بمعنى آخر : ليس فيه ما يجعل الكناس فرداً متميزاً من
 سائر الأفراد ، أو إن شئت فقل : ليس فيه ما يجعله إنساناً بمعنى
 الكلمة الدقيق ، إذا كان معنى الكلمة الدقيق هو التفرد والتميز بخصائص
 لا تتكرر في سائر الأفراد ، وهكذا يظل أفراد الناس على تفاوت
 في أقدارهم بمقدار ما فيهم من تفرد في الخصائص ، حتى تبلغ القمة في
 النبي الذي يبشر بدين جديد ، أو العالم الذي يكشف عن قوانين
 الطبيعة ، أو الفنان الذي ينظم أو يعزف أو يصور أو ينحت على نحو
 لا يشاركه فيه غيره من الناس .

إذا فقدت الجماعة رجلاً مطلوباً لذاته فقدت شيئاً لا يعوض
 بسواه ، أما إذا فقدت رجلاً يعمل ما لا يعجز عن عمله الآخرون
 فكأنما هي لم تفقد شيئاً ، ولم يتغير منها إلا أرقام السكان والوفيات ،
 ومن لطف الله بالناس أن غرز فيهم غريزة تميل بكل إنسان إلى الوهم
 بأنه يؤدي ما يستحيل على غيره أدائه ، فكم من رجل يصادفك ويحكى
 لك عن نفسه ما يوهمك بأنه لو لا قيامه بعمله على النحو الفريد الذي
 يقوم به ، لوقفت العجلات وتعطلت الآلة عن المسير ، وهو مخلص

كل الإخلاص مع نفسه حين يتوهم ، وحين يوهم ، بأن الفراغ الذى يشغله يستحيل على سواه أن يملأه ، ولا يكاد يتصور كيف تكون الحال ، بل كيف تكون الحياة كلها بغيره ، ذلك لأنه يريد من صميم طبيعته أن يشعر بأنه مطلوب لشخصه ، وهيات أن يتنبه الواهم أن الأفراد تموت ، وأن الناس يزولون عن أماكنهم أو يزولون عنها ، ومع ذلك فالآلة مازالت تدور ! .

ولست فى الحق أدري ماذا يصنع معظم الناس بأنفسهم إذا مازال عنهم هذا الوهم ، بحيث تبينوا فى وضوح بأن الواحد منهم فرد يغنى عنه أى فرد سواه ؟ لقد سألت نفسى متعجبا : كيف يطيق الكمسارى فى التزام حياته ، وهى عملية واحدة سخيفة آلية متكررة ! فهو منذ الفجر إلى مايقرب من منتصف الليل يأخذ من الناس الملاليم ويعطيهم التذاكر ! وكيف لا يبرم السائس فى حظيرة السيارات بحياته وهو ممسك بخرقته طول النهار والليل ينظف كل سيارة داخلية وكل سيارة خارجة ، وهذا البواب الذى يجلس طول يومه فى مكان واحد لا يعمل شيئا ، ماذا يجد فى حياته مما يجعله يمسك بها ويتشبث ؟ ... ولما أخذت أستعرض أنواع الناس فى خاطرى متعجبا كيف لا يحسون بتفاه أنفسهم ، لم ألبث أن اتجهت بنفأسى نحو نفسى ! لقد شاء لى الله أن أتعلم الفلسفة وأعلمها ، ولست أخفى على القارىء قلقا شديدا يساورنى فى قيمة ما تعلمت وما أعلم ، أليست قافلة الحياة بمستطاعة أن تسير بغيرى ؟ لم أعد أو من بقيمة هذا الذى أعرفه والذى أرتزق بتعريف الناس إياه ، لو كنت نجارا أو حدادا لتصورت أن ينقص العالم عددا

من النوافذ أو المفاتيح لو لم أصنعها أنا ، لكن العالم لا ينقص شيئاً إذا نقص رأسا فيه خليط مما قاله الفلاسفة ! لن تخلق نافذة كانت مفتوحة ولن تفتح نافذة كانت مغلقة ، لن يهدم بناء كان قائماً أو يقوم بناء كان منهتما ، ... وإني لأعجب الآن كيف شكنا إلى زميل من الزملاء يوما أنه لا يكسب ما يكسبه مثل هزلى معين مع أنه يعرف وهذا الممثل لا يعرف ! وأنا الآن أعد الضحكات التى أضحكها هذا الممثل للناس ، فأعلم كم ينتقص من بشر الناس لو زال عنهم ، لكنى لا أعرف والله ماذا أعد لأعلم مقدار خسارة الناس إذا زلت عنهم أو زال من هو مثلى فى نوع ما يعلم وما يعمل !

ألا ما أشدها من مرارة على النفس أن يعلم الانسان أنه غير مطلوب لذاته ! إني لأفهم جيدا موقف الجندى الحارس الذى وقف يحرس قصر الملك ، والذى يروى عنه الناس قصة ليضحكوا ، فيقولون إن أم هذا الجندى الحارس قد جاءت من الريف تزور ابنها ، وقد كان أوهما أنه فى المدينة ذو خطر عظيم ، جاءت أمه تزوره ، وحلا لها أن تفاجئه فى مكان عمله ، فإذا هى ترى ابنها واقفاً لقيمة له ولا شأن به ، فسأله ساخرة : أهذا كل ما يؤديه فى حياتك من عمل ؟ فعر على الجندى أن يكون تافهاً فى عين أمه ، ونفخ فى بوق الخطر ، فازدحم المكان فى مثل الغمض بالعين بألوف وألوف جاءوا مسرعين شاكي السلاح ، وابتسم الجندى قائلاً : انصرفوا ، لا خطر هناك ، إنما أردت أن ترى أمى من يكون ابنها ! هذا شعور صادق ، يحتلج مثله فى نفوسنا جميعا ، فليس ألصق بطبيعة الإنسان من حاجته إلى أن

يكون مطلوباً ، ولست أدري — لو تعرضت لمثل هذا التحدى الذى تعرض له الجندى الحارس — فى أى بوق أنفخ لترى أسمى من يكون ابنها ؟ ! آه لو تذرع الناس بالشجاعة ! إذاً لبتروا بتراً سريعاً كل هذه الدراسات النظرية التى يُحَمِّلُهَا أصحابها عبثاً فى رؤوسهم ، ثم لا يجدون سبيلاً للرزق إلا أن يحملوها لسواهم ! ثم يذهب بهم الغرور بعدئذ إلى حيث يسلكون أنفسهم فى زمرة من يعلمون ، ويطالبون بالآلا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون !

ومن لطائف النفس البشرية أن الإنسان إذا ما تبين فى جلاء لم يعد يحتمل عنده شك أنه غير مطلوب ، اعتزل الناس إنقاذاً لنفسه ، لأنه سيوهم نفسه عندئذ أنه هو الذى لم يعد بحاجة إلى الناس ، وأنه يستطيع الاستغناء عنهم ، ومن أشق الأشياء على نفسه أن يدرك أن الناس قد أهملوه إهمالاً وأسقطوه من حسابهم ، فأقصى ما تقسو به على أحد هو أن تهمله ، فلا يظفر منك بحب أو كراهية ، فليست الكراهية هى آخر درجات الأذى ، لأن كراهيتك لشخص تحمل فى طيها احترامك له وتقديرك إياه ، ولولا أنه ذو وزن فى اعتبارك — مهما خف ذلك الوزن أو هان — لما خصصته بشيء من عواطفك ، والكراهية جزء من تلك العواطف . أما أن تهمله وتسقطه من الحساب جملة واحدة ، ففيه إلغاء لوجوده ومحو لكيانه وإهدار لآدميته كلها . وماذا عسى أن يصيب الإنسان من الإيذاء ما هو أقصى من المحو والإلغاء ؟

سبحار !

صادقته أيام الدراسة وما يزال أصدق الأصدقاء ، لم تغب عنه أحداث الزمن مدى ربع قرن كامل ، فهو وديع متواضع ، تشيع في محياه معاني السكينة والسلام والاستسلام والرضى ، وتلمع عيناه دائماً ببريق فيه لمعة من البشر ، ولمحة من عمق النظر ، فما أعرف في الدنيا أحداً يجاريه أو يدانيه في اجتماع الذكاء النادر والخلق القويم ، فقد أجد من معارف الذكي الملتوى ، وقد أجد منهم صاحب الخلق القويم الذى حرمه الله نعمة الذكاء النافذ ، أما أن يجتمع الجانبان معاً في شخص واحد ، فأندر النوادير ، وصاحبي هذا من الفئة القليلة النادرة .

في شخصه سحر عجيب يجذب إليه القلوب في غير مشقة ولا عسر ، فما إن تهيم لك الظروف اتصالاً به بضع ساعات ، حتى تهفو نفسك للقاءه دائماً ، وإنك لتعجب أن ترى بين أصدقائه الموظف الصغير والمهندس والضابط والطبيب والمدرس ، والمصرى والأجنبى ، والمتقف والجاهل ، والمتفرنج والبلدى ، والكهل والشاب ، فإذا هو مع كل هؤلاء صديق وفي حبيب ، لا يتكلف أبداً في حضرة أحد من هؤلاء جميعاً ، كأنما ركب طبعه من طباع مختلفات ، يبدى منها أياً شاء في أى وقت أراد ، ولعل السر في سحره العجيب هو البساطة

الجميلة التي تطبعه من الألف إلى الياء ، فلا تأفف ولا تكلف ، ولا
تأنق ولا تصنع ، ولا عجرفة ولا تكبر ، ولا تصغير لكبير ولا
تكبير لصغير ، كأنما خلق هذا الرجل ميزاناً حساساً دقيقاً للمواقف
والرجال يزن كل شيء بمثقاله ، فلا حيف هنا ولا إسراف هناك .

كل شيء يبدو طبيعياً فيه ، فإذا بدا في عينيك عظيماً فلأنه عظيم ،
وإذا بدا صغيراً فلأنه متواضع متسامح كريم ، صادق القول وصادق
الطبع ، لا زيف ولا خداع فيما يقول أو يفعل ، وقد تضطره ظروف
الحياة أن يخفي عن الناس أمراً من أمره ، فعندئذ تراه يؤثر الاختفاء
عن الناس حيناً حتى لا يتورط في كذب لا يتفق وطبيعته .

هو جاد إن أردت الجد ، وهو هازل إن أردت الهزل ، فليس
فيمن أعرف من الناس أكثر منه جداً ، وليس فيهم أكثر منه هزلاً
ومزاحاً ، متفائل دائماً مستبشر دائماً ، ينظر إلى الجانب اللامع من
كل شيء . فلو نظر الناس إلى كوب ملىء إلى نصفه بشراب الليمون ،
وقال بعضهم متشائماً : إن الكوب فارغ إلى نصفه ، وقال بعضهم
متفائلاً إن الكوب ملىء إلى نصفه ، كان هو في طليعة هذا الفريق
الثاني ، فهو سعيد بحياته سعادة الرجل القوي السليم المعافي الذي رزقه
الله جهازاً عصياً أسلاكه من الصلب الصليب ، لا تهزه العواصف
القواصف ، فقد تنزل الفواحد ، وإذا هي على هذا الجهاز العصبي السليم
توافه لا تلبث أن تمر وتمضي .

خرج صديقي هذا على بساطة طبعه مرة ، أراد منها التفكه والمزاح ،

وذلك حين التقت جماعة الأصدقاء منذ قريب ، كما تلتقى يوماً من كل أسبوع ، فإذا صاحبنا يخرج « سيجاراً » ضخماً طويلاً ، أشعله وراح يدخن ، فضحكنا جميعاً ، وضحك هو مع الضاحكين . وسأله سائل : ما هذا ؟ فأجابه ساخراً من الدنيا ، أو إن شئت فقل أجابه فرحاً بالدنيا : أفعل ما يفعل العطاء ...

ومضت بعد ذلك أيام ، وجلست مع صديقتي ، وأخذنا نفرع الحديث بيننا ونشقه ، ثم سادت لحظة من صمت ، طافت خلالها برأسي صورة صاحبي وسيجاره ، فضحككت .

قالت : فيم تضحك ؟

قلت : فلان وسيجاره .

ثم مضيت معها في الحديث حول هذا : لماذا نضحك من رجل إذا دخن السيجار ولا نضحك من رجل آخر إذا فعل ؟ وها هنا طاب لي أن أقسم الناس طبقات ، جاعلاً أساس التقسيم استعدادهم أو عدم استعدادهم لتدخين « السيجار » .

قسمت الناس على هذا الأساس طوائف أربعاً : طائفة يستحيل عليها أن تفكر في تدخين السيجار ، بغض النظر عما لها من قدرة مالية ، وطائفة ثانية تدخن السيجار فتزيد هيبة السيجار من هيبة وجوههم ، وطائفة ثالثة تدخن السيجار فيذهب وقار السيجار بشيء في وجوههم ، وطائفة رابعة تدخن السيجار ، فإذا الوجه والسيجار متلازمان ، لا يزيد الواحد من قدر زميله ، كأنما خلق كل منهما للآخر .

أما الطائفة الأولى فهي أولئك الذين ينطوون على أنفسهم ولا يريدون أن يكونوا بين الناس موضع نظر ولا موقع انتباه ، فالسيجار الضخم في أفواههم لا يوافق انطواءهم ، لأنه سيلقى ضوءاً على وجودهم وهم يريدون الخفاء ، وسيجعلهم محط الأنظار وهم ينشدون النستر ... والأمر بعد أمر تربية ونشأة ، فإذا أراد ذلك الحظ أن يأخذ أبوك على نفسه أن يغرز فيك معنى الطفولة إزاءه والانقياد الأعمى لأمره ، فستظل مدى حياتك طفلاً وإن طالت قامتك ونمت لحيتك وكبرت سنك ، إن كنت واحداً من هؤلاء ، فلن تجرؤ على تدخين « السيجار » الغليظ الضخم على ملاء من الناس ، تدخيناً يبدو طبيعياً فيك ملاءماً لشخصك ، لأن الموقف — على ثقافته — يتطلب « رجلاً » معتداً بشخصيته ورجولته ، ونستطيع أن نتوسع في هذا المعنى فنقول : إن من لا يقوى على تدخين السيجار في جمع من الناس بحيث لا يتعثر ولا يتلعثم ولا يتكلف ، هو نفسه الذي لم تهيئه تربيته للشعور بعظمة نفسه ، وهو نفسه الذي لا يصلح لمناصب الحكم والقيادة التي تتطلب من أصحابها أن يأمرؤا لا أن يعطعوا . وأعل ذلك نفسه هو ما جعل تنافراً بين المرأة والسيجار ، فلا أظن أن امرأة واحدة في الدنيا كلها قد حدثتها نفسها حتى اليوم أن تدخن سيجاراً في جمع من الناس ، لأن السيجار — كما قلت — إنما يلائم الرجولة القوية التي أعدتها عوامل نشأتها للشعور بعظمة نفسها .

وليس يشترط في الرجل من « اللاسيجارين » الانطوائيين المنكمشين في قواقعهم ، أن يكون متواضعاً في آماله ، بل قد يكون

طامحا طامعا ، يتمنى أن تدوى جنبات الأرض بذكره ، على شرط
ألا تقع عليه أعين الناس وهو في موضع بارز ! فهذا الذى تخونه
قواه إذا ما وضع فى فمه سيجارا على مرأى من الناس ، قد يريد لنفسه
أن يقود الانسانية كلها — لو استطاع — بأرائه وأفكاره ، مادامت
هذه القيادة لا تخرجه من مخابته ومكانه ، ولست أرى غرابة فيما
يقال عن « هربرت سبنسر » وهو من قادة الفكر فى العالم كله فى
أواخر القرن التاسع عشر — ما يقال من رفضه أن يقابل أحدا من
المعجبين الكثيرين الذين كانوا يقصدون إلى رؤيته من أرجاء العالم
كله (وإن يكن قد استقبل الشيخ محمد عبده عند زيارة الشيخ
لانجلترا) ، فهذا الذى كان فى مستطاعه أن يهز العالم بالكتاب فى إثر
الكتاب ، لم يكن فى مستطاعه أن يواجه الناس عينا لعين ، فضلا عن
أن يدخن أمابهم السيجار !

والطائفة الثانية من الناس ، هى التى تدخن السيجار فتزيد هيبة
السيجار من هيبة وجوهم ، على نقيض الطائفة الثالثة التى تنزل من
قدر السيجار بدل أن تستمد منه الواجهة والعظمة ، هاتان طائفتان
كثيراً ما تصادفانك فى شتى أوجه الحياة ، فقد تجد المنصب الواحد
يتولاه رجلان ، فيزداد أحدهما قدراً بحكم منصبه ، بينما ينزل الثانى
من قيمة ذلك المنصب نفسه ، وقد يلبس الرجلان نوعاً واحداً من
الثياب ، فيستمد أحدهما الواجهة من وجهة ثيابه ، بينما يخلع الثانى
هزال شخصيته على ثوبه .

وكلتا الطائفتين مردولة على كل حال ، وإن تكن الأولى أفضل

من الثانية ، وخير منهما أن تفيض عظمة شخصك على الأشياء من حولك ، فإذا هي عظمة بعظمتك أنت .

هذا سر عجيب أودعه الله في عباده ! سر الشخصية العظيمة التي تطبع الأشياء بطابعها العظيم ، ولا تعظم بشيء إلا بنفسها ! هذه هي الطائفة الرابعة من مدخني السيجار ، الذين يلبسون العظمة فتلبسهم في غير مشقة ولا تكلف ، ومن هذا القليل مستر تشرشل الذي يوافق السيجار كما وافق شن طبقة ! .

لو لبس غير غاندى مثل ما لبس غاندى : ثوباً ساذجاً لا بهرجة فيه ، ولو عاش غير غاندى كما عاش غاندى : عيشاً متواضعاً فقيراً ، لهُوت هذه الظروف الخارجية الوضيعة بقيمة شخصه في أعين الناس ، لكنه أفاض من عظمة نفسه على الوضيع فارتفع ، وتلك درجة قصوى من منازل الطائفة الرابعة ، لأنها لا تقف عند حد الملاءمة بين عظمة الداخل وعظمة الخارج ، بل تتجاوز ذلك إلى مرحلة أبعد ، تفيض فيها من عظمة الداخل على وضاعة الخارج فيعظم ...

قالت صديقتي : هذا هو الفرق الأساسى بينك وبين زميلك هذا الذى حدثتني عنه ، فقد طافت فكرة السيجار فى رأسه ، فاشتراه ودخنه ، واستمتع وضحك وأضحك ، أما أنت فنصيبك من الفكرة — من كل فكرة — التحليل النظرى والكلام الذى لا يغير من مواضع الأشياء قليلاً .

٩ شارع السكر داسى

بمناسبة انتقال لجنة التأليف والترجمة والنشر
إلى دارها الجديدة، ١٢ شارع سعد زغلول

منذ سبعة عشر عاماً^(١)، وفى نحو هذا الموعد من السنة، جاء فى خطاب ينيء بقبولى عضوا فى لجنة التأليف والترجمة والنشر، وكان اليوم يوم أربعاء - فيما أذكر - وكنت ما أزال مترع الرأس بالأحلام، عامر القلب بالآمال الضخام فى مستقبل تجيء أيامه مثقلات بالثمر !! .

قضيت عصر ذلك اليوم قلقا، أرقب غروب الشمس أو ما بعده بقليل، لأذهب إلى دار لم أكن قد رأيته أبدا من قبل، ٩ شارع السكر داسى، لجنة التأليف والترجمة والنشر التى أصبحت يومئذ واحدا من أبنائها ! ترى كيف تكون هذه الدار التى تسكنها آلهة الأولمب؟ وكيف يمكن أن أكون واحدا من هؤلاء الجبابرة الذين يقبضون على ناصية الحركة الأدبية فى هذا البلد؟ غدا ستذكر فى المحافل كما يذكرون، وستعرف فى الأوساط الأدبية كما يعرفون، أما والله إنه لحظ موات سعيد أن أجلس حيث يجلسون وأباد لهم الحديث ويبادلون، سيعرفنى

(١) كتبت فى مارس سنة ١٩٥٠ .

أئمة الأدب وأنا بهذه المعرفة محدود ...

قم الآن واذهب في ضوء النهار ، لماذا ترقب ظلمة المساء ؟ .. لا ، بل اصبر هذه الساعات القلائل ، لاتكن خفيفا أرعن . إنك اليوم عضو في هيئة من أعضائها فلان وفلان وفلان ، وأمثال هؤلاء لايتحركون من دورهم قبل غروب الشمس ، من تظنهم يكونون ؟ أتظنهم من أمثالك لايعرفون في يومهم فرقا بين ظهر وعصر ومساء ؟ وصبرت على جمرات من القلق حتى مضت ساعة بعد الغروب وارتديت أحسن ما عندي من ثياب ، وذهبت إلى شارع الكردي .. كان الليل قد أظلم ، وأنا أعلم من الوصف أن الطريق إلى دار اللجنة يبدأ قبالة قسم عابدين ، فألفيتني هنالك أنحدر في طريق هابط مظلم ، وبعد خطوات قليلة ، رأيت بوابة ضخمة لاتبشر وراءها بعمران ! فتشاقلت خطاي ، أياكون هذا الفناء المظلم يارباه ميهبط الوحي لأرباب الفنون ؟ ! كلا ، هذا محال ، امض قليلا وسترى بناء يلمع بالضوء ، ضوء المصابيح وضوء العلم على السواء ، وسيكون ذلك هو شارع الكردي ، لكنني ماضيت عشرين خطوة حتى وجدتني محاطا بسيارات ضخمة قديمة بعضها كامل البناء ، وبعضها منشور الأجزاء !! اللهم إني أعوذ بك من أشباح الشياطين ، ماذا عسى هذا المكان أن يكون ؟ ولم أكد أرى صورة رجل تنبثق من وراء كومة من العدد القديمة الملقاة حتى بلغت ريقا جافا ، ونطقت بالشهادتين سرا ، ثم حييت :

— السلام عليكم .

— وعليكم السلام .

— أين أجد لجنة التأليف والترجمة والنشر ؟ .

— لجنة ماذا ؟ ! .

— لجنة التأليف والترجمة والنشر ، أما سمعت بها ؟ .

— لا والله ياسيدى ، لا تؤاخذنى .

— إنها هـ شارع الكرداسى .

— آه ، شارع الكرداسى ! اخرج من هذه البوابة التى دخلت

منها ، ومل إلى يسارك .

وفعلت كما أشار ، وأنظر إلى شارع الكرداسى ، فإذا هو «حارة»

تجمعت فيها ألوان كثيرة من الحياة البلدية ، وأنقل بصرى فى لحظة من

أول الشارع إلى آخره ، فلا أجد بناء واحدا يلبع بشيء يمكن أن

يكون ضوءاً جديراً بأبناء الآلهة ، جبابرة الأدب ...

وبلغت هـ شارع الكرداسى ، فإذا الواقع يصدم الخيال صدمة

عفيفة قوية ، أها هنا إذاً يقيمون ؟ قل الحمد لله رب العالمين ، لأن

ذلك معناه تواضع فيهم ، ابلع ريقك الآن رطباً طرياً ، واصعد

الدرج ، تجد من تجده منهم مستعداً للقاء العضو الجديد فى ترحيب

كريم ، فلا يمكن لساكن هذه الدار أن يأخذه شيء من كبرياء ،

خصوصاً إذا كان يستقبل زميلاً جديداً .

وأخذت أصعد السلم ، فربى رجل يهبطه ، إنه لم يسأل من

ذا أكون ، لأنه بالطبع يعلم أننى الزميل الجديد ، سعدت ودخلت

مكتباً مقابلاً ، وحييت وجلست ، ولم يكن فى الغرفة إلا رجل يجلس

إلى المكتب ووجهه إلى ورق أمامه ، لم ينطق كلانا بكلمة مدى نصف ساعة أو نحوها ، ولا دخل الغرفة في هذه الفترة إنسان ، فاستجبرمت قواى وسألت :

— أليس في اللجنة أحد من أعضائها ؟ .

— لا ، لكنهم قد يأتون غداً ، الخميس ، من ذا تريد ؟ .

— لا أريد أحداً بذاته ، أنا عضو في اللجنة جديد ، أنا فلان .

— تعال غداً ، وقد تجدد بعض الأعضاء .



ومنذ ذلك الحين ، لبنت ما يقرب من سبعة عشر عاماً أنتردد على هذا البناء ، ه شارع السكرداسى ... ولست أريد أن أفيض القول ها هنا كيف وجدت الزمالة عسيرة الأسباب ، إن آلهة الأولب لا يهبطون من قمتهم الشاحخة بما ظننت من يسر ، إنهم أعضاء أسرة واحدة ، لكنهم كجزر الأرخبيل ، تقوم كل جزيرة وحدها ويحيط بها الماء من أقطارها جميعا ، كلاً لم أجدهما أو همنى الخيال عصر ذلك اليوم بأنى واجده ، لم أبادل الأرباب حديثاً ولم يبادلوا ، وجلست معهم لا كما يجلس الزميل مع الزميل ، فكما اصطدم الخيال بالواقع صدمة عنيفة حين رأيت مهبط الوحى لأول مرة : أين هو وكيف يبدو ، كذلك اصطدم الخيال بالواقع صدمة أشد عنفاً لما تبينت أن الأرباب أشد من سواد الناس حرصاً على أن يظل الأمر بينهم درجات ، فلا يصغر الكبير من أجل الصغير ، ولا يكبر الصغير ليستوى مع الكبير ، وأوشك كل أن يضرب حول نفسه نطاقاً من

حراس وحجاب ، حتى لا يظن ظان أن الملتقى سهل يسير .
لكنني لبثت سبعة عشر عاماً أختلف إلى ٩ شارع الكرداسى حتى
بات جزءاً من حياتى ... ألا ما أعجب اختلاط الناس بالبناء ! من
ذا يستطيع أن يقص قصة حياته دون أن يجد شطراً كبيراً منها
مرتبطاً بهذا البناء أو ذاك ، فنزل ولد فيه ونشأ بين جدرانها ومدرسة
تلقى فيها العلم وهكذا .. إن هذه الجدران الحجرية جزء حى من حياتى
فى هذه الغرفة سلخت كذا ساعة ، وفى تلك الغرفة بذرت بذور
هذا المشروع أو ذاك ، وفى هذه الردهة نبتت الفكرة الفلانية لأول
مرة ، فكان من نتائجها كذا وكيت .. إني لا أعجب لشعراء العرب أن
يقفوا عند الأطلال الدوارس يستوحونها ، لأن الأحجار تنطق كما
ينطق الأحياء ! ورب حجر يظل أبداً الدهر ناطقاً يقص على الناس
القصص ، جيلاً بعد جيل ، والناس أنفسهم يمضون إلى حيث يعلم الله
ولا يعلم الناس .

٩ شارع الكرداسى بناء قديم كسيح تكاد تتقوس جدرانها وتهوى
سقفه ، لكنه جزء لا يتجزأ من حياتى ومن حياة رجال كثيرين ،
بل إنه جزء لا يتجزأ من تاريخ الأدب المصرى الحديث ، فكما ترتبط
الحركات الأدبية أحياناً بهذا « الصالون » أو ذاك المتمدنى ، فسترتبط
الحركة الأدبية المصرية من بعض وجوهها بهذا البناء المتهافت ٩
شارع الكرداسى ، ففى حجراته قامت مشروعات وصدرت مطبوعات
واجتمعت حلقات الأدباء والمتأدبين يسمرون وينقدون .
لكن دار الزمان دورته ، وضاق البناء على أصحابه ، أو قل

ضاق أصحابه به ، فهجروه منذ قريب إلى بناء آخر أجمل وجهاً وأفسح صدرأ وأرقى موقعاً .

وذهبت بعدئذ إلى ه شارع الكرداسى لأقضى بعض شأنى ، فأخذتني وحشة ، لأن المكان قد خلا إلا من المطبعة ترن بأصداها في البناء الخالى كأنها حشرة المحتضر ، وغدا أو بعد غد تزحف المطبعة إلى مكانها الجديد ، ويصبح ه شارع الكرداسى قطعة من التاريخ ، ومن يدرى ماذا سيكون من أمره بعد ذلك ؟ من يدرى ماذا أثبت في أم الكتاب لهذا البناء الذى دوت جنباته حيناً من الدهر بجد لا هزل فيه ؟ قد تزول عنه الكتب ليحل محلها أكياس الفحم أو صفائح الزيت ، فرب بيت صار بيتاً مراراً ، ضاحك من تتابع الأضداد ! .

ليتنى أستطيع التفاهم مع هذا البناء الذى هجرناه ، إذا لأرضيته بما أرويه من حق : وذاك أنى ذهبت إلى بديله الجديد ، فأحسست ببرودة عجيبة تدب فى عظامى ، ولا أعنى برودة الجو ، وإنما أعنى برودة الروح ، فأثرت أن أعود إلى العمل فى ه شارع الكرداسى حتى اللحظة الأخيرة ، أين أين جمال الجسم من خفة الروح ؟ لقد كان سقراط دميم الخلقة ومهبط الحكمة فى آن معاً ..

فلو جاز لصداقة أن تنشأ بين إنسان وبناء ، فلا شك أن صداقة حميمة قد توثقت عراها بينى وبين هذا البناء .

خبرة السنين

سئل سوفوكليز الشاعر المسرحي اليوناني مرة ، وكانت السن قد بلغت به مبلغ الشيخوخة : « ماموقفك الآن إزاء الحب ياسوفوكليز ؟ ألا تزال قادراً عليه ؟ » فأجاب : « صه ! نشدتك الله لا توقظه في قلبي من جديد ، فكم يسعدني أن أراني قد فررت من حبائله ، فأحس كأنما فررت من مستبد متوحش مجنون ! » .

فإذا جعلنا لفظة « الحب » في هذه العبارة رمزاً يشير إلى العاطفة في شتى ألوانها : من غضب شديد وحزن شديد ومقت شديد وحقد شديد وطموح شديد وحماسة شديدة ، إلى آخر هذه العواطف التي يحتدم أوارها عادة في صدور الشباب ، وتبرد ناريها في صدور الشيوخ ، ثم إذا جعلنا « سوفوكليز » في هذه العبارة ينطق بلسان الرجل إذا تقدمت به السن ، كان لنا أن نضع السؤال والجواب السابقين في هذه الصورة الآتية :

— في أي شيء جوهري يختلف الشيوخ عن الشباب ؟ .

— في برودة العواطف بعد اشتعالها .



وفي برودة العاطفة تلخص خبرة السنين ، فالشيخ المجرب الذي خبر الأيام وعرك الحوادث لا يقف نفس الموقف الذي يقفه الشاب

إزاء مشككة بعينها ، فلا يغضب أو يحزن أو يثور حين يغضب الشاب أو يحزن أو يثور ، ليس الفرق بينهما اختلافاً في الذكاء ، لأن علماء النفس يحدثونك حديث اليقين ، بأن ذكاء المرء لا يزيد بعد سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة ، وإنما الذى يزيد بعد ذلك فى المرء كلها تقدمت به الأعوام ، هو الخبرة لا درجة الذكاء .

وكذلك ليس كل الفرق بينهما هو أن خبرة بعينها يصادفها الشاب لأول مرة فى حياته ، على حين يصادفها الشيخ للمرة العاشرة أو العشرين فيكون الفرق بينهما اختلافاً فى عدد الخبرات ، مما يمكن الشيخ أن يتصرف فى كل موقف على غرار ما تصرف فى الموقف الشبيه به فيما مضى ، ولا يجد الشاب فى خبراته السابقة ما يقيس عليه ، فيتخبط فى خطاه ويضل سواء السبيل .

أقول إن الفرق بين الشيخ والشاب ، حين لا يغضب الأول ويغضب الثانى إزاء موقف معين ، أو لا يحزن الأول ويحزن الثانى ، ليس هو اختلافاً فى درجة الذكاء ، بحيث يرى الأول ما لا يراه الثانى ولا هو اختلاف فى عدد الخبرات السابقة فقط ، بحيث يجد الشيخ دائماً فى خبرته من السوابق ما يقيس عليه الموقف الراهن ، ولا يجد الشاب فى خبرته شيئاً يهتدى بضياته ، إنما الفرق الجوهرى الهام بين الشيخ والشاب ، هو برودة العواطف عند الأول ، واحتدامها فى الثانى ، وهذه البرودة هى ما نعنيه بخبرة السنين .

لقد مات لى عمان ، جاء موت الثانى بعد موت الأول بما يقرب من عشرين عاماً ، وشهدت موقف جدتى فى الحالتين ، فكأنما شهدت

امرأتين مختلفتين أشد ما يكون الاختلاف بين الناس ، شهدت في
المرّة الأولى أما جرعت على موت ابنها جزعاً لم أشهد له مثيلاً في كل
من رأيت من الأمهات اللاتي تكن أبناءهن ، شهدت عندئذ أما
لا يكاد ينقطع لها بكاء تهيم على وجهها أحياناً في شوارع القرية صارخة
نادبة لادمة ، وتصوم عن الطعام أياماً ، فإن أكلت تعمدت ألا يكون
طعامها من أطيب الطعام ، وكثيراً ما كانت تذهب إلى قبر ابنها حيث
نقضى اليوم كله والليل كله ، وتأتي أن تفترش غير الحصير الغليظ
الحشن ، على أن تكون السماء غطاءها ، وألد أعدائهم أولئك الذين
يتقدمون إليها بالنصح أو بالتعزية والمواساة ، لأنهم إن فعلوا كان معنى
ذلك عندها قصورهم عن إدراك المصاب بكل هوله وفداحته .

ثم شهدت جدتي هذه لما مات ابنها الثاني ، وكانت قد تقدمت بها
السن عشرين عاماً تقريباً ، مات عمي هذا في القاهرة ونقلنا جثمانه إلى
القرية حيث كانت تقيم جدتي ، وحمل النعش إلى بهو الدار ، حيث
رأيت جدتي واقفة في سوادها ، وكان الليل قد انتصف والسكون
ضارباً بجمرانه على أطراف القرية جميعاً ، والأضواء خافتة في الدار
حتى كاد الأشخاص يتحولون أشباحاً ... وقفت جدتي لحظة شاخصة
يبصرها إلى النعش بعد أن وضعه حاملوه على أريكة خشبية في بهو
الدار ، وقفت لحظة صامتة لا تتحرك ولا تنطق ، فلم يسعنا إلا الوقوف
معهما في صمت خاشعين ، ثم صرخت صرختين ، تنطق فيهما بلفظة
« يا ولدي » ... وكان ذلك كل ما أبدته جدتي من علامات الجزع ،
جلست هادئة في المأتم ، لا تصرخ ولا تبكي ولا تندب ولا تلطم

صدر أو لا تمزق ثوباً .

فكان الفرق بين موقفها في المرة الثانية وموقفها في المرة الأولى هو خبرة السنين .

ولما كان التعليم هو بمثابة اختصار الزمن في تحصيل الخبرة التي تتطلب زمناً أطول بغير تعليم ، رأينا هذه العواطف الحادة أقل حدوثاً في المتعلم منها في الجاهل ، وقل ذلك بعينه في الأم بصفتها عامة ، فالأمة التي ارتفع فيها التعليم أقدر من غيرها على التخلص من هذه العواطف الشديدة على اختلاف أنواعها ، أو بعبارة أخرى : بردت فيها العاطفة وازداد العقل رجحاناً ، فلا تبلغ عاطفة الأبهة أو عاطفة الأمومة هذه الدرجة من الهوس التي نلاحظها في الأمة المتأخرة ، ولا يبلغ حزن الوالدين على فقيدهما ما قد يبلغه في الأمة المتأخرة من درجة الجنون ، ولا ترى فيها علام الغضب الشديد والغيرة الشديدة ، بل لا ترى فيها علام الفرح الشديد .

إن العاطفة الحادة كائنة ما كانت ، نوع من العريضة الخلقية ، تزدد مع الرعونة وتقل مع رجاحة التفكير ، ولعل أهم ما يؤخذ على اليونان في تصويرهم لآلهتهم ، أنهم صوروهم كائنات تنفعل بالعواطف كما ينفعل البشر ، فيضحكون ويحزنون ويحقدون ويتنافسون ويغضبون أما الإله في الديانات الرشيدة فيوشك أن يكون تفكيراً خالصاً لا عاطفة فيه ، وإذا أراد إنسان من البشر أن يعلو على سائر الناس في مكانه ، كالملك في الاحتفال الرسمي ، أو كالقاضي في ساحة العدل ، خلع عن نفسه مظاهر الحقة والطرب والحزن والغضب وما إلى ذلك ،

وبدا للناس كأنما هو كائن بغير عاطفة .

ذلك أن العاطفة معناها نقص في قوة التفكير ، فانظر إلى ماشئت من أوضاع الحياة أو جوانب الطبيعة نظرة عقلية عليية ، تر العاطفة قد ااحت آثارها . انظر إلى الحب — مثلاً — نظرتك إلى السمك يبيض ويلقح له البيض ، وانظر إلى المرأة « الفاتنة » نظرة عالم التشريح إلى الجسم الإنساني ، وإلى الزهرة « الرائعة » نظرة عالم النبات وهو يدرس أجزائها وإلى أى نوع من الزهر تنتمى ، وحدثنى بعد ذلك ماذا بقى لك من عاطفة .

إن الشيخ إذا تعلم من خبرة السنين ، تعود برودة العواطف . فإن قلت لئلائذه تبعاً لذلك ، فقد قلت كذلك آلامه ، ولست أتردد لحظة — إذا كان لى اختيار — فى أن أوثر القلة منهما معاً على الكثرة منهما معاً ، نعم إن الشيخ لم تعد له لذة الحب الجاحمة كما يتمتع بها الشاب ، ولكنه كذلك مستريح البال من آلامه وأوجاعه . ودونك شعراء الحب فانظر كم قصيدة قيات فى نعيم الحب ، وكم قصيدة قيلت فى جحيمه ! لئن كان الشباب يعرف ما الحب ، فالشيخوخة تعرف كيف تكون الصداقة ، وما الصداقة إلا حب هدأت فيه العاطفة وزالت عنه شروها .

التخلص من العاطفة الحادة هو — كما قال سوفوكايز — « فرار من مستبد متوحش مجنون » . فأنت مستبد برأيك إذا سيرتك العاطفة استبداداً يستحيل معه الوصول مع خصمك إلى اتفاق ، وإن شئت فانظر إلى فريقين اختلفا فى عاطفتهم الوطنية ، وفريقين اختلفا فى

نظرية علمية ، فالسيل عند المختلفين في الحالة الأولى هو القتال ، إذ لا سيل إلى مقالة أو مداولة أو نقاش ، والسيل عند المختلفين في الحالة الثانية هو الإقناع ، إذ لا ضرورة إلى قتال .

وأنت متوحش إذا احتكمت إلى عواطفك في حكمك على الناس والأشياء ، لأنك عندئذ ستحب هذا وستكره ذاك على غير أساس إلا ما يبنى عليه الحيوان الأعجم حبه وكرهيته ، إن الهمجي يريد الشيء بغرائزه وعواطفه أولاً ، ثم توحى له الأهواء أنه أراد الحق فيما أراد ، والعكس أرقى في مراتب التطور البشرى ، وهو أن أرى أولاً أن الشيء حق دون تدخل من العاطفة والهوى ، ثم بعد ذلك أدرب نفسي على حبه .

وأنت مجنون حين تمسك العاطفة بزمامك ، لأن المجنون هو أن تأخذ بما في رأسك من أوهام ، متحدياً بذلك الواقع المحسوس ، فيرى « العاقل » في النهر ماء يجرى في منخفض من الأرض ، أما « العاطفي » فقد يراه كأنه حياً يهمس إلى الشواطئ والزوارق همسات الغرام ! .

التزام الواقع في هدوء بغير صخب العاطفة وهوسها — هذه خبرة السنين ، فالرجل طفل غر مهما تقدمت به الأيام — إن ظلت تعصف به عواصف العواطف الهوج ، والشاب شيخ مجرب مهما صغرت أعوامه ، إن نفخ الدخان عن نيران الحوادث ليراها على حقيقتها ...

لقد كنت أنظر مع صديقتي إلى ألعاب بهلوانية أجاد فيها اللاعبون

حتى إذا ما فرغوا من ألعابهم ، صفق الناس تصفيقاً يمزق في الأكف
جلودها ، وجالستُ ساكناً لم أصفق ، فسألتني صديقتي : لماذا لا تصفق
مع الناس ؟ فأجبته قائلاً : إنها خبرة السنين .

أرقـام

أنزل الله بهذا القلم محنة طال أمدها حتى أشرف على الخمسين يوماً
انقطع خلالها عن الكتابة في شتى ضروبها ، وقد كان يوشك قبل
ذلك ألا ينقطع عنها يوماً واحداً ، وذلك أن صاحبه قد شد إلى أعمال
الامتحان شداً بغيضاً ، حتى تخرج صدره وضائق نفسه ، ولم يجد
ما يعينه على البلاء سوى أن يرخي على عقله ونفسه ستارا من خياله
فلا يدرك ما حوله إلا إدراكاً غامضاً ، على نحو ما يرخي الغطاء على
عيني الثور المربوط إلى الساقية ، حتى لا يتبين ما هو فيه من محنة
فيثور .

كان هذا القلم أيام محنته يملأ جوفه في الصباح مدادا ، ليفرغه طيلة
الضحى أرقاما ، يظل يرصها صفوفاً صفوفاً ، وكلها فرغ من كومة
منها جاءت كومة أخرى : فالمملئ لا ينفك يملئ عليه ، والقلم لا ينفك
يفرغ مداد جوفه بما يملئ عليه : ٧ ضعيف ، ١٠ مقبول ، ٥ ضعيف
جدا ، ١٢ جيد ، ٦ ضعيف ، ٩ ضعيف ، ١١ مقبول ، ٨ ضعيف ،
٣ ضعيف جدا ... وهكذا راح قلبي المسكين اليأس الخيب الرجاء ،
يملاً جوفه في الصباح مدادا ، ليفرغه طيلة ساعات الضحى بما يملئ عليه
من هذه الأرقام وما يشبه الأرقام ، ولم يكن يعلم إلا الله وصاحبه كم
كانت تتلوى أمعاؤه من الألم حيناً بعد حين ، إذ كان يتمنى لنفسه

شيئاً فوجد شيئاً آخر ، فما أبعد الفرق بين ما كان هذا القلم يرتجيه لنفسه ، وبين ما سخر له تسخيراً خلال تلك الأيام الخمسين .

وجاءتني عندئذ رسالة كريمة تريدني على الكتابة ، فهممت أن أجلس إلى مكتبي ساعة أتصيد لها اختلاسا من شبكة الأرقام ، التي ضربت حول قلبي نطاقاً كأنه نسيج العنكبوت وقد تعثرت فيه الفريسة المنكوبة ، هممت أن أجلس إلى مكتبي ساعة لعلني أجيب تلك الرغبة المشكورة ، فأطفئ من نفسي ظمأين ، وأحقق لقلبي غرضين ، لكنني وجدت القلم محمواً مثل صاحبه ، فهو — كصاحبه — في غمرة من خيبة الرجاء ، كلاهما كان يريد لنفسه مكاناً ، ويأبى الناس إلا مكاناً أدنى ، فهذا القلم المسكين اليائس الخيب الرجاء ، ينظر إلى الأقلام التي يباريها وينافسها ، فيعجب لماذا يحكم عليه الناس من دونها أن يفرغ مداده فيما قد كان يصلح له أتفه الأقلام ، إلا أن يكون سجناً موصوداً ونفياً منشوداً وتشريداً مدبراً ؟ !

ولم أكد أفرغ من محنتي تلك ، وأخرج من ضائقتي كما يخرج السجين من غيابة سجنه ، حتى أفرغت ما في القلم من بقية مداده ، لعلني أطهره مما احتوت أمعاؤه من آثار الدنس ، وملاؤه مداداً جديداً نقياً ، إن صح أن يوصف المداد بالنقاء ، وقلت له : عد الآن فاكتب يا قلمي فدمع دمة سوداء كان منها عنوان هذا المقال : « أرقام » ، لأن الأرقام التي ظل يكتبها خمسين يوماً ، كانت لاتزال عالقة بسنانه ، لكها الآن قد نفخ فيها روح ، فإذا هاتيك الأرقام ناس !

« ٧ ضعيف » ... ليست هذه العبارة رقماً أصم إلا عند صاحب

القلب الميت والبصر المفقود ، انظر إليها متأملا . ترها شابا في الثامنة عشرة من عمره ، أميل إلى السمرة ، صَحَّتْ له عين وعطبت عين ، له شارب خفيف ، وانتشرت على وجهه شعرات لحية عمرها أربعة أيام أو خمسة ، وفي الشاب ذبول الزهرة التي لم تذبل ذبول الموت ، ولا هي ازدهرت ازدهار الحياة ، فهو وسط بين الصحة والمرض ، وبين النشاط والخنول ، إنه بحاجة إلى قطرتين من ماء لينتعش ويصحو هو بحاجة إلى قطرتين اثنتين من حب ليرتوي قلبه الظمآن ، لقد شبع وارتوى من حب أبويه ، وأرادت له الطبيعة الآن حبا آخر .

... لكن اذبل عودا يا بني ، مت قلبا وروحا وانطفئ عقلا وفؤادا ، إنك تحيا في قفر يباب ، هيهات أن تجد فيه هاتين القطرتين اللتين تتعطش إليهما ، لأن الفضيلة عندنا يا بني حدها هاتان القطرتان من ماء ، اسرق ماشئت ، وانهب ماشئت ، واستهن بالناس ماشئت ، ودس على الواجب بقدميك ماشئت ، فلن يخرجك ذلك كله يا بني ، ولن يخرجك أضعافه من حظيرة الفضيلة وزمرة الفضلاء ، ما دمت بمنجاة من هاتين القطرتين من ماء الحب اللتين يريد هما عودك ليرتوي وها قد أتى سجانوك آخر العام لينشروا أوراقهم بين أيديهم ، فيملي المملى على الناسخين : « ٧ ضعيف » ، ويكتب الناسخون في جبهة على جباههم ورعشة بأيديهم : « ٧ ضعيف » — غيره .

« ٧ ضعيف » — ليست هذه العبارة رقما أصم خطه قلم ، لكنها صورة ذلك الشاب الذي سنحت له في الدرس فرصة ذات يوم ، فقام يسألني أسئلة فيها مرارة وثورة على كل صاحب سلطة ، في

الأرض أو في السماء ، وفرغ الدرس ولم أكن قد أتممت حديثي معه فتبعني في ركن هادئ من المكتبة ، وراح ينفذ لي جملة حاله ، فإذا هو يعيش في بيت كأنه الجحيم : أم مطلقة وزوجة والد تذيقه العلقم كلها أصبح له صباح أو أمسى مساء ، ووالد لا يكاد يجد القرش لغذاء أسرته ، فضلا عما يتطلبه شاب كهذا الشاب مما تقتضيه سبحات الشباب ...

إذا يا بني فالجوع الذي يعصف بقلبك الغض ، يمتد حتى يشمل المعدة والأمعاء ويوقر السمع ويعمي البصر ! لكن امض في هذا السعير الذي تخوضه بالنهار والليل ، وستنقضي أشهر قبل أن يأتي يوم الحساب ، فيجلاس زبانية جهنم في أجنحة الملائكة ، ليملئ منهم ممل ، وينسخ ناسخ : « ٧ ضعيف » — والله يعلم أن الضعف باد في عينك وفي مشيتك ، وفي جناحك المبيض ، ولم يكن بهم حاجة إلى هذه الأروقة ينصبونها ، وإلى هؤلاء الحراس يقيمونهم ، والأجراس يدقونها ، كأنها جنازة وهذه شعائرها ، لم يكن بهم حاجة إلى كل هذا لينشروا بعد ذلك أوراقهم بين أيديهم خمسين يوماً كاملة ، يصفونك فيها بأنك « ٧ ضعيف » .

آه لو رزق الله هذا الإنسان المنكود قوة في خياله ليرى أشخاصا أحياء وراء الرسوم ! . ينظر القائد الحربي إلى الخريطة ويضع إصبعه على نقطة سوداء ، فيهمهم لنفسه أن تضرب « هذه النقطة » بالقنابل لينفصح الطريق أمام جيشه ، والنقطة السوداء تحت مجهر الخيال الحي يوت ملأى بالآباء والأمهات والأطفال والقطط والكلاب والدجاج ،

يأليت النقطة السوداء على الخريطة تطن بكل مايملاً منازلها وشوارعها
من أصوات الأحياء ، لعل القائد الحربى يتردد لحظة قبل أن يقرر
ضربها بقنابله .

وكذلك هذه الأرقام التى نضعها على أوراقنا آخر العام ، فنحنط
فيها جثث الشباب ! أعمروا هذه الأرقام بخيالكم لتشهدوا وراءها
أبناءنا كائنات حية متنفسة نابضة القلوب ، فتزوا فى أى قفر من
الوجدان يحيون ، وفى أى جو من الجوع النفسى يتنفسون ، قبل أن
تجلسوا إلى موائدكم آخر العام ، وفى أيديكم الأقلام مشرعة كالأسنة
المسمومة ، فيملى المملى ويكتب الكاتبون : « ٧ ضعيف » ...

قـالوب ...

جاء فى الأبناء العلية أن طائفة من العلماء الروس قد لبثت تجاهد-
حتى أفلحت - فى نقل الأعضاء من حيوان إلى حيوان، فإذا الأعضاء
المنقولة تفعل فعلها فى صاحبها الجديد، على نحو ما كانت تفعله فى
الصاحب القديم .

فهذا هو العالم «مازيف» يحدثنا عن نقل الساق من كلب إلى كلب،
فما هو إلا أن يمشى الكلب بساقه الجديدة ويجرى ويقفز، كأن الساق
كانت ساقه منذ ولد، وليس ذلك شيئاً مذكوراً إلى جانب ما وفق
إليه العالم الأستاذ «ديمكيوف» فى نقل الرئتين من حيوان إلى آخر،
ثم ما استطاعه أخيراً الأستاذ «أوجنيف» من نقل القلوب، فيأخذ
القلب من هذا ليضعه فى ذاك ... وإنما جاهد هؤلاء العلماء ما جاهدوا
لينتفعوا بعلمهم عن الحيوان فى عالم الإنسان .

وإذا فقد جاء اليوم الذى ينتقل فيه القلب من أضلع زيد لينبض
فى جوانح عمرو ...



كان «خالد» منذ أيام الشباب الأولى، حاد العاطفة سريع
الانفعال، حتى توشك ألا تراه إلا محرم العينين منتفخ الأعروق من
غضب، وتكاد لا تسمعه إلا صائحاً ملوحاً يديه وذراعيه فى تحد

ووعيد ، فسماءه عاصفة أبدا ، وبحره هائج مائج أبدا .

تصادفه المشكلات فيعالجها بالغيرة لا بالعقل ، وينظر إلى الحياة نظرة أقرب إلى نظرة الفنان منها إلى نظرة العالم ، أعنى أنه يواجه الأشياء في مجموعها وبمجملها ، ويكره أشد الكراهية أن تطالبه بتحليل شيء أو موقف إلى عناصره ، أو تعليل نتيجة بمقدماتها ، اختار زوجته لا لشيء سوى أنه قد سمعها مره في لقاء عابر تقول كلاما لطيفا عن حوض من الزهر في حديقة ، وصمم - ولو أنه لم ينفذ ما صمم عليه - أن يؤلف كتابا في موضوع معين ، لأنه تصور العنوان فأعجبه إذا نطق به ، وأعجبه رسمه إذا كتب ، حتى لقد أوصى بهذا العنوان أن يكتب ويحفر ، قبل أن يخط من الكتاب حرفا واحدا ، ووضع « الكليشيه » في درج مكتبه انتظارا لفراغه من الكتاب ، فلا فرق عنده أبدا بين أن تقرأ أحرف الهجاء من الألف إلى الياء أو من الياء إلى الألف ، أو أن تبدأها من الوسط ثم تسير راجعا أو متقدما ، أعنى أنه في ترتيبه لأموره ، لا يعبأ أن يجيء الأول قبل الآخر ، وعنده أن الطريقة الأصح في أى أمر ، هى الطريقة الاجمل ، والتصرف المعقول في نظره هو التصرف الذى يرضى أهواء نفسه ونوازع قلبه .

ولما كان « خالد » مدفوعا في حياته بعواطفه ، ثم لما كانت العواطف أقرب إلى القلب منها إلى الدوام ، رأيته سريع التنقل في فكره وفي فعله على السواء ، فلا تكاد العاطفة تغريه بعمل ويبدأ في أدائه ، حتى تعود العاطفة فتغريه بعمل آخر ، ولذا قل أن ينجز عملا

من أوله إلى آخره ، فحياته أقرب إلى غومة من مواد البناء منها إلى البناء المشيد المرصوص ، أو هي أقرب إلى قطرات المطر التي تدق النوافذ والجدران والأرض والشجر ، منها إلى نهر متصل المجرى متدفق التيار ، يبدأ شوطه عند منبع معروف ، لينتهي بجراه إلى مصب معروف .

وهو قلق سريع الحركة ، لا تراه مرة واحدة يستطيع الجلوس على مقعد واحد في مكان واحد ثلاث ساعات متصلة ، ويقال إنه لا ينام من الليل إلا قليلا .

لا يمنع عنده مانع أن يذهب إلى مقاول يقاوله في بناء بيت مساحته كذا وشكله هكذا ، دون أن يكون في كيسه من المال ما يكفي لبناء عش من أعشاش الطير أو بيت من بيوت النمل ، ولكنه يفعل ذلك إن طاف برأسه مثل هذا الحلم الجميل ، وأيس من ضرر على أحد إن لم يكن بناء .

وأنت عدو من أعدائه إذا عرفت أنه بصدد مشروع فسألته : ومن أين لك المال ؟ ذلك لأنه يكره العد والحساب ؛ وله حجة في ذلك ظريفة طريفة ، وهي أنه قد عاش ماعاش من دهره لم يحسب ولم يعد ، وترك أموره تجري « بالبركة » فلم يمت من جوع أو مرض وليست أعوامه الباقية في الحياة بأطول من أعوامه الماضية حتى يحسب لها الحساب .

وهكذا ترك « خالد » زمام أمره لعواطف قلبه .

* * *

وأصابته العلة هذا القلب الفياض بعواطفه ، الجياش بدوافعه ، فلم يعد يقوى على الحياة الزاخرة بالحركة السريعة والتقلب المفاجيء ، حتى لكأن هذا القلب قد قطعت نياطه كما يقولون ، يلهث إذا مشى الهوينا وقد كان الجرى لا يكفيه ، غير أن الطب قد بلغ في معالجة القلوب مبلغاً بعيداً ، فما أهون أن يوضع قلب سليم مكان قلب مريض فاستبدل خالد عند الطبيب قلباً بقلب .

لكن الطبيب حين يضع قلباً مكان قلب ، لا يعبأ بما تحويه هذه القلوب من مشاعر وعواطف ، فهو يريد أن يستبدل بعضلة ضعيفة عضلة قوية وكفى ، أما هل يعمر هذا القلب الجديد ما كان يعمر القلب القديم من عواطف ، فأمر لا يعنيه في قليل أو كثير .

وكان أن حمل خالد قلباً جديداً وخرج من عند الطبيب لا يدري أنه قد أصبح في الحق إنساناً آخر ، لأنه حمل الآن قلباً يختلف مكنونه عن مكنون قلبه القديم .

ذهب إلى داره ، وجلس إلى مكتبه ، وفتح درجا من أدراجيه ، فاذا عيناه تقعان على عنوان الكتاب الذي كان قد طلب إلى الخطاط أن يكتبه له ويحفره ، وأخذ يقلبه بين أصابعه متعجباً : لماذا يكون هذا قبل أن يكون الكتاب ؟ وما هو إلا أن ألقى « بالسكليشييه » في سلة المهملات ، لأنه عرف الآن أن الكتاب لن يكتب ، وجاءه المقاول يقاوله في أمر البيت الذي يريد بناءه لنفسه سكناً ، فلم يستمرىء أن ينطق في الموضوع بكلمة واحدة إلا إذا تهيأت له الأسباب أولاً فما هو اليوم بالرجل الذي كان ، وبدأت تدب بينه وبين زوجته

ضروب من الخلاف لم تكن تقع بينهما فيما مضى ، فهو الآن يعد
وبحسب قبل أن يذهب إلى المصيف ، وكان فيما مضى يذهب إلى
المصيف بغير عد ولا حساب ، وهو الآن يفصل ميزانية داره تفصيلا
وكان فيما مضى ينفق ما في الجيب معلقا رجاءه بما قدر له في الغيب .
لم تعد حياة خالد تشيع في نفسه لذة ونشوة كما كانت تشيع فيه
حياته الأولى اللذة والنشوة في عهد قلبه القديم ، فليس في القلب
الجديد من دخان العواطف ما يعميه عن الحقائق الواقعة ، والنظر
بالعين المجردة إلى الحقائق العارية عن تزويق الخيال فيه مرارة وألم ،
ولكنه آمن عاقبة وأسلم ختاماً وأخصب نتاجاً .

كان « خالد » في عهد قلبه القديم طفلاً يلهو بأحلامه لهواً لذيذاً
جميلاً ، فأصبح تحت سيطرة القاب الجديد رجلاً يواجه الواقع المرير
المؤلم في شجاعة الرجال ، إن أحلام القلب شبيهة ممتعة لذيدة لأننا
نطبخ لأنفسنا فيها ما نشتهي ، فننقص من ملحها وفلفلها كما نشاء ونهوى
ونزيد من لحمها وأرزها كما نشاء ونهوى ، وأما الواقع فعلقم مرير
في أكثر الأحيان ، لأن الطعام يقدم لنا معداً مطبوخاً على مشيئة
طاه سوانا ، لكن الأحلام على لذتها من طبيعة الطفولة الغريزة ،
والواقع على مرارته منميزات الرجولة المكتملة الناضجة .

النضج العقلي معناه إدراك الواقع والاعتراف به ، والعمل
بمقتضاه ، فيجىء العمل منتجا بقدر ما يسع طبائع الأشياء أن تنتج ،
والعقل النىء الفج هو الذى لا يطبق النظر إلى الواقع كما هو ، فيغمض
عينيه ويرسل للأحلام عنانها ، ولا غرابة بعد ذلك أن جاء الشعر

قبل النشر في تاريخ الأدب ، ما دامت مرحلة الشعر الحالم أسبق من
مرحلة النشر الواقعي في تاريخ الحياة — حياة الأفراد وحياة الأمم
على السواء . . .

جرع « خالد » في عهد قلبه الجديد ، الذي لم يطق معه أن يركب
للواقع الثقيل أجنحة من ريش الأحلام الطيارة الدوارة ، جرع
في عهد قلبه هذا مر الواقع وعلقمه ، لكنه مع ذلك تمنى لأمته كلها
أن يبدلها الله قلوباً بقلوب ، فينزع من صدورها القلوب الحاملة الساهمة
النائمة ، ليضع مكانها قلوباً صاحبة متيقظة واعية .

أعنام تحطمت

صادفتني أيام الشباب طائفة قليلة من رجال ، نزّلوا من نفسى
عندئذ منزلة إكبار لا ينتهى وإجلال ليس بعده مزيد ، ثلاثة منهم أو
أربعة كانوا دوما أمام عيني مثلاً أتمثل به حين أطلب لنفسى ، أو حين
أسوق للناس مثلاً ، للرجل كيف يصلب عوده وتتعدد جوانبه
وتتنوع نواحيه ، كنت أنظر إليهم نظرة الغفل إلى أبيه ، يراه عملاقاً
قادرّاً على كل شيء ، فهو إن شاء أمسك بالقمر ، وهو إن أراد أنزل
المطر ، وأراني بالقياس إليهم قطرة من محيط أو ذرة من جبل ...
آه لو كان لى قلم فلان وشهرته ولتنزل بى نكبات الدهر بعد ذلك ،
ألوأنا فما أبالى ، أو لو كانت لى هذه الحيوية الدفاقة التى لفلان وهذا
الأفق الواسع والعلم الغزير ، إن شخصه ليملاً الفضاء حتى ليكاد يتعثر
به السمع والبصر أنى مضيت ، وأنظر إلى فلان كيف كسب القلوب
بترفعه عن الصغائر وازدراءه لما ينغمس فيه الناس إلى أذقانهم من
توافه ، وأين لك مكانة فلان فى هدوئه واعتداده بنفسه حتى لتتوجه
إليه الأنظار أينما حل ، أتذكر فى يوم جلس فى جمع كبير من كرام
الناس وأحس التعب فى قدميه فخلع الحذاء فى حركة ثابتة طبيعية كأن
إنساناً لم يكن معه ؟ أين أنت من هذا وأنفاسك تكاد تنقطع حياء
من نفسك ... هكذا كان هؤلاء الرجال يملأون منى شعاب الخيال

في عهد الشباب .

ومضت الأعوام وازددت خبرة بالناس وطبائعهم ، وراقبت
عن كسب وفي شيء من الدقة والتفصيل ، بعد أن كنت أنظر من
بعيد وعلى وجه التعميم والإجمال ، فأخذ نفر من هؤلاء العمالقة
يصغرون ويضؤلون حتى لأراهم اليوم أقرب إلى الأقزام ، كنت
أحسبهم أقوياء بنفوسهم فرأيت كيف يضعفون أمام أيسر الدوافع
وأصغر ضروب الغواية ، إن الفرق بعيد بين صورة الهرم الأكبر
حين تبدو لعينيك من بعد ، وبينها وأنت إلى جواره ، فالمسافة البعيدة
تزيل الحفر والنقر والغلظة والخشونة ، تجعل الجدار أملس صقيلاً ،
إن القمر الذي تراه من بعد لامعاً ساطعاً وضاء ، هو على القرب
حزون وجبال عتمة مظلمة سوداء ، لقد كنت مع جماعة من الأصدقاء
ليلة في مرقص ، فأبى واحد منا عرفناه بالظرف والفكاهة إلا أن
يجلس في آخر الصفوف ، ولما سئل في ذلك أجاب بأنه يرى الراقصات
على هذا البعد روائع فائنات ، فلماذا يقترب ويرى الغضون والعيوب
فيجعل الجميل قبيحاً ؟

والحق إنى حين ازددت خبرة بهؤلاء الناس على مر السنين وصغر
في عيني منهم من صغر ، كبرت عند نفسي على حسابهم ، فلم أعد أراهم
قطرة من بحر ولا ذرة من جبل كما كنت أتوهم ، وإن الله لينعم عليك
بالنعمة الكبرى إذا وهبك القدرة على وزن نفسك ووزن الناس
بميزان صحيح لا تحيز فيه ولا تحيف .

والفضيلة في هذا الأمر ، كما هي في شتى الأمور ، وسط بين

طرفين كما يقول أرسطو ، فذيلة منك أن تغلو في قدرك لنفسك حتى تراها أضخم مما هي ، وكذلك رذيلة منك أن تحط من قدر نفسك حتى تراها أضال مما هي ، والفضيلة هاهنا إنما تقع في الوسط الذهبي الذي يضع النفس في موضعها الصحيح ، فلا زيادة من طرف ، ولا نقص من طرف آخر ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه كما يقولون .

كان الخطأ الأكبر عند عبدة الأصنام ، هو أنهم عبدوا شيئاً كان يمكن لخيالهم أن يتصور ماهو أكبر منه ، وإن كان هنالك ماهو أكبر ، ففيم عبادة الأصغر ؟ إن كان إلهك صنماً صغيراً من حجر ، فالجبل الأشم أولى منه بالعبادة ، أو كان جبلاً عالياً فالشمس أعلى ، أو كان شمساً واحدة فالسماء أوفر شمساً ، وهكذا تستطيع أن ترقى بمعبودك حتى تدرك في النهاية أن من يستحق العبادة كائن واحد سبحانه وتعالى كل ماعداه صغائر عابرة تتجمع حيناً كسحاب الصيف لا يلبث أن ينقشع ويزول ، وكذلك قل في تقديرك للناس من حولك ، فما دمت تنوى أن تعنو بوجهك لإنسان ، فليكن عظيماً حقاً في البعد والقرب على السواء .

إن الشيطان الذي أبى أن يعبد الله استعلاء واستكباراً ، لا جذر عندي بالتقدير والتوقير من عابد الصنم الصغير ذلة وخنوعاً ، وليس من عجب أن يخفق « ملتن » في « الفردوس المفقود » فلا يوفق إلى مايريده بالشيطان من تحقير ! أراد أن يصف تمرد الشيطان وعصيانه وصفاً يحمل القارئ على مقتته وازدراءه ، فأفلت منه الزمام برغم

أنفه ، وإذا القارئ يقرأ القصيدة ليرى عراقياً يوشك أن يكون
بين ندين ، فليس يخلو من العظمة من تحدثه النفس أن يخاصم العظيم .
عدم الخوف هو سر النجاح ، فعش حياتك على فوهة بركان
— كما قال نيتشه — ولا تركز إلى الامن والدعة ، فأنت حتى بمقدار
ما أنت مغامر جرى ، لا تتمثل أمامك فكرة الموت فتصديق بالجمود
والشلل ، عدم الخوف هو جوهر الحكمة — كما يقول رسل — ومن
الجبين أن تـكـبل نفسك بأغلال الخوف وأصفاده إزاء المخاطر
الحقيقية فما بالك بما هو في الواقع ظلال وأشباح ! وأول المغامرة
أن تحطم الأصنام ، فيم عبادتك أصناماً من أناس عبادة الخائف
يخشى منهم السلوة والبطش ويرقب منهم الصدقة والإحسان ؟ .

أنظر كم تجنى على حاضرنا عبادتنا لماضينا ! إن موتانا ليتحكمون
في رقابنا بأشع مما يتحكم به أغاظ الطغاة في عبيده الأذلاء ، لماذا ؟
لأننا نخشاهم فلا نخشى فيهم إلا وهما ، كما يخاف الطفل خشخشة الورق
في الظلام ، نخشاهم فنعبدهم فنكيل لهم الحمد والثناء بغر حساب ، وليس
بعد ذلك من بأس إن صغرنا نحن بسبب إكبارهم ، وذلنا بسبب إعلاهم
فاللغة ما نطقوا ، والشعر ما نظموا ، والنثر ما كتبوا ، والحكومة
الرشيدة على غرار ما حكموا ، والعلم الصواب ما علموا كأن الأرض
تدور من المشرق إلى المغرب ، أو كأن الزمان يسير القهقري ،
والأمر كله عبادة أصنام رسمت من ظلال ، إن عبء الموقى يكاد
ينقض ظهورنا ، فهلا ألقيناه عنا لنمضي في الطريق خفافاً ؟ . ولأمر
ماركيت الأعين في الجباه ، لتنظر إلى أمام ولم تتركب في مؤخرة الرؤوس .

لقد تصور اليونان آلهتهم — أول الأمر — ذوى نزعات
ومنازعات كالتى تحدث للبشر ، فهى تلهو وتعبث وتغضب وتعبس
وتعتزك وتشتجر ، وتحب وتكره وتنتقم ، فلما نضج العقل اليونانى أبى
أن يعضى فى عبادة هذه الآلهة التى لا ترتفع عن مستوى البشر فى
دوافعها وأطامعها ، واختاروا لأنفسهم بديلاً لها ، إلهاً عاقلاً حكيماً
خيراً يدبر أمره تدبيراً محكماً فى إرادة صامتة ، فلاثرة ولا قهقهة
ولا لولة ولا بكاء — كذلك فعلت مع أصنامى التى عبدتها حيناً ثم
حطمتها لما بدا أمام عيني صغارها .

ولم أتم بعد عملية التحطيم ، لكنى أخذت أتنفس الصعداء وأتنسم
الهواء بقدر ماتم من تحطيم ، لقد طالعت عبوديتى وعبادتى حتى
احلوكت نفسى بسواد سحيم ، وهأنذا أرى شعاعاً من ضياء يشرق
فى جنبات صدرى بالقدر الذى خلصت فيه نفسى من ركام الأوهام
حياتك — أيها القارىء — وحياتى مليئة بالأصنام نعبدها ، عن وعى
مرة ، وغير وعى الف مرة ، إنها تحيط بك وبى ، فهى عن أيماننا
وشمائلنا وأماننا ووراءنا ، هى معنا فى المنازل التى نسكنها ، وفى
المكاتب التى نعمل فيها ، بل هى فى رؤوسنا نحملها أينما سرنا ، كالذى
يقال عن بعض رجال الجاهلية من أن الواحد منهم كان يحمل معه
صنمه فى ترحاله مصنوعاً من عجوة البلح ، حتى إذا ما استقر فى مكان
أكاه ، فاحمل فأسك — كما حملت فأسى — وابحث فى رأسك وانظر
من حولك ، وحطم الأصنام لانخش بأسها ، لأنها أضعف جداً مما
ظننت بها ، تذق حرية نفسك واستقلاها طعماً لذيذاً .

البيغاء والقفص

أهديها إلى رجال المعارف
بمناسبة موسم الامتحان

قال الراوى :

وكان عارف باشا سميناً بديناً ، انتفخ جفناه ، وتهدل شارباه ،
وتورم صدغاه ، انشمر أمامه بطن كبير ، وامتدت وراءه أعجاز ،
إذا تكلم لا يبين لأنه يأكل أواخر الكلمات .

ولكن عارف باشا لم يكن كريهاً ولا ذميماً ، تنظر إليه فتبتسم
ولا تدري لماذا تبتسم ، ولعلها ابتسامة الحب الذى يخلو من كل تقدير
وإعجاب ، والحق أن عارف باشا جدير بحبك ، لأنه طيب القلب إلى
حد بعيد ، تحفزه طيبة قلبه أن يعمل الخير ، ثم يعينه على فعل الخير
ثراؤه الضخم ، وجاهه العريض ، ونفوذه الشامل ، لكنه ما أكثر
ما يخطئ وما أقل ما يصيب .

جاء له ذات يوم بطائر جميل الريش ، رائع الألوان ، سريع
اللفتات ، رشيق الحركات ، وقيل له : هذا بيغاء ، يفصح البيان إذا
ما تعلم نطق الكلام . فنظر عارف باشا ذات اليمين وذات اليسار وهو
يفترش شغره الواسع عن ابتسامة الدهشة والعجب ، وقال : لأعلمه نطق
الكلام لأرى كيف يفصح البيان ! كم يكلفنى هذا وما سبيل إليه ؟

فأجابه من جاءه بالبيغاء : أما التكاليف فلا يسأل عنها من كان
في مثل ثرائك يامولاي ، وأما السبيل فلك أن تسأل عنها العلماء
الراسخين ، وإنهم بحمد الله لكثيرون .

وما هو إلا أن أمر عارف باشا بالطائر أن يعهد لفريق من
العلماء الراسخين في العلم ، ليرى كيف يفصح هذا الطائر الأعجم البيان
إذا ما تعلم نطق الكلام .

وانقسم العلماء جماعتين ، جماعة تعد القفص ، وأخرى تجمع الكتب
والدفاتر والأقلام والمحابر ...

ومضت سنون ...

قال الراوى :

وبينا كان عارف باشا ذات يوم يتحصى أقذاح القهوة مع نفر
من أصدقائه ، ويققه انكاثهم قهقهة عالية تهز بطنه وترج صدغيه ، إذا
به يذكر فجأة أنه كان منذ أعوام قد عهد ببيغائه إلى جماعة من العلماء
يعلمونه الكلام ليفصح البيان ، فأمر من فوره بعربة تعد وخيل تشد
ليزور البيغاء ومعلميه .

وجلجلت العربة بعجلاتها ، وصلصت الجياد أجراسها ، ووصل
عارف باشا إلى حيث يريد ، واستقبله المشرفون على تعليم البيغاء
بكل تجلّة واحترام .

— ماذا صنعت بطائري وقد مضت سنون ؟ .

— كل خير يا باشا .

— أروني البيغاء ، هل يفصح البيان ؟ .

وهنا طفق أستاذ يشير ويشرح :

— هذا يامولاى هو القفص الذى أعددناه ، مستدير القاع ،
مدبب القمة ، فى جداره تسعة وتسعون سلكا ، سلك من فضة يجاوره
سلك من ذهب ، وهكذا دواليك على التوالى ، ولو كانت الأسلاك
قد كملت مائة لا طرد معنا هذا التوالى فى أسلاك الفضة والذهب ، وكنا
عندئذ نزل زلة فاحشة ، لأنه يتعذر علينا فى مثل هذه الحالة أن
نعلم أين نجعل للقفص بابه ، إذ تتوالى أسلاك الفضة والذهب أينما
درت مع القفص ، وأين وجهت البصر ، لكننا يامولاى تدبرنا
أمرنا منذ البداية ، ورسمنا طريقنا ، فأحكمتا الرسم والتدبير ، لذلك
جعلنا أسلاك القفص تسعة وتسعين ، فرمينا عصفورين بحجر واحد ،
إذ باركنا القفص بهذا العدد المبارك — وهنا تبسم عارف باشا ليعلن
إعجابه ورضاه — ثم جعلنا بهذا العدد الفردى سلكين من أسلاك
الذهب يتعاقبان فيشيران إلى موضع الباب .

والباب يامولاى قطعة فنية ، فهو يسمح للطائر بالدخول ولا يهيء
له سبيل الخروج ، لأننا لوينا الأسلاك على نحو يجعلها ملساء إذا
مادخلها داخل ، مسننة مدببة تسد على الخارج طريقه إلا إذا مزق
جلده تمزيقاً تسيل منه الدماء .

فأوما عارف باشا برأسه إيماءة الرضا والإعجاب ، وطفق الأستاذ
الشارح يقول :

— وطول القفص وعرضه وارتفاعه كلها قيست قياساً دقيقاً ،
بحيث تتيح للطائر حركات بعينها ولا تتيح له سواها ، فله طائر — مثلاً —

أن يطير قليلا إلى أعلى أو قليلا إلى أسفل ، لكن ليس في مقدوره أن يضرب بجناحيه ويحوم ، وهانحن أولاء قد مددنا له في داخل القفص عند الوسط ثلاثة أسلاك مسنونة لتطمئن قلوبنا أن طائرنا لن يدور بجسده باسطاً جناحيه ، فهذا ما لا نريده له أبداً .

ثم خدعناه ، فعلقنا له في سقف القفص أرجوحة صغيرة ، فيظل يهتز بها طول النهار يمنة ويسرة ، حاسباً أنه يشق أجهاز القضاء ، وهو في حدود قفصه لم يتحول .

وأقمنا على تنظيف القفص خادمين ، وأعددنا للطعام طاهيين ، وخصصنا لضبط الحساب حاسبين ، وأفردنا للتسجيل كاتبين ، فاتفقت منا يامولاي صغيرة ولا كبيرة ، نعرف كم أنفقنا من المال ، وأين انصرف ذلك المال مليا مليا ، ونسجل كم رقة للجناح الايمن ، وكم للجناح الايسر ، ومتى تحركت ساقه اليمنى ، ومتى تحركت ساقه اليسرى كل ذلك عندنا مقيد مسجل ، نضبط حسابه بالارقام ، يقوم على ضبط الحساب حاسب ، ثم يقوم على ضبطه مرة أخرى حاسب آخر ، وبعدئذ يقوم على الحاسبين مراجع ، وعلى المراجع مراجع .

سل يا مولاي ماشئت عن البيضاء خلال هذه السنين ، نجبك الجواب اليقين ، سل أين كان في اليوم الاول من يناير منذ عامين ، أجبك على الفور أنه كان عندئذ من القاع على بعد قدمين ، سل ماذا أكل يوم الاثنين ، أجبك على الفور أن الوجبة قسمت له يومئذ وجبتين ، أكل في كل وجبة منها فولتين .

ويقوم على الطائر طبيب معالج يرعاه كلها ألم به المرض ، على شرط

أن يكون المرض مما يعالج ، أما إن تحطم له جناح أوفقت له عين فما لنا بمثل ذلك حيلة .

وبعدئذ يا مولاي ، بعد أن أعددتنا القفص كل هذا الإعداد المحكم المتين ، راح منا فريق يجمع للطائر ما يلزمه من الكتب والدفاتر والمحابر والمساطر ، وانقسم هذا الفريق جماعات : فجماعة تأتي له بالكتب التي بها يرطن ، وجماعة تأتي له بالكتب التي بها يعد ويحسب ، جماعة تستعيد له ما كتب الأقدمون ، وأخرى تجمع له ما أنتج المعاصرون ، حتى تجمعت لنا بذلك يا مولاي أكداً ثمينة رصصناها على الرفوف رصاً أنيقاً ، وحفظناها في المخازن حفظاً أميناً ، تخرج منها الكتب بحساب ، وتدخل إليها بحساب ...

فهتف عارف باشا هتفة اطمئنان : « برافو ! برافو ! حسبي هذا فامضوا على بركة الله ، فما ضاع مالي عبثاً » .

وعاد فركب العربية التي جلبت بعجلاتها ، تجرها الجياد التي صلصلت بأجراسها ، حتى إذا ما اطمأن في داره إلى مجلسه ، وحف به الأصدقاء ، راح يروي لهم ويحكى ، فالقفص كله الأغيب ، والمدرسة كلها أعاجيب ، والمعلمون علماء ، والموظفون أكفاء ...

وسأله سائل عديم الذوق لا يحسن اختيار مواضع الكلام : « ولم تعلم البيغاء يا مولاي من فصاحة البيان ؟ » .

... نصاح عارف باشا صيحة من ذكر لتوه شيئاً نسيه : « البيغاء ! والله لقد نسيت البيغاء ! ... » .

درع من ذهب

هذا خطاب كتبه كاتبه ثم ألقاه على مائدة صغيرة إلى جوار مخدعه وأخذته العلة فألزمته الفراش حيناً ، وهو أعزب اختلطت في غرفته زجاجات الدواء بالفراجين والأمشاط ، وانتشرت كتبه وجواربه وأوراقه ومناديله على الأرض والمقاعد .

ولما عدته في مرضه ، وقع بصرى على الخطاب منشوراً ، يستوقف النظر بأسطره المائلة وخطه المنفوش ، فلم أملك أن أنظر فيه إلى كلمة هنا وكلمة هناك . ولحظ ذلك صديقي ، فقال : إقرأه ، فما فيه سر مكتوم ، بل هو خطاب مفتوح مكشوف ، أردت به فتاة بعينها ، لكنني أراها تمثل طائفة من بنات جنسها . فأمسكت بالخطاب وقرأت :

عزيزتى . . .

هل كتب الله على هذه الدنيا أن تكون ناقصة شائئة إلى الأبد ، لا تعرف الكمال إلا أملاً يتردد في بعض الرؤوس ؟ تالله يا عزيزتى ما رأيت شيئاً إلا همست لنفسى : « آه لو كان . . . » . حتى أنت ! كنت قبل اليوم سيدة الدار وخادمتها فى آن معاً ، حين كنت تطهين وتخلصين وتكنسين ، حتى إذا ما أقبل زوجك مع الظهيرة ، وجد الدار نظيفة مرتبة والطعام معداً شيئاً ، ووجد زوجته باسمته

ابتسامه من لا تعرف حتماً في راحة البال وطمأنينة الضمير إلا لمن قام
بواجبه كاملاً ، فقد كان هذا الضرب من الجمال في رأيك هو
معنى الجمال .

لكن وسوس لك الشيطان أن النافع لا يكون جميلاً ، والجميل
لا يكون نافعا ، فقال لك فيما قال : أرأيت إلى هذا التمثال القائم في
ركن الغرفة ؟ إنه لا ينفع لكنه جميل ، وهل رأيت هذا البساط وما
انتثر فوقه من طنافس ؟ إنه لا يستخدم في رقاد أو جلوس لكنه
جميل ، وثوبك هذا البديع ؟ لقد تكدست على جنبيه وفوق ظهره
من طيات بعضها فوق بعض ما يكفي وحده لكساء فقيرتين من بنات
جنسك ، إن هذه الثنايا في ثوبك والحنايا لم تخلق لتأقي بطراوة الهواء
في الصيف ، أو لتدفع عنك برد الشتاء . إنها لا تنفع ولكنها
جميلة ! . . وهكذا راح الشيطان يوسوس لك حتى دب وسواسه
منك في مجرى الدماء ، فصحت لنفسك : ويح لي ! ألا تكون المرأة
كذاك جميلة بمقدار ما يقل نفعها ؟ ! والله لا طهي بعد اليوم ولا كنس
ولا غسل ولا ولادة ولا رضاعة « ولا يحزنون » . . . سأكون
جميلة منذ اليوم !

لكنك يا عزيزتي كنت جميلة قبل اليوم ، ولم تبق لنفسك من
الفتنة شيئاً بعد هذا الذي اعتزمته من هجر ما تنفعين فيه . . أصبحت
دمية لا غناء فيها ولا جمال ، وأضلك الشيطان ضلالاً بعيداً وأنت
لا تشعرين ، فالجميل يأسدني هو النافع ، والنافع هو الجميل .

حتى هذا التمثال القائم في ركن الغرفة ، جميل لانه نافع ، وهو

نافع لان إدمان النظر فيه وفي أمثاله من آيات الفنون ، يهذب الحس تهذيباً حتى ليجزع إن وقع بعد ذلك على قدر أو قبيح ، ولو رأيت القاهرة ملأى بما تنفر منه العيون والاسماع ، ولا تجددين في الناس إزاء هذا كله إلا حساً بليداً لا يجزع ولا يشور ، فما ذاك ياسيدتي إلا لان هؤلاء الناس لا تقع أبصارهم على مثل هذا التمثال الجميل !

أتعلمين لماذا تكون الذراع التي طولها كذا أجمل الاذرعة ، والخصر الذي قطره كذا أبدع الخصور ؟ أتعلمين لماذا لا ينبغي للفتاة الجميلة أن تقصر أو تطول ؟ كل ذلك ياسيدتي أساسه المنفعة ! فالذراع التي طولها كذا أقدر على الحركة السهلة المناسبة الكاملة منها لو أصابها طول أو قصر ، وكذلك الخصر ، وكذلك القد ، وكذلك كل شيء .

لقد قال قائل لن أذكرك اسمك ، لانك — فيما اعتقد — تسكرهين أسماء الفلاسفة والعلماء ، قال : إن وعاء القمامة أجمل عندى من درع الذهب ، لان وعاء القمامة مفيد نافع يؤدى الغاية التي صنع من أجلها ، ودرع الذهب يؤدى بحامله في حومة الوغى إلى هاوية الهلاك ! ماذا أنت قائلة ياسيدتي في جندى يتقى الحراب بدرع من ذهب ؟ ! ألا يكون الدرع في عينك عنذئذ قبيحاً بغضاً مع أنه في أسواق السلع نفيس ثمين ؟ ذلك لان الجمال في النفع ، فالجميل هو النافع والنافع هو الجميل

كلا ، لا تنصتى إلى الشيطان فيما يوسوس لك ! وكوفى في بيتك درعا من صلب أو حديد ، تستعبدى جمالك المفقود

إنى ليعجبني ذلك الرجل الهمجى الذى سأله رحالة أوروبى عن

زوجاته أين أروع جمالا؟ فقال: جمال، ماذا تريد بهذه الكلمة؟
كل ما أعرفه هو أن فلانة أقدر على حمل الاثقال من فلانة، وهذه
أبرع في الطهي من تلك... أذلك ما أردت بالجمال ياسيدي؟
وضحك الاوروبي الرحالة لجهل الهمجي بالجمال، وراح يكتب
مذكراته لينشرها في الناس فيضحكهم من هذا الذي لم يعرف معنى الجمال
وقرأت أنا هذه المذكرات، وضحكت مع الضاحكين، لكنني
ختمت الضحك بقولي: والله لقد أصاب،



فرغت من قراءة الخطاب ونظرت إلى صديقي المريض باسماء
سائلا:

— أفي ظنك أن النساء كلهن هذه الفتاة؟

فقال: كلا، فهن مختلفات

وراح صديقي يتمم بقصيدة من الشعر اليوناني القديم وعنوانها
« بعض النساء »:

جعل الله عند الخلق طبائع النساء مختلفات.

فجاءت إحداهن كأنما أخرجها الله من خنزير

يسرح بنوها في الدار في فوضى واضطراب

وتراهم طرحى على الأرض يتمرغون في ألوان من القدر متباينات

بيننا تراها في أقذارها وثوبها المتهدل.

تمرح كالخنازير في حظائرهما، وتزداد شحما على شحم



وأخرى كأنما هي الكلبة حركة ونشاطاً .
يشوقها أن تسمع كل شيء وتكشف عن كل خافية .
تجوس أرجاء المكان فاحصة متطلعة
فإن لم تجد شيئاً أطلقت بالسوء لسانها
ولا يجدى فيها وعيد زوجها
كلا ولا يسكتها الغضب ، ولا حجر يلقي فيحطم أسنانها
ولا تنفع معها كلبة طيبة ولا مسح بكف عطوف
إنها حتى وهي في ضيافة غيرها
تظل كالكلبة في صياحها ونباحها

* * *

وصاغت آلهة السماء من تراب الأرض امرأة
قدمتها - على نقصها - للرجل زوجة
يعوزها العلم ، فلا خيراً عرفت ولا شراً
ولا تعرف من واجباتها شيئاً سوى أن تملأ جوفها
إن قرصها برد الشتاء فارتعشت
فلا تزحزح نفسها نحو النار تصطلي

* * *

وأخرى خلقت كالبحر ذات طبعين
فيوما تراها مشرقة ضحوكا
إن رآها في دارها غريب لم يدخر ثناء
قائلاً : ليس على وجه الأرض مثلاً ظرفاً وسناء

ويوماً تعبس فلا تقوى على الدنو منها والنظر إليها
فكأنما مسها عندئذ مس من جنون
غضوب كما تكون الكلبة مع جرائها
حقود تصيب نغمتها الناس جميعاً على السواء
كأنها حجر يتعثر به الأصدقاء والأعداء
ولكنها كالبحر قد تسكن في هدوء رحيم
كالبحر في الصيف ، هو الملاحين بهجة للناظرين
ثم قد ينقلب السكون إلى جنون
فيدوى بموجه دوى الرعود



وأخرى تراها نحلة في دارها ، فطوبى لزوجها
أن تقع العين فيها على عيب يعاب
فهي تجعل الحياة منتجة خصيبة
وتنجب من بنيتها كل مجيد نبيل
حتى تبلغ الشيخوخة في حب زوجها
وتزداد على مر الأيام طيب أحواله بين لداتها
ويفيض عليها الله من بركاته الطيبات
إنها لا تجد متعة في المكث بين النساء
حين يتحدثن في الحب ولقاء الرجال
مثل هذه المرأة نعمة من الله لزوجها
وهي بين الزوجات أكثرهن فضلاً وحكمة

صافحت صديقي قائلا :

— أأنت واضع هذه الرسالة في غلاف لأرسلها نيابة

عنيك بالبريد ؟

فأجاب :

— أرسلها كيف شئت وإلى من تشاء ، ولست أحب

أن أقع فريسة لفتياتنا الأنيقات الرشيقات . فقل عن رسالتي

إنها أخلاط محموم .

من طبائع الناس

من أعجب ما يستوقف النظر من طبائع الناس حبهم الشديد أن تنزل بهم المصائب الخفيفة ، كأنما يريد الإنسان أن يكون بمصائبه موضع عطف الآخرين ، فما أشد فرحة الإنسان حين يصيبه وجع خفيف في ضرسه ، تراه عندئذ يضع إصبعه على صدغه آنا بعد أن ليستوثق أن الوجع لم يزل هناك ، والكارثة الحقيقية عنده أن ينزل به الوجع ثم يزول دون أن يراه أحد من آله أو أصدقائه ، والأفضل عند المرء إذا ما سئل كيف صحته أن يقول إنها ليست على أكمل حالاتها ، فهو يشكو من عسر في الهضم أو صداع في الرأس ، وما أجمل عنده أن يزوره الزائر مصادفة فيلقاه في فراشه عليلا ، على أن الإنسان في كل ذلك لا يريد أن يجاوز به الوجع أو المرض حدا معقولا ، يعرضه على الناس ، دون أن يعرضه للخطر .

إنى مازلت أذكر يوم أعلنت هذه الحرب الأخيرة ، وكنت ساعثا أجالس بعض الأصدقاء في مقهى ، فلا تسلم كما هتزت قلوب الناس من نشوة الفرح ، وكم تهلت الأسارير وعلت قهقهات الضاحكين ، ولم يكذب استقرار من الحاضرين رجلا واحدا على كرسيه الخشبي واحدة ، فهو يدور ويتألف ويرفع كفه بالتحية ويصيح ويضح ويأط ويحرك قدميه ويخطب المنضدة أمامه بغير موجب ... قليلون

هم جداً أولئك الذين يحزنون لسوء النتائج قبل وقوعها ، وقد كنت
أظن ذلك الفرح بالحرب عند أول إعلانها لايقع مثيله في الأمم
المحاربة فعلاً ، وكم دهشت حين أخذت سيدة انجليزية في نحو الستين
من عمرها تقص على بعض ذكرياتها عن الحرب العالمية الأولى ،
فراحت تلاحظ على قومها نفس الذي رأيته في قومي : هزة من
الفرح كادت تشمل الناس أجمعين ، ثم ألم نبداً قتالنا في فلسطين منذ
قريب ؟ ألم تكن رنة الفرع ذائعة شائعة على ألسنة الناس وفي
قلوبهم في أولى أيام القتال ؟ ... هذه طبيعة الإنسان إزاء المصائب إذا
لم يتبين بعد فداحة نتائجها .

واستمع إلى الناس يتحدثون عن غلاء المعيشة وارتفاع أجور
المساكن ، إنهم ليفرحهم أن يتناقلوا أخبار الغلاء الفاحش . ولطالما
لحظت في كثيرين رغبتهم في إخفاء ما قد سمعوه من أبناء تدل على
انخفاض في السعر أو بجبوحه في العيش ، تسمع الناس يتحدثون عن
أجور المساكن الجديدة فيقولون إن الغرفة الواحدة في العمارة
الفلانية بلغ أجرها عشرة جنيهات ، وإذا قلت لهم مصححاً إن أجر
الغرفة ستة جنيهات فقط ، فكانما قد أسأت إليهم ، لأنك خيبت
آمالهم وأحبطت رجاءهم ، وإني لأذكر جيداً كيف كان الناس يتمنون
من صميم أفئدتهم - عندما بدأت موجة الغلاء في الارتفاع سنة
١٩٤١ - يتمنون أن تزيد وتزيد ، إن الناس لا يرضيهم أن يكون
المصاب من التفاهة بحيث لا يذكر ، كما أنه لا يرضيهم أن يكون المصاب
من الفداحة بحيث لا يحتمل ، لكن لا يكون ذلك إلا بعد ما يعانونه

فعلا من فداحة المصاب الثقيل ، أما قبل ذلك ، عند ما يكون الأمر في مرحلة الكلام والتوقع فهم يرحبون بكل زيادة فيه .

وذلك يذكرني بحالة شبيهة ، عندما كان الضباب يكتنف مدينة

لندن . فإذا كان ضبابا خفيفاً فهو مضايقة للنفوس يغير طائل ، أما

إذا اشتد — كما يحدث أحيانا — بحيث لاتستطيع رؤية قدميك ،

عندئذ ينقلب الضيق عند الناس فرجا ، ويأخذون في التعليق على هذه

الحالة الفظيعة من حالات الجو — هي فظيعة باللفظ ، لكنها محببة إلى

نفوسهم مقربة إلى قلوبهم — ويحلو للناس عندئذ أن يتذاكروا

ما يحدث في أمثال هذا اليوم من حوادث ، فقد حدث في عام كذا

أن اصطدمت سيارات في الطريق ومات ناس . وحدث في عام

كيت أن ارتطمت سفن في صخور الشاطئ وغرق ناس ...

وانظر إلى الناس في القاهرة إذا نزل المطر ، أنظر إلى الأطفال

كم يزأطون وكيف يمرحون ، وانفذ إلى أعماق نفوس الكبار ! تر

المطر الخفيف يضايقهم ، فإذا ما أخذ المطر يشتد سقوطاً ، لمحت لديهم

رغبة أكيدة في أن يظل على ازدياد شدته ، ليصبح لهم حدثاً يتحدثون

فيه يوماً أو يومين .

وأذكر أنني قرأت مرة مقالا لسيده كاتبة ، تقول فيه إنها كانت

تسافر في قطار عبر الولايات المتحدة — أو عبر كندا لا أذكر —

وإن القطار تعطل عن المسير أياما بسبب ماتراكم عليه وفي طريقه من

الثلج ، وتعذرت كل وسائل الاتصال بينهم وبين العمران ، وأخذ

الطعام يقل في أيديهم شيئا فشيئا ، تقول الكاتبة إنها توقعات أن تري

على وجوه الناس علائم الحزن لهذا الخمار الداهم ، فما كان أشد دهشتها حين رأت عكس ذلك ، رأتهم فرحين بهذه الورطة التي هم فيها ، بل رأتهم كأنما يتمنون في أعماق نفوسهم أن تزداد الورطة شدة بنفاد الطعام جملة واحدة ليروا ماذا يكون بعدئذ .. هذه طبيعة الانسان ، مهما تكن بعيدة عن العقل والمنطق ،

بل إن لها لعة عند العقل والمنطق ، فالانسان يحب للحادث الغريب يكسر به ملل الحياة و « روتينها » الرتيب ،، إننى - فى الحق - كلما فكرت كيف يتشابه يومى وأمسى ، عجبت لى نفسى كيف أطيق هذه الحياة ، ولعانى فى ذلك خير حالا من ألوف سواى ، كثيرا جداً ما أنظر بعين العطف والإشفاف للكسارى فى الترام ، أسأل نفسى : أيا ظل هذا المسكين ثلاثين أو أربعين عاما على هذا النحو ، يأخذ من الناس ملائمتهم ويعطيهم تذكراتهم ؟ ثم أقلب الطرف فأرى الناس كلهم تقريبا على هذا المنوال المملول الرتيب ، مهما تنوعت أعمالهم . . . هذه الحياة المتشابهة المملة ، ترحب بالحادث الغريب الذى يكون حدثا يطلق الألسنة بالتعليق والكلام ، وكلما كانت الحادثة أشد غرابة عن المؤلف ، كانت أحب إلى نفسك ، وكثيراً ما يضيف الإنسان بخياله إلى الحادثة الواقعة أشياء تجعلها أغرب ، ليجعلها أطرف فى الحديث ؛ فلو أصيب الإنسان بأرق - مثلا - ولم ينم من ليله إلا ثلاث ساعات ، جعل الثلاث الساعات فى حديثه ساعة واحدة ؛ ولو سقطت قبلة فهزت النوافذ ، جعل الاهتزاز فى حديثه للناس تحطيا وتهشيا ، وهكذا ... والمحور فى ذلك كله أن يجد

ما يقال بحيث يحدث عنده وعند الناس شيئا من تغيير صور الحياة
المكرورة المعادة .

هذه الحوادث الكريهة في ذاتها ، محبة لاستشارتها لنفوس الناس
التي أخذها ملل الحياة — كما قلت — وغنى عن البيان أن الاستشارة
تكون أمتع لو كانت الحادثة الغريبة التي أحدثتها لذينة في ذاتها ، كأن
تكسب ورقة النصيب ، ، أو تسبق في لعب أو سباق .

وهنا لك علة أخرى تجعل المصائب محبة إلى الناس بحكم فطرتهم
وتلك أنها توحد بين الناس في شعور واحد ، والناس ينشدون هذه
المشاطرة والمشاركة في وجدان واحد ، لأنها تكون لأفراد المجتمع
بمثابة الملاط الذي يمسك لبنات البناء ، هذه المشاطرة الوجدانية بين
الناس لذينة الوقع في النفوس مهما يكن الباعث لها ، فالمطر إذا اشتد
حتى زاد على المألوف ، والضباب إذا تكشف حتى حجب الضياء ، وما
إلى ذلك من أمور ، يتהלل لها الناس بشرا ، لأنها ستكون موضوعا
للحديث مشتركاً بينهم جميعا .

وكم في تقاليد المجتمع من حكمة تخفى على النظرة العابرة السريعة ،
فالأعياد والمواسم وأيام العطلة الدورية لهذا السبب أو ذاك ، أساسها
أن تهيئ للناس فرصة مشتركة تشيع في أنفسهم وجدانا واحداً ، فضلاً
عما تهيئه لهم من تغيير في مجرى الحياة الرتيب

القصد فى القول والعمل

الظاهر أن المبالغة فى القول والتهويل فى الوصف من أوضح ما يميز انحطاط الثقافة عند القائل ، وبين قلة حظه من المدنية والتهذيب وأنه كلها أمسك المتكلم بزمام التمول فلا يسرف ولا يغالى ، كان ذلك دليلاً على وفرة نصيبه من الثقافة والمدنية ، وقل مثل ذلك فى الأمم المختلفة والعصور التاريخية المتتابعة ، فالأمة المتأخرة تشيع المبالغة والتهويل فى أدبها وكلام أفرادها ، وأما الأمة الراقية فتراعى التقصد فى القول وعدم المبالغة فى الوصف ، وكذلك ترى الظاهرة الأولى جلية فى عصور الجاهلية ، بينما تلاحظ الثانية فى عصور الحضارة واضحة بيّنة .

إنه لمن أعسر الأمور على الأديب الهزيل أو الفنان الضعيف أن يتنعم بالأمور كما يألفها الناس فى الحياة الجارية الواقعة ، فالتسل على يديه يصبح جبلاً شامخاً ، والفقر عنده لا بد أن يكون « مدقعا » ويستحيل ألا يكون حر الصيف « لاحقاً » وبرد الشتاء « قارصاً » ، لو كان موضوعه معركة فهى « حامية » والجيش فيها « جرار » والدماء لا يمكن أن تتناثر قطرات ، بل لابد لها أن « تسيل أنهاراً » ، والظلم عنده دائماً « فادح » وجمال أية فتاة تصادفه « رائع فتان » !! والأديب القدير وحده هو الذى يلجم القلم . حتى لا ينقلب التل

على سنانة جبلا ، ولا القطرة الواحدة مدرارا ! والعجيب أن التزام الواقع أو ما يقرب منه مستحيل على غير الأديب البارع ، مع أن هذا الواقع مائل أمام العاجز كما هو مائل أمام القادر سواء بسواء ، بل أعجب من هذا أن الأديب الضعيف إن أخذ نفسه بوصف الواقع لا يعدوه ، جاء وصفه ماسخا بائنا مبتذلا ذميا ، لأنه لا يجد في طبيعته ما يهديه إلى اختيار العناصر التي يجوز إثباتها في وصفه وترك العناصر التي لا يحسن إثباتها ، فنحن إذ نقول إن الأديب الفحل وحده هو الذي يلجم قلبه بحيث يقف عند المألوف المعهود ، فلا يهول ولا يسرف ، لا يفوتنا أنه لا يأخذ هذا الواقع جملة وتفصيلا ، لكنه يختار هذا العنصر ويترك ذاك ، فإذا الصورة في النهاية رائعة تستثير الإعجاب .

ومن الشواهد الجميلة التي أذكرها من الأدب الإنجليزي في هذا الصدد ، ما حدث حين انتصر « مولبرا » في موقعة بلنهم (سنة ١٧٠٤) فأخذ الشعراء الانجليز عندئذ ينظمون القصائد في مدحه ، والإشادة بنصره ، ولكن التوفيق الفنى أخطأهم جميعا ، لأنهم أخذوا يمتدحون في « مولبرا » أنه صبغ الأنهار وخضب السهول بدماء الأعداء ، فلم يصادف هذا القول وأشباهه قبلا عند نقدة الشعر ، وأحس الناس أن هذه الواقعة الفاصلة ينبغي أن تلمس سيدها إلى الخلود عن طريق الشعر الرفيع ، لذا لجأ بعض الوزراء إلى شاعر فذ هو « أدسن » وطلبوا إليه أن يجود بقصيدة من شعره الخالد في « مولبرا » اعترافا بفضله ، ففعل ، وصادف عند النقاد كل إعجاب

وأشد ما أثار إعجابهم قوله عن «مولبرا» إنه كان رزيناً هادئاً
يدبر في روية والعاصفة من حوله قاصفة ، إنه لم يقل ما قاله سواه
من أنه كان يرمى الرمح فيحصد الأعناق ، وإنه كان وحده يسوق
أمامه ألوف الرجال ويصبغ الأرض بالدماء لأن هذه صور كلها
زائفة مغالية مسرفة ، والتصوير الصحيح الصادق هو أنه امتاز
بتدبيره الهادىء ، وضبطه لأعصابه ، في يوم كانت الدنيا ترتج فيه
من حوله .

ولا تقتصر المبالغة والتهويل على الكلام والأدب عند من
تأخرت منزلته في المدنية والثقافة والتهذيب ، بل إنهما ليظهران
في مظاهر شتى ، ترتبط كلها بسبب من التشابه بحيث ترتد إلى أصل
واحد ، فالجاهل المتأخر يبالغ في طعامه وشرابه ، والمتحضر المذهب
يراعى القصد فيهما ، الأكلة الطيبة عند صاحب الذوق الخشن الغليظ
هى التى يتخم فيها بحيث لا يقوى على حركة أو نشاط ، وإن شرب
خمرأ ، الشراب عنده لا يكون جديراً باسمه إلا إن سكر وغاب عن
وعيه ، وترى هذا الصنف من الناس يفاخر بعضهم بعضاً بكثرة
ما يشتري وما يأكل من طعام ، ولكم سمعنا في الريف كيف
يمدح الرجل بانه لا يشتري البطيخ إلا حملاً كاملاً ، ولا القصب
إلا «لبشة لبشة» . . . وإنه لترد على خاطرى الآن ملاحظة
غاية في الطرافة لست أذكر أين وقعت عليها ، وهى أن اهتداء الإنسان
لتقسيم طعام يومه على ثلاث وجبات ، لم يأت إلا بعد أن سار
في المدنية شوطاً بعيداً ، أما الهمج البدائيون — شأنهم في ذلك

شأن الحيوان - فقد كانوا يأكلون وجبة ضخمة حيناً بعد حين ،
كلها صادفهم طعام ، وكانوا لا يعرفون مبدأ الاحتفاظ بالطعام إلى
مستقبل قريب أو بعيد ، وعلى ذلك فإن الشعوب التي تركز طعامها في
وجبة واحدة في النهار ، يغلب أن تكون متأخرة بالنسبة للشعوب
التي تجزئ الطعام بين وجبات ثلاث ، ولعل الأساس في هذا هو
المبالغة عند فريق والقصد والاعتدال عند فريق آخر ، فالذي طبع
على المغالاة والإسراف ، لا يستطيع أن يكف عن الطعام
مادام أمامه بقية من طعام ، والذي نشأ على القصد
والاعتدال ، يسهل عليه ترك المائدة على شبع خفيف هو بين
الخلاء والامتلاء .

ومن ظواهر المبالغة عند المتأخر ، والقصد عند من حسن حفظه
من التهذيب ، طريقة كل منهما في التعبير عن عواطفه على اختلافها
غضباً كانت أو حزناً أو سروراً ، فالهمجي اذا غضب يثور ويفور
ويضرب ويركل وقد يقتل ، أما المذهب اذا غضب فيكاد لا يبدو عليه
الا القليل من نجهم ، فهو يملك زمام نفسه حتى يتولى القضاء الأمر
اذا دعت الحال الى ذلك ، والهمجي اذا حزن ولول ومزق ثيابه وتمرغ
في التراب وأرسل لحيته وأبى على نفسه النظافة الى آخر ما نشاهده
بأعيننا في بعض الطبقات عندنا - وخصوصاً النساء ، وأما المذهب
اذا حزن جاء تعبيره عن حزنه صامتاً هادئاً ، والهمجي اذا فرح
ضحك في قهقهة عالية ترج الهواء رجاً ، على حين تكفي المذهب
ابتسامة أو ضحكة في حدود الاعتدال ، والمآثم والأفراح مازالت

قائمة بيننا لسانا ناطقا بما يتصف به بعضنا من إسراف في الحزن والفرح على السواء .

وظواهر المبالغة والافراط التي تتم عن حوشية الطبع وخشونة الذوق عند صاحبها ، لا تنتهى إذا أردت لها حصرا وعدا ، فالهمجي يبالغ في الألوان الفاقعة الناصعة ، حتى لتعرف مقدار حظ الرجل من التشقيف والتهديب والتمدن بألوان ثيابه ، فإن كانت زاعقة صارخة فالأرجح جدا أن يكون حظه من ذلك كله قليلا أو معدوما ، وكذلك قل في زينة المرأة ، فكل امرأة تصبغ وجهها ، لكن ما كل امرأة تعرف أين تقف في صبغها لوجهها حتى لا تتجاوز هدوء الألوان الذي يرتضيه ويتمتضيه الذوق المذهب السليم ، وإني لأذكر بهذه المناسبة أنى زرت معرضاً للفن مع صديق لا يكاد يظفر بشيء من الذوق المرفه ، ولم يزر معرض الفن إلا لأنه كان يصحبني وخجل أن يعتذر ، ووقفنا عند صورة امرأة بالغ الرسام في أحمر خديها وكل عينيها ، وبالطبع قد بالغ في ذلك عمدا ليعين كيف تقبح المرأة - على الرغم من جمال قسماتها - إن هي أفرطت في الزينة إفراطا يمجح الحس الرقيق ، ونظر صاحبي إلى الصورة قائلاً : ما أجملها ! فقلت : بل ما أقبحها ! ولتعلم أن الفنان قد ضاع جهده عبثا إذا كانت هذه الصورة لم تبعث في نفسك التقزز والنفور .

وقل ذلك أيضا في ارتفاع الصوت عند الحديث ، الهمجي المتأخر يبالغ في ارتفاع صوته بغير حاجة منه إلى ذلك ، لأن من يتحدث إليه قد يكون على بعد قدم واحدة منه ، وإن شئت فادخل مكانا

يجتمع فيه فريق من الطبقات الدنيا التي لم تصب من التهذيب شيئاً ،
واسمع ما يملأ المكان من ضجيج وعجيج قد يستحيل معهما أن تسمع
صوت من يحدثك ، إنه ليعجبني من « شوبنهاور » قوله : إن احتمال
الأصوات العالية مقياس دقيق لدرجة المدنية ، بل مقياس دقيق لمدى
العبقرية في الانسان ، فكما ازدادت بطبعك اضطراباً بالأصوات العالية
كنت أعلى منزلة في درجات النبوغ ، وإني لأسأل نفسي : لو كان
هذا صحيحاً ، فأين نضع القاهرة وأهلها في سلم الحضارة الانسانية ،
هذه المدينة التي قيل إنها أصخب مكان على وجه الأرض بغير استثناء
ومعظم الناس لا يشعرون !!

المبالغة في كل شيء علامة لا تخطيء على الضعف العقلي عند من
يبالغ : المبالغة في قلقك على صحتك وفي جعلها محورا لحديثك مع
الناس ، المبالغة في مقدار ما تشتريه لنفسك من ثياب ومن أثاث ، مبالغة
الآفة في الألقاب ، المبالغة في التزمت والتشبث بعقيدة أيا كانت ،
المبالغة في صقل اللفظ إن كنت كاتباً ، إلى آخر هذه الأمثلة التي
لا حصر لها ولا عدد .

وأنت مذهب مثقف متمدن سليم الذوق بمقدار ما تلجم هذا
الجموح من نفسك .

الرأس والساعد

بين الرأس والساعد ، بين الفكر والعمل ، بين العقل والبدن ، بين الذين يفكرون والذين يعملون ، صراع طويل عنيف على العلبة والساخطان : فلن تكون الكلمة العليا ؟ أنلقى بزمامنا في أيدي أصحاب الآراء النظرية والأفكار المجردة ، أم نجعل السيادة للعاملين بالأيدي والسواعد ؟ .

فقد التقيت منذ أيام بشاب استوقفني في الطريق منادياً باسمي ، وذكرني بنفسه ، فإذا هو تلميذ قديم من تلاميذي ، وسألته كيف دنياه ، فأجابني بعد أن مطأ شفتيه وهز كتفيه بما دل على أنه قلق في حياته : أنا أشتغل بالمحامة ، وليست الحال كما قد كنت أتمنى لنفسى ، فلا أكسب من عملي ما يكسبه سائق السيارة . . . وهكذا انقلبت الأوضاع . . .

فقلت : وكان ينبغي للأوضاع أن تنقلب يا صديقي ، فقد مضى لزمان وانقضى ، الذى كان يُزهى فيه صاحب الرأس بنفسه على صاحب الساعد .

فسألنى : ماذا تريد ؟ .

وهنا اقتربنا من المكان الذى كنت أقصد إليه لأشرب الشاي ، فدعوته ، وجلسنا نصف ساعة ، كنت فيها متكهماً وكان منصتاً :

كان « الكلام » ياصديق في القرون الماضية كلها هو صاحب السلطان على « العمل » ، ولا تزال هذه الحال — ولن تزال — قرينة التأخر في الأمم .

كان « الكاهن » في العصور القديمة أمراً مطاعاً ، بل كان سيداً مخوفاً مهيباً ، لا لأنه يزرع الأرض وينتج الغلة للناس يأكلون ، بل لأنه يعرف كيف « يتكلم » فينفث السحر بكلامه ، فقد كان يظن أن « الكلام » وحده ينحدر من شفقي كاهن . كفيل بإنزال المطر من السماء ، والظفر بالنصر على الأعداء ، وبكل شيء مما قد يعوز الفرد أو تحتاج إليه الدولة .

ولبثت الحال كذلك مع تغير في نوع « الكلام » الذي يكتب لصاحبه السيادة والسلطان ، فللخطيب في الأمم المتأخرة شأن أي شأن ، مع أنه لا يحمل في جعبته إلا « كلاماً » ! وانظر إلى التاريخ ، تر الأمم كلها في بدايات أشواطها ، تفسح مجالاً أسمى للخطباء المصاقع هكذا كان العرب في جاهليتهم ، وهكذا كان اليونان ، حتى لقد تراحم الشبان الأغنياء في يونان القديمة على معلى الخطابة يتعلمون عنهم صناعة الكلام ، لما رأوا أن الكلام وحده ضمين لصاحبه أن يظفر بأكثر الأصوات عند سواد الشعب ، وبالتالي فهو ضمين لصاحبه أن يتبوأ مكان الزعامة ومناصب الحكم ، بل هكذا كانت إنجلترا منذ قرنين ، فسرعان ما كان يبرز الخطيب بين الناس ، فإذا هو النائب في البرلمان وإذا هو الوزير الحاكم بعد حين ، وهكذا كانت فرنسا كذلك أيام ثورتها الكبرى ، ولست بحاجة إلى أن أضيف بلادنا مثلاً آخر ،

فقد اقتضت طبيعة موقفها أيام ثورتها ، أن تجعل زعامتها ، بل حكومتها ،
في أيدي القادرين على الكلام .

والكلام والفكر النظرى قرينان ، فلم يكن السيد الكريم المحتد من
أهل يونان القديمة يرضى لنفسه قط أن يعمل بيده ، وكانت علامة
الشرف أن تكون من أصحاب الفكر الذى لا يقتضى حركة بل
لا يقتضى جسدا على الإطلاق ، ولعل هذه التفرقة الواضحة بين الفكر
والعمل ، فرع عن مفاضلة الناس بين الروح والبدن ، فالروح (أو
العقل) وما يتفرع عنه من فكر أو عقيدة ، أسمى منزلة وأطهر وأنقى
من البدن وما يتعاق به ، كان الفرض دائما أن الروح شريفة بالقياس
إلى البدن الوضيع ، وكان الفرض دائما أنه لولا هذا البدن الشهوانى
النجس ، لارتفع الروح إلى معارج السماء . . . فلزم عن ذلك كاه أن
يكون المفكر بعقله أسمى مقاما وأرفع مكانا من العامل بجسده ، فأين
أين الزارع الذى يفلح الأرض ممن يبرهن بعقله أن المربع المنشأ
على وتر المثلث القائم الزاوية مساو لمجموع المربعين المنشأين على
الضلعين الآخرين !! ؟

ثم بالغ أهل يونان القديمة فى هذا الاتجاه حتى أسرفوا فيه إسرافا
يستوقف النظر ويستثير العجب ، فاكل علم عندهم بمنزلة سواء ، بل
تفاوتت العلوم نفسها قيمة بمقدار ما تبعد عن كل ما يتصل بحركة الجسد
أثناء بحثها ، ومن هنا كانت الرياضة عندهم أفضل العلوم إطلاقا ، ولذلك
تقدموا فى ميدانها خطوات فسيحة ، بل كاد المفكر عندهم والمشتغل
بالعلوم الرياضية يكونان شيئا واحدا ، فلا فكر إلا الرياضة ، وحتى

إن فكر الرجل في غير الرياضة ، فلا بد أن تكون الرياضة في عمله هي مقياس نجاحه في تفكيره .

وكان لليونان القدماء باع كذلك في الفلك لأن ملاحظة النجوم والتفكير في مسالكها لا يستدعيان منك أن تحرك الجسد أو أن تستعين به ... أما الكيمياء مثلاً ، فقد كان حظها عندهم ضئيلاً هزيباً ، لأنها تقتضى شيئاً من العمل باليدين ، والعمل اليدوى من شأن العبيد ! وإنه لما يذكر في هذا الصدد ، أن أرشميدس الذى نعرفه اليوم بنظريته عن الأجسام الطافية فى الماء ، كان قد مهر فى الميكانيكا ، وكان ابن عمه أميراً على سر قسطة ، فلما هاجم الرومان بلادده ، استعان بابن عمه العالم فى اختراع آلات حرية تساعد على حماية ملكه من الأعداء المهاجمين ، فتلاحظ أن « فلو طرخس » المؤرخ اليونانى ، وهو يؤرخ لأرشميدس ، يعتذر عن اشتغاله بصناعة الآلات ، لأنه يشعر أن مثل هذه الصناعة لم تكن تليق بمثل ذلك الأمير الشريف ، فتراه يلتمس له العذر فى ذلك على أساس أنه اضطر لمعونة ابن عمه الملك ساعة الحار ، فليس بعجيب بعد هذا أن يتصدى فيلسوف اليونان « أفلاطون » لرسم معالم الدولة المثلى ، فإذا الدولة المثلى عنده أن يكون الزراع والصناع فى أسفل القاع من البناء وأن يكون فى قمة الحكم فيلسوف ! لماذا ؟ لأن الزراع والصناع عاملون منتجون ، ولا يعمل بيده فى سبيل الإنتاج إلا الرجل من طبقة العبيد ، أو من يهبط فى إدراكه العقل موطأ لا يفسح له مجالاً بين أولى الأمر فى الدولة ، ولأن الفيلسوف من جهة أخرى هو وحده الذى يستطيع أن

«يسبح» في ملكوت الله و «يشطح» في تأملاته النظرية ، وهذا وذاك من شأن الروح والعقل ، لا يتصلان بالجسد بأى سبب من الأسباب . ويتقدم الزمان بالانسانية — يا صديق — شوطا بعد شوط ، فلا تغير من قديمها إلا بمقدار ضئيل لا تكاد تدركه الأبصار ، كأنما أصرّت ألا تغير من نفسها شيئا إلا بشورة ترجها رجاء ، فهأت ذاتى أعقاب القديم ما زالت عالقة في أذهاننا ، رغم تغير الظروف كلها ، و «انقلاب الأوضاع» كلها — على حد تعبيرك أنت ، لانزال تؤمن في أعماق نفوسنا أن صاحب الدراسة النظرية خير مقاما ممن يعمل بساعديه ، فالمدرسة الثانوية النظرية لانزال أرفع منزلة من مدرسة تعلم الصناعة والزراعة بحيث لا يلجأ إلى هذه إلا من فشل في تلك ، وبحيث يعدها الناشء من الأسرة الكريمة سبة كبرى لحقت به وبأهله وذوى قرابته ، أن يكون واحدا من هؤلاء ، لامن أولئك .

فن البشائر بالخير أن نرى الأوضاع في طريقها إلى الانقلاب ، فالخطة التعليمية الجديدة في العالم المتمدن كله — والحمد لله أن نرى مصر ها هنا قد لحقت بالركب غير مبطنة — تعمل على التسوية التامة بين ضروب المهارة على اختلاف أنواعها ، فما ينبغي لك يا صديق أن تزهى بمهارتك في «الكلام» على سائق السيارة ، وقد مهر هو الآخر ، اسكنه مهر في «العمل» .

بل ماذا أقول ؟ أقول إن من البشائر بالخير أن نرى الأوضاع قد تم بحمد الله انقلابها ، فقامت في انجلترا حكومة «العمال» لا حكومة الفلاسفة التي تمنّاها فيلسوف اليونان القديم ؟

مطلوب إنسان !

من الحقائق النفسية الأولية المعروفة ، أن الانسان إذا شغلت
بأله مشغلة ، كان شديد التنبيه إلى كل ما يتصل بها من قريب أو بعيد ،
فانظر إلى نفسك وأنت مقبل على شراء شيء ، ولنقل مثلاً إنه حذاء .
تجد أيسر المنبهات التي تتصل بما أنت بضدد شرائه كافيّاً لاستشارة
يقظتك ، وسواء أردت أو لم ترد ، شعرت أو لم تشعر ، فإن عينيك
ستتجهان إلى أحذية الناس في الطريق وإلى الأجدية معروضة في
نوافذ الدكاكين ، وإليها مرسومة في إعلانات الصحف .

لكن هذه الحقيقة النفسية الأولية المعروفة وجدت تطبيقها عندى
بالأمس على محور رسم على شفتى ابتسامة ، وذلك أنى صادفت من
أحداث حياتى القريية ما دعانى إلى التفكير فى أخلاق الناس ، كيف
تخدعك ظواهرهم مهما ظننت أنك قد باغت من الخبرة بالحياة أمداً
بهيداً ، وكيف يندر أن تجد بينهم من يحترم نفسه ويحترم الآخرين
بغض النظر عن ارتفاعه وانخفاضهم ، فأخذت الأمر مأخذ الجد
وسألت نفسى : من ذا تعدّه « إنساناً » بمعنى الكلمة الصحيح من بين
من تعرف ، حتى يمكنك أن تحلل خلاله وخصاله تحليلاً يكشف لك
عن حقيقة « الانسان » ؟ . . . وما هو إلا أن جاءنى الخادم بضحيّة
الصباح ، فاشتغلت بقراءتها حيناً ، ثم شامت المصادفة العجيبة أن تقع

عيني على إعلان بها ، عنوانه مطلوب أنسات . . . » فقرأته خطأ
« مطلوب إنسان . . . ! » لسابق اشتغالي بالتفكير في صفات الانسان
الحق، وها هنا عاودت تفكيرى من جديد : أحقا لا يكون بين هؤلاء
الألوف من عباد الله من لا يستحق بجدارة أن يكون « إنسانا » ؟ .
وكان من الطبيعى عندئذ أن ترد على خاطرى قصة ديوجنيس ،
التي لا بد أن يكون كل قارىء قد سمع بها ، ديوجنيس الذى رأوه
في أثينا ممسكا بمصباح وهو يحجوب المدينة ليلا أو نهارا ، حتى إذا
ما سئل : عم تبحث يا ديوجنيس فى ضوء مصباحك ؟ أجاب : أبحث
عن « الانسان » !! إذا فهاذا عسى أن تكون هذه الألوف البشرية
التي تملأ فجاج الأرض وشعابها إن لم تكن ناساً تتصف بصفات
« الانسان » الذى يبحث عنه ديوجنيس ؟ ..! بعبارة أقصر وأوضح :
متى يكون الانسان « إنسانا » ؟ :

بديهى أن الطعام والشراب والنعاس واليقظة والمشي والوقوف
والتنفس والتناسل وما إلى ذلك ، يستحيل وحدها أن تجعل من
الكائن الحى إنساناً ، لأن الكلاب والخنازير لا ينقصها من ذلك شىء ،
بل إنى لأرفض أن يكون التفكير — فاسداً كان أو سليماً — هو
الذى يميز الإنسان من سائر ضروب الحيوان ، فالرجل « المفكر »
قد يبهرك بتفكيره ويروعك بجدة ذكائه ، لكنه لا يستميل قلبك ولا
يستثير حبك ولا يحرك عطفك بتفكيره أو ذكائه ، إقرأ المؤلف فى
علم الرياضة أو الطبيعة أو الطب أو ماشئت من علوم ، إقرأ له ألف
كتاب أفعمت صفحاتها بالفكر المبتكر الجديد ، فستعجب به ، وستهولك

قدرته ، امكنك ان تحبه (ولن تذكره) من أجل فكره ذاك ،
لكن اسمع عن ذلك المفكر المجيد خبراً واحداً ينبئك عن معاملته
الناس بالحسنى يقرب من قلبك الرجل ، ويستثير في نفسك الحب
والعطف ، لأنه بذلك — لا بغيره — يكون إنساناً ، بل ماذا أقول؟
أقول إن الكلب الأعجم يدعوك أحياناً بفعله خير يفعلها ، إلى حبه
بما لا تثيره في نفسك ألف معادلة رياضية يتكرها عالم ؟ ! .

معاملة الناس بالحسنى هي أول ما تبادر إلى ذهني من صفات تجعل من
الآدمي «إنساناً» ، ولا فرق بعد ذلك أكان ذلك الآدمي غنياً أو فقيراً ،
عظيماً أو حقيراً ، متعلماً أو جاهلاً ، وإن فقد الآدمي هذه الصفة
اليسيرة البسيطة كان أقرب إلى الهمجية والبدائية والتوحش مهما ظن
بنفسه ارتفاع الشأن وعلو المنزلة . لكن معاملة الناس بالحسنى صفة
تحتاج إلى شيء من التحديد والتحليل ، فما عسى أن تكون في لها
وصميمها ؟ .

انتهيت بعد التفكير إلى جواب لا أتشبث به ، بل أعرضه على
القارئ اقتراحاً ، لعله يصادف عنده قبولاً ، أو تعديلاً وتصحيحاً ،
وله بالطبع أن يفرضه ليستبدل به ما يراه صواباً فيفيدني به وله عند
الله حسن الجزاء .

انتهيت إلى أن الانسان يكون إنساناً بمقدار ما وهبه الله من قدرة
على ألا ينظر إلى الناس نظرة التاجر إلى سلعه وزبائنه ، وتسألني :
كيف ذلك ؟ فأجيب : إن العلاقة بين البائع وزبائنه هي بعينها العلاقة
التي تربط الإنسان بالأشياء الجامدة ، فأنا مثلاً — أحرص على هذا

المصباح الذى أمامى بمقدار ما يهينى من ضوء أستعين به على القراءة
والكتابة ، وإلا فلن أتردد فى تغييره بما هو أصلح منه ، وكذلك
العلاقة بينى وبين منظارى ، فترانى أمسجه وأنظفه حيناً بعد حين ،
لأنه يعيننى على الابصار ، ولو لم يفعل ، لكان نصيبه من الإهمال
المحقق ، فلا مسح ولا تنظيف ولا عناية ، وهكذا قل فى كل شيء
جامد مما يصادفك فى مجرى حياتك : فى ثيابك وأدواتك وأثاثك
وما إليها ، فلا يربطك بكل هذا إلا رباط المنفعة ، إن نفع الشيء ،
احتفظت به وحرصت عليه ، وإن لم ينفع نبذته نبذاً ، وهى نفسها
العلاقة بين البائع وزبائنه ، فأنت عند البائع مكرم مبجل ما دمت
نافعاً ، حتى إذا ما انتهى عنده نفعك انقضت كل علاقة يدنك ويدينه .
ولعل أبشع جوانب هذه النظرية « السوقية » (نسبة إلى السوق
التي يتم فيها البيع والشراء) هو ما يبدو منها حين تنشأ هذه العلاقة
نفسها بين المرء ونفسه !! أى والله ، إن الإنسان قد يهوى إلى هذه
الهاوية السحيقة ، فيجعل من نفسه لنفسه بائعاً ، وعندئذ يقيس قيمة
نفسه فى نظر نفسه بمقدار ما يراها سلعة صالحة للزواج فى أهل عصره ،
ولا عبرة بعد ذلك أكانت لها قيمة حقيقية ذاتية أم لم يكن !!! نعم
فقد يشق الإنسان نفسه شطرين : بائعاً وسلعة ! فكما يبيع البائع سلعته
لمن يدفع فيها أغلى ثمن ، فكذلك هو يبيع نفسه لمن يشتريها من
الرؤساء أو الحكام أو من شئت من صنوف البشر ! ليس على العامل
الذى يبيع صناعته وثمره مجهوده لوم ولا تثريب ، لكن ماذا أنت
قائل فيمن يصنع نفسه صناعة ، أغنى أنه يشكّلها تشكيلاً على النحو

المطلوب ليرغب فيها الراغبون ؟ ! فإن كان المطلوب أن يكون مضحكا أو بهلواناً ، فما أسرع ما يجعل من نفسه مضحكا أو بهلواناً ليقبل عليه الشارون من ذوى السلطان ، وإن كان المطلوب أن يكون ذا نفس خائفة خاشعة ذليلة ، فما أهون أن يشيع في نفسه الخشوع والخشوع والذل حتى تروج في السوق ! .

وأعود إلى سؤال من جديد لأخص الجواب الذى أتقدم به اقتراحاً : متى يكون الإنسان « إنساناً » بالمعنى الصحيح ؟

يكون كذلك بمقدار ما يبعد عن وزنه لنفسه ولسائر الناس بميزان الجزارين والبقالين ، يكون الإنسان إنساناً ، حين يعرف للإنسانية حقها بغض النظر عن نفعها ، أنظر إلى الجسد البشرى - كائناً ما كان صاحبه - نظرك إلى الشيء المقدس المهيّب ، يكفي أن يكون الكائن الذى أمامك واحداً من البشر ليستوجب احترامك ، بل إجلالك وإكبارك لهذا الذى خلقه الله فسواه وكرمه ، إننا لو قدسنا البشرية في كل فرد من أفرادها ، وضعنا بذلك أرسخ أساس للحرية والإخاء والمساواة بين الناس ، ألا من يبلغ عنى كل مترفع متعظم أننا جميعاً - أعلانا وأسفلنا - على بُعد واحد من الشمس !! ألا من يبلغ عنى كل متجبر متكبر أنه إذا ظن نفسه واقفاً على قمة جبل بالنسبة إلى سائر الناس ، ينظر إليهم فيراهم في عينيه صغاراً ضئلاً ، فهؤلاء الناس كذلك ينظرون إليه من بطن واديهم ، فإذا هو أيضاً في أعينهم صغيراً ضئيلاً ، لأن المسافة بينهم وبينه كالمسافة بينه وبينهم .

يكون الإنسان « إنساناً » بمقدار ما يرى في كل فرد من الناس

غاية مقصودة لذاتها ، لا وسيلة تخدم غاياته وأغراضه ، أما إذا سارت العلاقات بين الناس وفق القواعد التي تتحكم في عمليات البيع والشراء . أما إذا نظر الناس بعضهم إلى بعض نظرهم إلى الأدوات التي تستغل ثم تنبذ وترمى بعد الفراغ من نفعها ووجه استغلالها ، فلن يجد ديوجينيس « الإنسان » الذي ينشده ولو بحث عنه بألف مصباح ، وسيظل المتعجلون مثلي في قراءة الصحف ، يخائمون فيقراءون في إعلاناتها : « مطلوب إنسان » .

التمعيم فى الحـكم

سألنى طالب فقال : أيهما فى رأيك أقوى من الآخر ، الفرد أم المجتمع ؟ .
فقلت له : أى فرد وأى مجتمع ؟ .

فقال : الفرد كائناً من كان ، والمجتمع أيا ما كان .

فقلت له : السؤال على هذه الصورة ليس له عندى جواب ، ولو أردت منى جواباً مفيداً تحتم عليك أن تدلنى على فرد معين فى مجتمع معين ، ليتسنى لى الحكم أيهما كان أقوى من الآخر ، بحيث حماله على تغيير مجراه .

وسقت له بعض الأمثلة لأوضح له ما أريد فقلت له : لو كان الفرد الذى تعنى — مثلاً — هو محمد عليه السلام ، ولو كان المجتمع الذى تريد هو المجتمع العربى الذى ظهر فيه النبى ، لقلت فى غير تردد جواباً على سؤالك : كان الفرد فى هذه الحالة أقوى من المجتمع ، لأنه أرغم المجتمع إرغاماً على تغيير أوضاعه ، حتى يقال كان العرب على الصورة الفلانية قبل محمد وأصبحوا على صورة سواها بعد محمد .
وقل شيئاً قريباً من هذا فى النوابغ الذين صنعوا التاريخ بما أحدثوه فى مجتمعاتهم من انقلابات اجتماعية أو سياسية أو علمية ، فالعالم أو العلماء الذين كان لهم الفضل فى الكشف العلمى التى انتهت

في القرن الماضي إلى الثورة الصناعية ، كانوا بغير شك أقوى من المجتمع ، بل أقوى من سائر البشر أجمعين ، لأنهم شقوا للناس طريقاً جديدة رسمت لهم أوضاعاً غير التي ألفوا ، وبدأت لهم بدايات فكرية جديدة لبثت تنخمّر في الرؤوس — وما تزال ، حتى انتهت إلى القلقة التي يجتازها العالم اليوم ، والتي تهدف بالعالم إلى وضع جديد يقلب القديم رأساً على عقب .

أما إن كان الفرد رجلاً من غمار الناس يصنعه المجتمع بعاداته وتقاليده صناعة لا تترك له أدنى مجال للاختيار ، فذاك فرد المجتمع أقوى منه .

وليس يكفي أن تحدّد لي الفرد لكي أحكم لك أهو أقوى أم المجتمع ، بل لا بد كذلك أن تعين لي أي مجتمع تراد الموازنة بينه وبين ذلك الفرد المعين ، لأن الفرد قد يكون زعيماً في جماعة ، حتى إذا ما انتقل إلى جماعة أخرى ، كان نكرة لا وزن لها ولا خطر .

واستطردت في حديثي مع الطالب السائل فقالت له : هكذا ترى سؤالك يتضح جوابه كلها جعلت تفكيرك منصباً على أفراد جزئية ، وهو سؤال بغير جواب إذا أطلقته إطلاقاً عاماً بغير تحديد .

إنني لا أكاد أرى عاملاً أقوى تضليلاً في الحسب وإفساداً للرأي من التعميم الذي لا يقف عند الجزئيات والأفراد ، ولست أرى طريقاً في التفكير أقوم وأهدي من تصور الجزئيات عند إبداء الرأي في موضوع معين ، بل إنني لأوشك أن أقول إن أقوى ما يميز العقل المتصور البصير من العقل المظلم الأعشى هو القدرة على النظر في

جزئيات الأمر الذى يكون الإنسان بصدد التفكير فيه .

خذ هذه المشكلة التى ملأت ألوف الألوف من صفحات الكتب والصحف : أيهما أقدر على كذا وكذا . الرجل أم المرأة ؟ .. هذا سؤال كثير ما يسأل ، وكثيرا ما يندفع المسئول فى جوابه قائلا : الرجل لأنه كيت وكيت ، أو المرأة لأنها تتصف بهذا أو بذاك ، ولو سأل هذا المجيب بدوره : أى رجل تريد وأى امرأة ؟ لالتقى بذلك ضوءا قويا على طريق الجواب الصحيح ، لو قلنا مثلا : أيهما أقدر على البحث العلمى ، الرجل أم المرأة ؟ ثم تنبه المسئول إلى ضرورة التفكير فى أفراد بدل التعميم الذى يؤدى إلى الضلال ، لقال فى غير مشقة ولا عسر : لو كانت المرأة هى مدام كورى ، ولو كان الرجل هو هذا الحوذى ، كانت مدام كورى أقدر على البحث العلمى من هذا الحوذى ، أما إن كانت المرأة هى خادمتنا فى المنزل ، وكان الرجل هو ميسو كورى ، كان الرجل فى هذه الحالة أقدر من المرأة ... وهكذا قل فى كل سؤال تلقيه جزافا على الرجل والمرأة ، فالأمر مرهون بأفراد جزئية فى ظروف معلومة محدودة .

وخذ أيضا هذه الموازنة التى لا تكاد تذكر على مسمع منى حتى يضطرب كيافى كله ولا أعود مالمكالزامام نفسى ، وأعنى بها الموازنة بين ما يسمونه شرقا وما يسمونه غربا ، فقد تسمع القائل يقول فى غير تخرج ولا قلق : أيهما خير من زميله الشرق أم الغرب ؟! وذلك الشرق وهذا الغرب فيهما ملايين البشر !! ولو جرينا فى هذا السؤال كذلك على المنهج المقترح ، فسألنا بدورنا : من ذا تريد من رجال

الشرق ومن ذا ثغنى من رجال الغرب ؟ لا تحصر الكلام فيما يؤدى
حتما إلى جواب مفيد سريع ، لأننى قد لا يصعب على أن أوازن بين
فلان الانجليزى وفلان المصرى مادمت أعرفهما ، لابل لا يسكنى أن
أحدد شخصين لتم الموازنة على النحو النافع ، بل ينبغى أن أمضى
فى التحديد والتجزئة فأقول : إن فلانا الانجليزى خير من فلان
المصرى فى كتابة القصة ، لكن فلانا المصرى خير من فلان الانجليزى
فى ركوب الدراجة .

ولعلى بعد ذلك قريب إلى عقلك إذا ما زعمت لك أن ما يقوله
القائلون عن « روحانية الشرق » و « مادية الغرب » كلام يستحيل
أن يثبت لحظة واحدة أمام العقل الناقد البصير ، لأن من أبناء الشرق
من ينغمس إلى أذنيه فى زراعته أو صناعته أو تجارته — وهذه مادية
واضحة ، بل قليلون هم جداً من أبناء الشرق « الروحاني » من
لا ينغمسون إلى آذانهم فى كسب عيشهم وكسب العيش بالطبع مادية
صريح فى ماديته ، ومن أبناء الغرب من ينفضون عن أنفسهم شواغل
العيش ليفنؤوا من أجل فكرة أو عقيدة ، ولا أحسب الذين يفنون
من أجل أفكارهم وعقائدهم إلا معنيين فى « الروحانية » ، بل إنى
لاستحلف قارئى الكريم أن يهدأ لى لحظة واحدة سريعة عابرة ،
ليفكر فيها كم من أهل « الغرب » يعيشون ويموتون فى معاملهم أو فى
رحلاتهم الكشفية ، وكم من أهل « الشرق » يصنعون ذلك ! وإنما
وضعت كلمتى « الغرب » و « الشرق » بين أقواس ، لأنهما فى الحق
كلمتان لا معنى لهما إلا عند من يريد أن ينزلق فى التعميم الفاسد ،

وإلا فحدثني أين الخط الفاصل الذي يكون شرقه شرقاً وغربه غرباً؟
وإذا شئت مثلاً آخر يبين لك كيف يضل الانسان في أحكامه
إذا عمى ، وكيف يهتدى سواء السبيل إذا خصص ، فانظر فيما يسمونه
متعة عقلية ومتعة جسدية ، والأولى عندهم أفضل وأشرف وأسمى
من الثانية ، لكنك لو سألت عند الموازنة بين هذين النوعين من
المتعة : أية متعة عقلية تريد وأية متعة جسدية؟ إذا لرأيت من متعات
العقل ما هو دنىء مرذول ، ومن متعات الجسد ما هو رفيع شريف ،
أو ليس الحقد وحب الانتقام والتعصب وشهوة السيطرة على عباد الله
من متعة العقل ؟ ثم أليس الطعام المعتدل من متعة الجسد ؟ فأيهما عندك
أشرف : أن يأكل الرجل برتقالة أم أن يثير حرباً دينية أو مذهبية
تفنى فيها ألوف الناس ؟ ! .

الفرق بين المرأة العجوز المخرفة حين تصف للناس « وصفة »
علاجية ، وبين الطبيب حين يصف لمريضه دواء ، هو هذا : المرأة
العجوز الجاهلة تعمم بغير نظر إلى جزئيات الموقف وتفصيلاته ،
فقد شهدت مرة أن « وصفة » معينة عالجت مريضاً ، فراحت تعمم
تلك الوصفة في كل المواقف الشبيهة دون اعتبار منها لما قد يكون بين
لك المواقف الشبيهة في الظاهر من أوجه الخلاف . وأما الطبيب
العالم ، فهو لا يكتفى باسم المرض ليصف العلاج ، بل لابد أن يرى
هذا المرض متمثلاً في « المريض » الفرد المعين ، لينبئ حكمه
على جزئية أمامه ، منفردة في تفصيلاتها ، لا على شيء عام
مشارك بين الناس أجمعين . ولا إخال القارئ إلا سائلاً :

ألا تريد أن تعترف بإمكان «الحكم بصفة عامة» ؟ إذا فماذا تكون
القوانين العلمية كلها إن لم تكن أحكاماً عامة ؟ إنى إذ أقول إن الماء
يغلي في درجة مائة - مثلاً - فقولى منصب على كل ماء ، وهذا
تعميم لا ضرورة فيه لسؤال يفصل جزئيات الماء المراد ... وجوابى
على ذلك هو أنه حتى القوانين العلمية تكون مشروطة بشروط ،
فالماء لا يغلي على درجة مائة إلا إذا كان تحت ضغط جوى معين ...
وعلى كل حال فالتعميم يهون خطره إذا استقيناه من جزئيات
درسناها ، أما أن نرسل القول إرسالاً بغير ضابط من التفكير فى
الجزئيات ، فطريق لا يؤدى بنا إلى صواب الحكم إلا مصادفة .

التفكير النظرى والتطبيق

الانجليز براعة فى الفكاهة ، أكاد لا أجد أمة أخرى تلحقهم فى ميدانها ، فالفكاهة فى أدبهم ليس لها نظير فى آداب العالم كلها ، وهى فكاهة خفيفة أقرب ما تكون إلى الابتسامة اللطيفة إذا كانت الفكاهة عند غيرهم تقاس إلى القهوة العالية ، وهم يمزجون فكاهتهم هذه ، فى جددهم ، فكثيراً ما يعمد الخطيب السياسى إلى تخفيف جد الموضوع الذى يخطب فيه بملح ونكات ينثرها فى غضون حديثه هنا وهناك ، وإذا أقاموا حفلاً للتكريم مثلاً ، فيكاد يستحيل على المتكلم فى مثل هذا الحفل ألا يجعل كلمته كلها أقرب إلى الفكاهة المستمرة ، حتى إن قصد إلى الجد فى الحديث .

بل إن ميلهم هذا إلى الفكاهة لا يبرحهم حتى فى المحاضرات العلمية التى قد توحى بطبعها إلى عبوس المحاضر وتجهمه . وإنى لأذكر بهذه المناسبة موقفاً لطيفاً لأستاذ فى علم النفس كان يحاضرنا فى جامعة لندن ، وكان الموضوع الذى يحاضر فيه هو نظرية فرويد فى التحليل النفسى فبعد أن شرح الرجل بعض معالم هذه النظرية ، وبين كيف يحاول أتباعها أن يصلوا بالتحليل إلى سبب نفسى لكل شىء مما يحدث فى سلوك الإنسان ، وإن خاله الإنسان مصادفة عارضة ، قال : على أتى أحب ألا تبالغوا فى تطبيق هذا الرأى ، وأضاف إلى قوله هذا

مثلاً من حياته الخاصة ، فحسبى ما يأتى : لاحظت حيناً من أيامى
الماضية أننى أفقد أشياء كثيرة ، فأضاع المفاتيح فى جيوبى ،
ثم لا أجدها ، وأضع النقود فيها حتى إذا ما هممت بدفع أجر للسيارة
أو ثمن لفنجان القهوة ، لم أجد نقودى التى وضعتها واثقاً مما فعلت ،
فتملت لى نفسى : أنت تعلم شيئاً من التحليل النفسى ، فإذا لا تفكر
فى سبب من نفسك لهذه الظاهرة الغريبة التى انتابتك هذه الأيام ،
وجلست إلى مكتبى ساعات وساعات ، أسجل أحلامى وأحلمها
ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، وأضع لى نفسى الاختبارات وأنزع
النتائج . . . وبينما أنا فى غمرة من هذا البحث العلى الذى أجرته على
نفسى لأعلم السبب الدفين فى « اللا شعور » منذ الطفولة الأولى ،
الذى يستلزم ضياع مفاتيحى ونقودى هذه الأيام ، إذا بى ألحظ فجأة
أن جيوبى فيها خروق !! فكففت عن بحثى وتحليلى وتعليلى ... لأن
سبب الظاهرة الذى أبحث عنه بين أوراقى ، كان أقرب إلى من
حبب الوريد ...

هذا مثل جيد جداً — على ما فيه من فكاهة حلوة — لما أردت
أن أقوله ، فكثيراً ما تأخذنا الحماسة لنظرية علمية فنطبقها على كل شىء ،
كأنما هى مفتاح الغيب المجهول كله ، أو كأنها لعبة جديدة صادفت
أطفالاً أغراراً ففرحوا بها وجعلوها دنياهم بأسرها حيناً ، حتى يملوها ،
أو تجيئهم لعبة غيرها .

وإن شئت تسرية عن نفسك من غناء الحياة وأعبائها ، فتعال لى
أجلسك مع جماعة من أصدقائى يقرءون كتباً فى التحليل النفسى هذه

الأيام ، فيجدون على صفحاتها ما يفرحهم من طريف الآراء ولطيف
التعليقات للظواهر الإنسانية ، فلا يكادون يسمعونك في أحاديثهم
إلا أخبار هذا التحليل وكيف انفتحت لهم بفضله مغاليق النفوس ،
وهم حريصون كل الحرص على أن ترد في أحاديثهم ألفاظ ضخمة
حتى لا تظن بهم اللهو والعبث ، لأنهم لا يقولون إلا « علما » لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهذه — مثلا — زوجة لا تجد
سعادتها مع زوجها ، لماذا ؟ الجواب عندهم لا بد أن يكون هذه
العقدة النفسية أو تلك مما تركب منذ الطفولة الباكورة ، ويستحيل — في
رأيهم — أن يكون سبب شقاها الزوجي ضالة مرتب زوجها
أو قسوة هذا الزوج في معاملتها أو ما ينحو هذا النحو من علل
وأسباب

وتعجب أن ترى هذه النزعة تجاوز أوساط الناس إلى علمائهم
وصفوة مفكرهم ، فهذا كتاب ظهر حديثاً في إنجلترا عن الكاتب
الانجليزي المعروف « تشارلز لام » الذي عاش في النصف الأول
من القرن التاسع عشر ، فهذا الأديب له قصة معروفة مشهورة مع
أخته « مارية » ، إذ أحبا وأحبته حب الشقيق المخلص لشقيقته المريضة
العليلة ، وحب الشقيقة لشقيقها الذي لم يتنكر لأصرة القرى ،
ولم يتزوج « لام » لأن أخته « مارية » لم تتزوج . وكانت في مرضها
تحتاج إلى عطف ورعاية ، والذي جعل هذا التعاطف بين الشقيق
وشقيقته معروفا مشهورا ، هو أنهما تعاونا معا على إخراج بعض
الآثار الأدبية ، ومثل هذا التعاون والتآزر جميل ونادر ، حتى ليستوقف

النظر ويستقر في الذاكرة ... فتأتى هذه الكاتبة الحديثة التي أخرجت هذا الكتاب الجديد عن « تشارلز لام » وتأتى إلا أن تطالع العالم بنظرية جديدة في العلاقة بين الرجل وأخته ، إذ تذهب إلى أنها كانت علاقة جنسية ، فقد كان الأخ والأخت معاً على شيء من الشذوذ العقلي - وهو شذوذ قد انتهى بهما معاً إلى الجنون - فالأرجح أن ينحرف بهما هذا الشذوذ إلى شذوذ جنسى كذلك .. إلى آخر ما قالت في هذا الاتجاه ، ونحن لا نقول إن ذلك مستحيل الوقوع ، لكننا نعجب لماذا لا نعلل الأشياء بأسبابها القريبة ، ولا نلجأ إلى هذا الإغراب في التعليل إلا إذا كانت الحجة قاطعة باترة ؟! إنما إذا سمعنا بشقيق وشقيقة يتحابان ويتعاطفان ، فأول ما ينبغى أن نعلل به هذا الود بينهما هو العلاقة الطبيعية التي تكون بين أخ وأخته ، وقد تزيد قليلاً هنا أو تقل قليلاً هناك ، بل هذا ما تقتضيه شروط البحث العلمى الصحيح ، إذ يقال لنا في هذا المجال : إنه لو كان لظاهرة ما تعليلان ، ورأيت التعليلين كليهما على درجة واحدة من حيث تفسير الظاهرة ، إلا أن أحدهما أبسط من الآخر ، فالتعليل الأبسط هو التعليل الأصديق ، وعلى هذا الأساس نفسه نأخذ بدوران الأرض حول الشمس لا العكس في تفسير الليل والنهار ، مع أن تعاقب الليل والنهار - وسائر الظواهر الفلكية - يفسره أن تكون الأرض ثابتة والشمس تدور حولها (كما ظن بطليموس) كما يفسره أن تكون الشمس هي الثابتة والأرض تدور حولها (وهي نظرية كوبرنيك) ، وإنما أخذنا بالرأى الكوبرنيكى لأنه أبسط الرأيين ، إذ يترتب على

مذهب بطليموس تعقيدات في مسارات النجوم لا مبرر لافتراضها
ما دام هناك تفسير أبسط يحل لنا الإشكال .

لو كان الكلام النظري الجميل يجد السبيل هينة ميسرة إلى التطبيق
الناجح لما عانت الإنسانية كثيرا جدا مما تعانيه ، فما أجمل أن يجلس
أفلاطون في الأكاديمية ليكتب جمهورية يكون فيها الحكم لأصحاب
العقول الراجحة وحدهم ، وتكون بين الناس مساواة تامة في الفرص
وما إلى ذلك من كلام منسق جذاب ، لكن الكلام شيء والتطبيق
شيء آخر ، وإنما يكون الأمر كذلك ، لأن الكلام النظري يتجاهل
ألوف الألوف من التفاصيل ، لكن هذه التفاصيل كائنة واقعة
في الحياة الحقيقية ، فإذا ما أردت التطبيق وجدت الفرق واضحا بين
سهولة القول الذي يلخص الواقع تلخيصا موجزا شديدا بالإيجاز ،
وبين هذا الواقع المركب المعقد الذي لا تكاد تحصى عناصره .

لقد قرأ قارىء مرة في إحدى المجلات أن الإنسان لو نظر بحدة
إلى عيني قطة ، فسرعان ما تنام القطة نوماً « مغناطيسياً » ، وأحب
صاحبنا أن يجرى هذه التجربة اللذيذة ، فألقى بقطة ووضعها على منضدة
أمامه ، وجعل ينظر إليها نظراً مركزاً حاداً ، لا يتحول عنها ،
وجعلت القطة تنظر إليه بدورها — ولعلها كانت تعجب في نفسها
من هذا المجنون ! — حتى ملت القطة طول النظر ، فمدت كفها في
سرعة خاطفة وخذشت عيني الرجل خدشة خطيرة وانصرفت
لحالتها . . . قد يكون الذي كتب هذا الخبر عن القطة وتنويمها صادقا
فيما روى ، لكن القطط مختلفات والرجال مختلفون ، فمن القطط ما هو

سمين ومنها ما هو هزيل ومنها ما هو جائع ومنها ما هو ممتلئ وهكذا، وكذلك قل في الرجال وسعة حياتهم أو ضيقها وقوة نظراتهم أو ضعفها إلى آخر ما بين الأفراد من فروق، لكن النظرية تلخص هذه الفروق، بل تهملها إهمالا، مع أنها قوام الواقع ونسيجه، ومن هنا كان التفكير النظري شيئا وتطبيقه شيئا آخر.

ولعل تلقيت في ذلك درسا هو بين دروس الحياة أمرها وأقساها، فقد كنت أرى في المرأة المصرية رأيا حدا بي إلى الكتابة مرة بعنوان «النساء قوامات» لأنى رأيت — نظريا — أن المرأة المصرية أصدق نظرا وأصح رأيا من الرجل المصرى، ناسيا بذلك ما بين الأفراد من فروق... حتى علمتني الحياة درسها القاسى، وهو أنها في واقعها أعقد. جدا من أن تلخصها النظريات في أقوال موجزة مبسطة.

بين الأمانى والواقع

« الأحلام أفضل من تحقيقها » ، هذه عبارة يتولها الانجليز ، مع أنهم — أو إن شئت فقل لأنهم — من أكثر شعوب الأرض تمسكا بالواقع وانحصاراً في نطاقه ، حتى جاءت فلسفتهم متميزة من سائر الفلسفات باتجاهها الواقعي الصريح ، فهم إذ يقررون ويكررون أن الأحلام أفضل من تحقيقها ، فهم إنما يقررون ويكررون حقيقة نفسية هي نفسها جزء من الواقع ، الذى لا مفر من الاعتراف به ، لمن أراد ألا يشطح مع أوهامه حتى لا تمس هذه الأرض الصلبة فى كثير أو قليل .

فمن الحقائق النفسية الواقعة ، أن الانسان يظل يزخرف لنفسه الأشياء ما دامت بعد فى حدود الأمل ، حتى إذا ما أخرجها — أو أخرجت له بفعل الظروف — واقعاً ملموساً ، هانت فى عينيه ، وخف وزنها على كفيه ! لماذا ؟ لأنه فى أحلامه يطبخ لنفسه الطبخة كما يشتهيها ، فيحذف عنصراً ويبقى عنصراً ، حتى لا يقدم لنفسه إلا كل طيب مستساغ ، وأما الواقع حين يتبدى له ، فيقدم له صحاف الطعام مزيجاً مما يشتهى وما لا يشتهى ، وعندئذ لا يجد صاحبنا مهرباً من إبر النحل إذا أراد العسل ، ولا منجاة من الشوك إذا التمس الزهور . وأقرب ما يرد إلى الخاطر من أمثلة على ذلك ، هو هذه الفتاة —

أو هذا الفتى ، يظل يحلم بحبيبة قلبه التى ستملأ له الدنيا سعادة وبشراً ،
حتى إذا ما جاءت هذه الحبيبة ، خاب الرجاء فى كثير جداً من
الأحيان ، ووجد الجنة المرتقبة جحيماً وسعيراً ، لأنه وهو يحلم ،
رسم الجانب البراق ونسى الجانب المعتم ، ويستحيل أن يكون واحد
بغير الآخر ، إنه وهو يحلم رسم الحبيبة وهى فى عافيتها تثب وتطفر ،
ونسى صورتها وهى على طريخة الفراش ، رسمها وهى ضاحكة مرحة ،
ونسى صورتها وهى عابسة متجهمه ، رسمها وهى مكتسية بالثوب
الجميل ، متحلية بزينتها فواحة بعطرها ، ونسى صورتها وهى تلزمه شراء
ذلك الثوب وهذه الزينة وهذا العطر ، وقل ذلك وأكثر منه فى الفتاة
وهى حيرى بين فتى أحلامها والفتى الذى جاءها به الواقع ، آه لو لم
يكن أسمر ! لو لا هذه الشعرات البيض فى فؤديه ! لو كان أغنى قليلاً
بما هو ! ماذا لو كان بغير أم وأخوات ؟ . . هكذا ظلت فتاتنا تنظر
إلى الفتى الواقع فى حسرة على فتى الأحلام ! !

على أن الانسان مضطر بحكم ضرورة العيش إلى نسيان أحلامه
ليقبل الحقائق كما جاءت ، إلا إذا كانت الفجوة أعمق وأوسع من أن
تلتئم وتنمحي فى غير عسر ولا مشقة ، وعندئذ تجذب الأحلام صاحبها
إلى صومعة بعيدة يعتزل فيها لينجو بنفسه من الحقائق المرة الأليمة ،
فلو رأيت زاهداً قد انتبذ صومعة قصية نائية ، فلا يخذعك الهدوء
البادى على وجهه ، واعلم أنه على هدوئه ذاك يخفى فى صدره ثورة
متأججة على الحياة الواقعة كما لمسها بين الناس ورآها ، ولا عجب أن نرى
بعض الحكام المستبدين فى الماضى يوجسون من أمثال هؤلاء الرهبان

الزاهدين خيفة ، ويتعقبونهم بالأذى ، لأن مجرد وجودهم دليل على
ناطق أمام الناس على نقص الواقع وبعده عن الكمال الذى تتعلق به
أحلام الحالمين .

ولئن كان هذا الضرب من الفرار من وجه الحقائق قليلا نادرا
لا يستطيعه إلا نفر معدود ، فهناك ضروب أخرى شائعة يابجا إليها
سواد الناس كل يوم ، منها قراءة القصص ، فلسنا على صواب إن
زعمنا أن الانسان يحب قراءة القصة — أو الأدب بصفة عامة —
إذا كان فيه تصوير نفسه ، بل العكس كثيرا ما يكون هو الصواب ،
فتعجبك القطعة الأدبية بمقدار بعدها عن تصوير نفسك اقلو أخذت
تقص أخبار الفقراء على فقير لما أعارك أذنا ولا احتفل لحديثك ،
لأنه منقوع فى الفقر ، ولا يثير انتباهه شيء هو منغمس فيه إلى أذنيه ،
لكن قص على الفقير كيف يعيش الأغنياء فى قصورهم يرهف لك
الأذن ، لأنه يحب أن يعلم كيف تدور الحياة فى هذا العالم البعيد ،
وكذلك يحب القصة أن يسمع قصص المغامرين ، ولا يشوق المصرى
أن يسمعك تحدثه عن المصريين بتقدير ما يشوقه أن يسمع نأرا رحلة بين
أهل الصين . . . وإذا فطريق الفرار قد أصبحت واضحة أمام من
خبت حقائق الواقع أحلامه ، فليقرأ قصة فيها حياة تشبه هاتيك الأحلام
الرائعة ، وهكذا يفعل الناس .

وليس كل الفرار من الحقائق البغيضة يتم على هذا النحو العملى
الذى وصفنا ، بل هناك من تخيب أحلامه فينطوى على نفسه ، وحسبه
بذلك فرارا ، فلا هو من الهمة بحيث ينسحب إلى دبر بعيد ، ولا

هو من هواة القصص يهرب فيها من دنياه الواقعة ، فاقبل ما يستطيعه هو أن يخلق أبواب نفسه على نفسه ويظل يجتر أحلامه كما يجتر الجمل طعامه المخزون إذا عز الطعام في عرض البادية ، وكم رجل وامرأة ممن ترى حولك لا يعيشون مع الناس بقدر ما يعيشون في نفوسهم ، أولئك لم يستطيعوا سد الثغرة التي تباين بين الحقائق والأحلام .

وإذا كان لكل فرد منا حقائقه وأحلامه جنباً إلى جنب ، فمراحل العمر — بالإضافة إلى ذلك — تختلف من حيث رجحان كفة هذه أو تلك ، ففي الشباب ترجح كفة الأحلام بصفة عامة ، وفي الرجولة المكتملة والكهولة ترجح كفة الحقائق بصفة عامة كذلك ، فقلما يستطيع الشاب الفياض بغمرة الحياة الدافعة أن ينظر إلى الواقع ثم يقف عند هذا الحد لا يعدوه ، بل تراه — بغير وعى منه — يضفي على ذلك الواقع ألواناً زاهية من عنده ، ولذلك قل أن تجد شاباً يائساً . وفيم اليأس مادام خياله كفيلاً أن يكمل النقص الذي أصاب الواقع ؟

أما إذا فضجت الرجولة — أو الأنوثة — في إنسان فهو يزداد حرصاً لنظره في نطاق الحقائق ، فكأنما كان وهو شاب زوبعة من دخان لا تمكن العين من رؤية الحطب المشتعل ، فلما تقدمت سنه انجلى ذلك الدخان شيئاً فشيئاً وتبلورت النار في جمرات محددة المعالم ، وهي إلى تحدد معالمها بالقياس إلى الحطب أول اشتعاله ، أحمر ناراً وأشد فعلاً . . . وأقصد بذلك أن الرجل القادر على رؤية الحقائق بعيداً عن غفوة الأحلام ، أخصب إنتاجاً من الشاب الذي تعميه

أحلامه عن رؤية الحقائق في وضوح وجلاء ، ومن ثم كان أكثر
زعماء العالم في شتى نواحي النشاط رجالا أو كهولا ، وندر جداً في
التاريخ من أنتج إنتاجاً غزيراً وهو لم يزل في صدر شبابه العالم :
التجار ورجال الأعمال وأصحاب البحث العلمي وقادة الجيوش وساسة
الحكم ، ثم الفلاسفة والأنبياء ، معظمهم رجال تجاوزوا سن الشباب .
على أنه لا مناص للإنسانية في سيرها من شباب يحلم وشيوخ
يلجمون الأحلام بالحقائق الواقعة ، أو إن شئت فقل : لا بد لها من
قلب يحس وعقل يفكر .

من وحي العزلة

في هذه الغرفة التي أسكنها في الطابق السادس من البناء ، معتزلاً ما استطعت إلى العزلة سيلاً ، جلست ذات مساء بعد أن جاوز الليل نصفه ، وهدأت المدينة في نعاس حالم ، فلم أكن أسمع إلا حفيف السيارات آناً بعد آناً ، وإلا حركة المصعد حيناً بعد حين ... جلست وحدي في هذه الغرفة العالية بعد أن جاوز الليل نصفه ، وكان القمر ينشر غلالة شفافة رقيقة على صف من العائر المتلاصقة ، فرأيتها أمامي مفضضة الصدور معتمة الأسافل ، كأنها صف من عمالقة الجن توحى للانسان ماتوحى ، فخيّل إلى عندئذ أنى من غرفتي تلك في برج من هاتيك الأبراج التي يقال إن أصحاب الفكر يعتصمون بها من ضجة الحياة وصخبها ، لولا أنني أحسست أن البرج لم يكن من عاج ! .

في ذلك الهدوء الساكن الخالم ، ألقيت على نفسي سؤالاً : هل يمكن أن تكون هذه الطبيعة الوديعة « مخضبة بالدماء ناباً ومخلباً » — كما يقول تنسن شاعر الأنجليز فيما أذكر ؟ هل يمكن أن تكون هذه الطبيعة — التي تراها الآن نائمة وساهمة — مليئة بأنواع التنافس والتناحر والتقاتل والتنازع ، حتى يقال إن الحياة ليست إلا قتلاً متصلاً بين أفراد النوع الواحد من جهة ، ثم بين الأنواع الحيوانية

المختلفة من جهة أخرى ؟ هل صدق « دارون » حين صور وجه الأرض معتركا لاتبثك الكائنات الحية فيه ناشبة الأنياب والأظفار بعضها في بعض ، بحيث لا يكون بقاء إلا للأنقى ، حتى أوحى بوصفه هذا إلى الشاعر الإنجليزي الذي عاصره أن يتغنى قائلا : إن الطبيعة « مخضبة بالدماء ناباً ومخلباً » ؟ — أم أن الحياة قوامها التعاون والتساند والتآزر ؟ .. بعبارة أخرى : هل الحياة في صميمها حب أم قتال ؟

لو كنت ألقى هذا السؤال على نفسي منذ شهرين ، لو وجدت من الظروف التي كانت تحيط بي عندئذ ما ينطق لسانى بالجواب السريع الصريح ، وهو أن الحياة لحتها قتال ، وسداها قتال ، ونسيجها قتال ، وأولها قتال وآخرها قتال . فقد كانت الحياة عندئذ تبدو في ضوء خبرتي « مخضبة بالدماء ناباً ومخلباً » ، لأنى رأيت الناس يكاد يأكل بعضهم بعضاً من تسابق وتنافس .

لكنى حين ألقى هذا السؤال الآن ، في هذه العزلة الساكنة الهادئة التي تجنب الإنسان اضطراب الخواطر وثورة المشاعر ، أراهم في عجب كيف يخفى على عين الرائي ما في الحياة من تعاون إلى جانب ما فيها من تنازع ، ومن حب إلى جانب ما فيها من قتال ؟ !

كيف يخفى على عين الرائي اتصال الجنين بأمه وهو بعد في أحشائها قطعة منها تحييها بدمها وتغذيها بغذائها ، تأكل له وتنفس له وتمرض له ، ثم كيف يخفى على عين الرائي اتصال الوليد بأمه وقد فصل عنها وأصبح كائناً عضوياً قائماً بذاته ، لكنه لم يزل معتمداً في بقائه عليها ، ترضعه

حياً ، وترعاه حياً ، وتقنى في سبيله حياً ؟ أفى هذا كله تنازع على البقاء أم تعاون في سبيل البقاء ؟ .

كيف يخفى على عين الرأى منظر الدجاجة تنشر جناحيها لأفراخها فتقيها بنفسها وتحميها بجسدها ، ومنظر الحمامة تضع الحب في مناقير صغارها ، ومنظر الطير يسير في الفضاء أسراباً أسراباً ، والغنم تلتئم قطعاناً ؟ أفى هذا كله تنازع على البقاء أم تعاون في سبيله

دلتني في هذه الدنيا العريضة على كائن واحد من أى نوع شئت ، عاش حياته مستقلاً بذاته ! إنه ليكفى الكائن الحى أن يحتاج إلى أبوين ينسلانه لنتمول عنه إنه جاء نتيجة التعاون والتعاطف والحب ... والإنسان بصفة خاصة . تراه إذا ما فرغ من مرحلة اعتماده على غيره من الناحية الفسيولوجية قد استبدل بذلك اعتماداً آخر في وسائل عيشه ومقومات حياته ، فبحال أن تقوم للانسان قائمة بغير معونة الآخرين .

إن الكاتب الأنجليزى « دى فو » حين أراد أن يعلم إلى أى حد يمكن للفرد أن يعيش بمعزل عن سائر الناس ، كتب قصته المشهورة « روبنسن كروسو » التى جعل فيها « روبنسن » هذا تنقطع به الطريق في جزيرة خالية ، فراح يبني لنفسه الكوخ ويطهو لنفسه الطعام ويعد لنفسه الثياب ، لكن في هذا مغالطة كبرى ، لأنها توهم القارىء أن « روبنسن » استطاع فعلاً - ولو إلى حين - أن يعيش بغير معونة الآخرين . ناسياً أنه حين انقطعت به الطريق في الجزيرة كان قد امتلاء رأسه بأفكار وذكريات استمدتها من المجتمع الذى كان يعيش

بين ظهرائيه قبل أن يعتزل ... وعلى كل حال فقد اهتدى «دى فو»
بسلامة تفكيره إلى خاتمة جميلة يختم بها قصته ، إذ جعل «روبينسن»
يسعى إلى العودة إلى بلاده ، ولم يكديرى سفينة على بعد حتى لوح
لها ، فخرجت عليه وأقلته ، مما يعنى أن الفرد مصيره إلى المجتمع أولا
وآخرأ ، وإذا قلنا «المجتمع» فقد قلنا التعاون ، لأن قوائم المجتمع
بغير تعاون تندك بين عشية وضحاها .

على أننا لم نعد نحيا فى عصر التخمين والضرب فى مجاهل
الفروض النظرية الخيالية . لم نعد نعيش اليوم فى عصر تكون فيه
الكلمة للأديب وخياله ، إنما عصرنا عصر التجارب العلمية ، والكلمة
الفصل فيه أصبحت للعالم فى معمله ، فإذا أردنا أن نعلم هل يستطيع
الكائن الفرد أن يحيا حياته سليمة قوية بغير معاونة زملائه له أو
لا يستطيع ، فلا تكون وسيلة ذلك أن يكتب كاتب مثل «دى فو»
قصة «روبينسن كروسو» ليرسل خياله فيما يمكن أن يقع لرجل
يعيش وحده بعيداً عن الناس ، بل لا تكون وسيلة ذلك أن يجلس
فيلسوف جلسة أرسطو ، ويضع سياسته على جبهته ليتأمل هل الإنسان
حيوان اجتماعى بطبعه وفطرته أم أن اجتماعه بغيره عادة ممكنة
ونظام موضوع ، كان يمكن أن يكون أو ألا يكون .

لا ، لم نعد نعيش فى عصر يسوده تأمل الفيلسوف ولا خيال
الأديب ، لكننا نعيش فى عصر العلماء والمعامل ، وأصبحت الكلمة
للمعامل وحدها ، وللأنايب والمخاير وحدها .

وهذا هو عالم يخضع المشكلة للتجارب العلمية ، فإذا التجارب

ناطقة بأن عزلة الفرد عن أبناء نوعه فيها القضاء عليه ، وبأن تعاون الفرد مع أبناء نوعه أمر محتوم لبقائه — وإنما أردت بذلك العالم « أولى » فى كتاب له عنوانه « جماعات الحيوان » ، بين فيه بمنطق العلم التجريبي كيف تزداد قدرة الكائن الحى على البقاء كلما زداد حوله عدد الأفراد من نوعه ، وكيف تقل قدرته على البقاء من الناحية البيولوجية كلما قل عدد هؤلاء الأفراد أو اعتزل .

فالحيوان إذا عزل عن زملائه — هكذا دلت التجربة العلمية التى أجراها « أولى » — حيل بينه وبين النمو السوى السليم ، أو أصاب جثثانه تلف ، أو هلك ، بينما الحيوان الذى يسمح له بالعيش بين أفراد نوعه يكبر حجما وتسرع استجاباته لمثيرات البيئة . وتلتئم جروحته فى وقت أقصر ، ويتغلب على صدمات لا يتغلب عليها الحيوان المعتزل . مثال ذلك : جاء العالم فى تجاربه بفريق من الدود ، وسلط عليه أشعة فوق البنفسجية وهو مجتمع ، ثم سلط نفس الأشعة على الديدان منفردة ، فوجد أن الدودة أسرع إلى التحلل والفناء فى انفرادها عنها فى اجتماعها مع زميلاتها . وأعاد عالمنا التجربة بأشكال مختلفة فسلط الأشعة القاتلة على مجموعة الديدان ثم رفع عنها الأشعة وترك الديدان مجتمعة ليرى بعد كم دقيقة تموت وأعاد نفس التجربة فسلط الأشعة القاتلة عليها ثم رفعها عنها وفرق الديدان بعضها عن بعض بحيث تحيا كل منها فى عزلة عن زميلاتها ، ووقف يرقب ليرى بعد كم دقيقة تموت ، فوجد أن الديدان فى هذه الحالة الثانية تموت أسرع جداً من الديدان فى الحالة الأولى .

ومن تجاربه أيضاً أنه وضع مجموعات من السمك الذهبي عشرات عشرات في سائل قمين أن يقضى على حياته ، ووضع أفرداً من السمك نفسه في السائل نفسه ، فوجد أن السمك وهو مجموعة يستطيع البقاء في السائل المميت مدة أطول جداً مما تستطيع ذلك السمكة وهي بمعزل عن أخواتها — وأعاد التجربة عيناها في صور مختلفة ، فجعل يضبط الكمية اللازمة من هذا السائل لقتل السمكة وهي منفردة ، ثم يضع كميات مساوية من السائل لأسماك مجتمعة فلا تموت ، ومعنى أن ذلك ما يكفي لفناء الفرد وهو معتزل ، لا يكفي لفنائه وهو عضو في جماعة .

وهكذا مضى « أولى » في تجاربه المتعددة المتنوعة ، وكان دائماً يصل إلى النتيجة عينها ، وهي أن اجتماع الفرد في حياته مع زملائه (على شرط ألا يزيد عدد الأفراد المجتمعة عن حد معلوم) عامل قوى في المساعدة على البقاء من الوجهة البيولوجية .

وما تقوله عن الديدان والأسماك ، قل أضعاف أضعافه عن الإنسان ولسنا بذلك ننكر ما في الحياة من تنافس وصراع ، لكن نكبة النكبات أن ننظر إلى الصورة من أحد وجهيها ، ثم ننكر الوجه الآخر الذي لم نوجه إليه النظر ... نعم إن بين الأفراد والأنواع تنازعا على البقاء ولكن إلى جانب ذلك حقيقة لاسبيل إلى نكرانها ، وهي أن هنالك كذلك تعاوناً في سبيل البقاء .

وتعاونك مع الناس لا يكون وأنت معتزل ...

هذه خواطر أوحى إلي بها عزلي في غرفتي حيناً من زمان ،
وإن كان المريض أصدق الناس حديثاً عن فضل العافية ، وإن كان
الجائع أولى الناس بالقول في نعيم الشبع ، فقد يكون المعتزل أبصر
الناس بضرورة التعاون مع سائر الناس .

الطير الذى طار وارتفع

يعجبني من الأديب أن يكذب ، فإذا أكلذوبته سارية في الناس جيلا بعد جيل ، ترددها الألسنة فتنة بسجعتها وإعجابا بوقعها في المسامع ، دون أن يتمهل عندها متمهل ، لينسكت معناها نكته ، فيتهدى إلى مدى ما فيها من خطأ أو صواب ، ولو كانت أكاذيب الأدباء التي تجري في الناس مجرى الأمثال ، يقتصر شرها على دورانها في الأفواه ، ورنينها في الأسماع . لهان خطبها ، لكنها كثيرا ما تؤثر في سلوك الناس ، فيضلون سواء السبيل ، من حيث يريدون لأنفسهم هداية ورشداً .

فقد زعم للناس أديب — لست أدري من هو ، ولا في أي زمن عاش — أنه « ما طار طير وارتفع ، إلا كما طار وقع » فانساق الناس بقوله المسجوع انسياقا أعماهم عن مدى الصواب فيما زعم ، فكلما هوى في المجتمع نجم بعد سطوع ، وكلما ذوت أمة بعد ازدهار ، هزوا رؤوسهم ومصوا شفاههم ، وقالوا مع الأديب : « ما طار طير وارتفع ، إلا كما طار وقع » .

وكنت كذلك أهز رأسي ، وأمص شفتي اعتباراً واتعاضاً ، وأقول حكمة الأديب مع القائلين ، حتى كان أمس . . . جلست وأسندت رأسي على مقعدي و«سرحت» ، وأخذتني نزعة من الحسد — ألا

ما أضعف طبيعة الإنسان ! - إذ طاف برأسى فلان ، وأخذت
أتعقب خطواته ق الحياة وخطواتى ، فرأيتة يخطو خطوات الجبارة ،
ورأيتنى أكبر وأتعرش ، فقد فرغنا من الدراسة معاً ، وسرنا فيما يشبه
أن يكون طريقنا واحداً ، لكنه كاد يشرف على القمة ، وما أزال
ألثت فى ربع الطريق ! عندئذ جاءتني حكمة الأديب على سبيل العزاء :
إنه ما طار طير وارتفع ... !

ولم ألبث أن أتبين كم أنا غر ساذج ، أتلهى بالأكاذيب ... إن
الطير هذه المرة فى ارتفاع دائم ، ولا ألمح فيه علامة تنبئ بسقوط
إنه صاعد أبداً ... إن الذروة قد باتت منه قريبة دانية ... لقد
كذب الأديب صاحب الحكمة .

لكن من يدري ؟ لعل الأديب الذى أذاع فى الناس هذه السجعة
معذور ، لعله لم يرد بالناس كذباً ولا تضليلاً ، وإنما أراد
أن يسجل ما ظن أنه الحق ، فلم تقع عينه على طير طار إلا وعاد إلى
الهبوط بعد حين قصير أو طويل ، فمهما أوتى الطير من قوة الجناحين
وصلابة الريش ، فهو لا يستطيع أن يظل محوماً فى الفضاء إلى أبد
الآبدن ، فلا بد له من عودة إلى الغصون أو السقوف أو إلى هذه
الأرض ، يلتمس هنا أو هناك لنفسه مستقراً يلوذ به ، وكنا يأوى
إليه ولو إلى حين ، لعل أديبنا لم يرد بالناس كذباً ولا تضليلاً حين
قال ما قال ، وإنما أراد وصفاً للواقع الذى يشهده فى كل حين ،
والذى أخطأهم الناس حين طبقوا قول الأديب على شتى
أوضاع الحياة ، فظنوا أن ما يصدق على الطير يصدق كذلك

على الأدميين أمّا وأفراداً ...

فمن أشجع مصادر الخطأ الإنساني ، وأفظعها خطراً ، المماثلة بين شيء وشيء ، بحيث نطبق على الثاني ما يصدق على الأول لشبهه بين الشئيين في وهمنا وخيالنا ، ثم نتصرف على هذا الأساس . . . ! فالحكومات الاستبدادية التي أظلت أوروبا منذ عهد قريب ، إن هي إلا نتيجة هذا الخطأ ، فلأن الفرد من الناس كائن عضوي ، والمجتمع يشبه الفرد ، فلا بد أن يكون المجتمع كائناً عضوياً كذلك ، ومادام الكائن العضوي يتسم بوحدة تمسك الأعضاء ، بحيث لا يجوز لعضو أن يتصرف بما لا يتفق مع تصرف سائر الأعضاء ، فكذلك الأمة لا ينبغي للفرد منها أن يعارض بسلوكه أو بفكره ما تواضع عليه سائر الأفراد ، ومَن الحكم ؟ هو العقل في الفرد ، وهو الدولة في المجتمع ، فما تحكم به الدولة قضاء مبرم لا راد له ، وليس فيما تنطق به الدولة خطأ يصحح أو كذب يُردُّ إلى صواب .

والخطأ كله هنا مصدره المماثلة بين المجتمع والفرد ، ولا تماثل هناك إلا في وهم الإنسان ، فلو قلنا لهُؤلاء الذين يعتقدون الشبه بين المجتمع والفرد ، ويفرحون بهذا الشبه ، ويستنتجون منه النتائج الخطيرة البعيدة المدى ، لو قلنا لهم : إن للفرد شعراً وأظفاراً ، فأين الشعر والأظفار في المجتمع ؟ ضحكوا من جهلنا ، وقالوا : ما هكذا تكون المشابهة بين الشئيين ، وإنما يشبه الشيء بالشيء في الصفات الجوهرية التي هي كيت وكيت . . . وكأنا فاتهم هم في هذا الموضوع أن الصفة

تكون جوهرية لمن أرادها ! .

وكذلك ترى من أصحاب الفكر من يمشون في تشبيه المجتمع بالفرد إلى حد أن يقولوا : إن الفرد له طفولة وشباب وشيخوخة بعدها يموت ، وكذلك حال المجتمع ، فكل مجتمع طفولته ، وشبابه وشيخوخته ... وعلى ذلك المنطق لا يترددون في الحكم على الأمم ، فتراهم يقولون - مثلاً - إن هذه الأمة الفلانية قد طال بها العهد وهي في أوجها ، ولذا فلا بد أن تكون قد هرمت ، ولا ينتظر لها إلا الفناء القريب ... وربما رتبوا على ذلك التفكير نتائج عملية تمس سلوكهم .

هذا مثل واحد أسوقه لأبين به كيف يتعرض الإنسان للخطأ حين يبني نتائجه على تشبيه شيء بشيء . وإنما سقت هذا المثل استطرادا في الحديث ، وما أردت في الواقع إلا أن أذكر للقارئ حالة على وجه التخصيص ، وهي أن الطير إذا كان لا بد له أن يقع بعد ارتفاع ، فما كذلك الإنسان ، فصفحات التاريخ مفعمة بالشواهد على أن الرجل من الناس قد يرتفع ويرتفع في غير نقوص ولا انتكاس ، بل يظل يرتفع حتى بعد موته ! وإلا فحدثني متى وقع شيكسبير بعد صعوده في أجواز الفضاء ؟ لقد ظل الرجل يعلو ثم يعلو ، وها هو ذا لا يزال في أنظارنا يعلو ! وحدثني متى وقع « فورد » بعد ما أصابه من نجاح في عالم الأعمال ؟ ومتى سقط نيوتن أو أينشتين ؟ وقل مثل هذا في كثير جدا من نوابع الإنسانية في كل جانب من جوانب حياتها .
إننا على وجه الإجمال أمة متشائمة ، تعطف على العاجز أكثر مما

تصفق للقوى الناجح ، إن أسمع الناس لا تطمئن إليك إذا زعمت
لهم أن الإنسان ذو قدرة وجبروت ، وأنه يحاول أن يمضى قدما في
غزو الطبيعة حتى يغزوها ويقهرها ، لكن اضرب لهم على وتر الضعف
والإخفاق ، وقل لهم : من ذا يكون هذا الإنسان المسكين ؟ إنه ضئيل
هزيل ، لن يبلغ من فهم الكون شيئا يسمن أو يغني ، يصفقوا
لك إجلالا وإكباراً .

وهذا هو - في أغلب الظن - ما يدعوههم إلى التجهم لك إذا زعمت
لهم أن الطير القوى قد يظل محلقاً في أعلى أجواز السماء إلى الأبد ،
لأنهم لا يريدون لرفعة إنسانية أن تتصل وتستمر . ولا يحبون شيئاً
بمقدار ما يحبون لهذا الطائر المحلق في حصون الجو أن يسقط مهبط
الجناح محطم الريش ، جزاء ما طمع وما طمح .

إننا على وجه الإجمال أمة تنطوى على كثير من الذلة والانكسار ،
وصدق من لاحظ أن بين نظراتنا ونظرات الغريين فرقاً في البريق
واللمعان ! فعين الأوربي مفتوحة تلعب وعين الشرقي مكسورة تنم على
كثير من الشعور بالضعف . . . ولعل أول شروط الحياة الناجحة
أن تثق بالقدرة على تحقيقها ، فلن تشق أجواز الفضاء بجناحك إلا إذا
وثقت منذ البداية أن ارتفاعك لا يعقبه سقوط .

المتفرج واللاعب

كثيراً ما يقال إن هذه الحياة مسرحية ، وهؤلاء الناس ممثلوها ، والحق أن الحياة والمسرحية شديتان إلى حد بعيد ، فليس يقتصر الأمر فيما بينهما من أوجه الشبه ، على الظواهر التافهة ، كأن يقال مثلاً إن الحياة لها — كما للمسرحية — ستار يرفع ساعة الميلاد بصرخة ويسدل ساعة الختام بشهقة خفيفة ينتهى بها كل شيء ، أو أن يقال إن الحياة كما فى المسرحية — فصولاً ومشاهد : فهذه طفولة لاهية ، وهذا شباب متدفع ، وتلك كهولة تنضج عندها ثمرة العمر نضجاً قد يشوبه شيء من العطب فتسقط ، كما يسقط البطل فى نهاية المأساة سقوطاً ينسدل بعده الستار .

كل هذا شبه صحيح ، لكن ما هو أعمق منه من أوجه التشابه بين الحياة والمسرحية ، هو أن الإنسان فى الحياة — كاللاعب فى المسرحية — يحصر نفسه فى « دوره » حصراً ، فلا تتوقف إجادته له على معرفة العلاقة بين ما يقوله أو يفعله ، وبين ما يقوله أو يفعله سائر اللاعبين ، ولو قد ارتفع بنظره لينظر إلى الأوضاع كلها نظرة تقرر بعضها إلى بعض ، كما ينظر إليها مؤلف المسرحية ، أو كما ينظر إليها المتفرج ، إذاً لتغيرت قيم كثيرة للأشياء فى عينه وتقديره . إن من يلعب دور العظيم فى الحياة — كالذى يلعبه فى المسرحية —

قد لا يكون عظيمًا بالقياس إلى شخص آخر من أشخاص الرواية ،
إذا نظر إلى الشخصين نظرة مقارنة تحال وتوازن ، وهى النظرة التى
ينظر بها المؤلف أو المتفرج الناقد ، لكنه عظيم فى ظن نفسه ، لأنه
— كما قلت — يحصر نفسه فى دوره حصراً ، لا يتيح له أن يمد
النظر إلى ما وراء ذلك من أشخاص وأحداث .

وإنه لمن أشق الأمور على الإنسان أن يجاوز حدود نفسه ،
بحيث يجعل من شخصه شخصين : شخصاً يلعب دوره فى قصة الحياة ،
وشخصاً « يتفرج » بعين الناقد الخبير العاقل ليزن مقدار نفسه بالقياس
إلى مقادير الناس الآخرين ، غير أن هذا الأمر العسير الشاق قد
استطاعه نفر قليل من العباقرة الجبابرة الفحول ، فقد يبلغ الرجل
من هؤلاء قمة المجد البشرى ، لكن هذا المجد لا يمنعه من الخروج على
نفسه لينظر إليها « من الخارج » فيزنها بالقسطاس المستقيم وزناً لا يصدر
فيه عن التعصب والهوى لنفسه ، أقول إن الرجل من هؤلاء قد يبلغ
قمة المجد البشرى — ثم ينظر إلى نفسه « من الخارج » فإذا به يؤثر
عليها « دوراً » آخر ، لا يكون له ظاهر المجد وإن تكن له حقيقة ،
فهذا بوذا مثلاً ، كان فى مسرحية الحياة الظاهرة صاحب سطوة
لاتقاس إليها عند النظرة العابرة أدوار كثيرين من سائر اللاعبين ،
لكنه خرج من حدود نفسه ، وقارن وحلل ، فإذا به يؤثر على سطوة
الملك — أو ما فى حكمها — دوراً آخر يقتضيه أن يكون جاعاً عارياً
وطاؤه الأرض وغطاؤه السماء . وقد أثبت الزمان صدق ميزانه
لأنه لو أثر وجاهة الإمارة والملك لما أفسح له التاريخ من صفحاته

أكثر من سجار أو سطرين ، على حين ضمن له ذلك العرى والجوع
زعامة ألوف الملايين من البشر ، وكتب له صفحات من نور في سجل
الخلود ، وهذا الغزالي مثلاً آخر ، أتيح له في مسرحية الحياة أن
يأعب دوراً فيه كثير من الآبهة والعظمة الظاهرتين ، لكنه هو الآخر
استطاع أن يتجرد من نفسه لينظر إلى نفسه نظرة موضوعية تمكنه
من قياسها إلى غيرها ، فإذا دور آخر يستهويه ، ليس فيه من جلال
المنظر كثير ولا قليل .

نحن في مسرحية الحياة لاعبون ، لكل دوره الذى أريد له ، أو
الذى اختاره لنفسه بما يتفق مع ميله وهواه ، ولو قد أتيح للواحد
منا أن يكون لاعباً حيناً ومتفرجاً حيناً آخر ، لهان كثير جداً من
الكوارث والخطوب ، لأن كثيراً جداً من هذه الخطوب وتلك
الكوارث منشؤه ما يعيش الناس فيه — أفراداً وجماعات — من
أوهام عن أقدار أنفسهم ، وإني أعود فأقول إنه ليس من الهينيات
الميسورة لكل إنسان أن يقف من نفسه موقف المتفرج ليضعها
موضعها الصحيح بالنسبة لما عداها ، ولو كان ذلك من الهينيات
الميسورة لكل إنسان ، لما طالبت الرحمة من الله لمن يعرف قدر
نفسه بالتعيين والتخصيص ، إذ قيل : رحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

على أن الحكمة هى فى الموازنة بين اللعب والتفرج ، فالإمعان فى
تجرد الإنسان عن نفسه ليتفرج مضر ضرر الإمعان فى اللعب بغير
وقفة للتدبر والنظر ، فلو كان العالم كله لاعباً بغير تدبر الناقد الفاحص

المحلل ، لما اتخذت الأمور أقدارها الصحيحة ، ولو كان العالم كله متفرجاً لما أنتج شيئاً .

وإن سياق الحديث ليدعوني في هذا الموضع أن أستطرد فأقول : إن اللاعبين في مسرحية الحياة من جهة ، والمتفرجين من جهة أخرى ، قد اختلفت قيمة الفريق منهم بالنسبة لقيمة الفريق الآخر في العصور المختلفة ، اختلافاً يبعث على التأمل والتفكير .

فقد كان الناس في الألعاب الأولمبية عند اليونان الأقدمين ، ينقسمون فرقاً ثلاثاً : لفريق ينزل مضمار السباق ، وهؤلاء هم اللاعبون وفريق آخر يجلس على هامش الحلبة ، وهؤلاء هم المتفرجون ، وفريق ثالث لاناقة له في مضمار اللعب ولا جمل ، وإنما ذهب هنالك لينجز ما أراد لنفسه من أعمال تتصل بالبيع والشراء في ذلك المزدحم المائج من الناس ألواناً وأشكالاً ، وكانت القيمة الاجتماعية الكبرى للفريق الثاني - فريق المتفرجين - فما كان يجوز لرجل يعتز بكرامته وكرامة أسرته أن ينزل المضمار لاعباً متسابقاً ، ويتلو هؤلاء في المنزل فريق اللاعبين ، فقد كان هؤلاء يظفرون بكثير من المجد في أعين الناس ، مهما يكن قدرهم بالنسبة إلى الطبقة العالية المتفرجة ، وأما أرباب البيع والشراء ، الذين لا هم إلى أولئك ولا إلى هؤلاء ، فكانوا أدنى الناس قيمة وقدرأ .

ويمكن التعبير عن هذا المعنى نفسه بعبارة أخرى ، فنقول : إن القيمة الكبرى عندئذ كانت لمن يتدبر ولا يعمل ، أو بعبارة ثالثة : كان أصحاب التفكير النظري هم السادة ، والعكس صحيح ، أي أن

من علامة السيادة والرفعة أن تقف عند حد التفكير النظرى دون أن
تجاوزه إلى العمل والتطبيق ، ولذا كان أمعن العلوم فى التفكير النظرى
— مثل الرياضة والفلسفة — هى أجدر العلوم بالدراسة عند أبناء
العلية ، ولا عجب فى مثل هذا الجو الفكرى أن يدعو فيلسوفهم
أفلاطون إلى أنه لا يجوز أن يحكم الناس إلا فيلسوف ، ثم لا عجب
كذلك أن يقتضى بناء المجتمع عندئذ أن يكون فيه طبقة من العبيد ،
يوكل إليها العمل اليدوى بأنواعه المختلفة .

وهانحن أولاء نشهد فى عصرنا كيف تغيرت الأوضاع ، وتبدلت
القيمة النسبية للاعبين والمتفرجين ، بالمعنى الحرفى والمعنى المجازى على
السواء .

فاللاعبون — بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة — قد تفوقوا فى قيمتهم
على المتفرجين ، فأين من يسبح فى الماء ممن يقف على الشاطئ متفرجاً ؟
أين قيمة لاعب الكرة أو المتسابق فى الجرى والقفز ، ممن يقرأ
أخبار ذلك فى الصحف أو يستمع إليها فى المذياع ؟ .

ثم تفوق اللاعبون — بالمعنى المجازى هذه المرة — على المتفرجين ،
لم تعد القيمة فى عصرنا للذى يجلس إلى مكتبه « يفكر » ، بل آلت
القيمة كلها لذلك الفريق اللاعب الذى ينزل مضمار الحياة العملية ،
والجانب السياسى منها بوجه خاص ، الكلمة العليا فى العالم الآن
صائرة ، أو قد صارت لصاحب الحركة والعمل ، وأما الذى يجلس
اليوم على كرسيه « يفكر » فما أجدره أن يفتح فيه كالأبله ، ليلأه
الزمان تراباً .

فلو سألت نفسى بعد هذا : لماذا أخفقت حين نجح سواى ، كان
الجواب : لأنك جلست تتفرج حين لعب سواك .

ولو عدنا إلى تشبيه الحياة بالمسرحية الذى بدأنا به الحديث ،
لقلنا إنه لا تتم حياة كاملة بغير لاعبين ومتفرجين فى آن معاً ، بغير
عمل ونقد نظرى جنباً إلى جنب ، والحكمة كل الحكمة أن تجتمع فى
الفرد الواحد صفتا اللاعب والمتفرج ، ليعمل من جهة ويتدبر طريقه
ومنهجه من جهة أخرى ، وأن تجتمع فى الأداة الواحدة فئة العاملين
وفئة المفكرين ، لتتم كل منهما الأخرى .

الصففر النففس

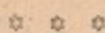
فقولون فف فافرف الرفاففة إن الصففر كان آفر الأرقام العفففة ظهوراً؁ وممع ذلك فهو أهمها على الإطلاع؁ وإذاً فهو أكثرها فحضرأ وأرقاها فطورا؁ لفأفر ظهوره فف عصور الفافرفف من ففة ولهذه الأهمفة الفف فمفاز بها من فوها من ففة أخرى؁ كما فقال عن الإنسان — مثلاً — إنه أرقف فروب الففوان؁ لأنه جاء فف مراحلف الفطور بعدها؁ ولأنه كذلك أهمها وأخطرها فف آن معاً.

أما أن الصففر قد كان آفر الأرقام العفففة ظهوراً؁ فذلك معقول؁ لأن الإنسان فف مراحلف هممففة ففءاً بعد الأشياء الموفوفة فعلاً. ولا فأبه كشرأ أو قلفلاً بفساب ما هو معدوم لفس له وفوف وهو فرفء أن فعرف كم بقرة له : واحدة هف أم اثفان أم فلاف.؟ وكم زوفة فملك ؟ فرفء أن فعد الفمار الفزونة والطرائف الفف فففء؁ والاسرى الففن وقعوا له فف القتال؁ وكل هذا فففاف إلى أعدد؁ لا فكون الصففر ففنها.

فلها فطور الإنسان على مر الزمان؁ اسفوقف نظره العفم كما اسفوقفه الوفوف؁ فأراف الفعفر — مثلاً — فعفرأ فساياً عما فكون لففه من بقرف أو فمر أو زوفاف أو أسرى؁ ففن لا فكون لففه فف الوافع من هذا كله شفء؁ فاضطر ففنفء أن فخلق « الصففر » أءاة

للتعبير عما يريد ، فلو قال لزميله إنه يملك « صفرا » من البترات أو الزوجات ، فهم زميله عنه ما أراد .

وأما أن الصفر قد جاء أهم الأرقام العددية جميعاً ، فذلك أيضاً واضح إذا ما ذكرنا أنه لولاه ، لاستحال على الحساب أن يجد أرقاماً بمقدار ما لدينا اليوم من أعداد ، ولا ضطر الإنسان تبعاً لذلك أن يحصر حسابه في دائرة ما عنده من أرقام ، فلو لا الصفر ، لما أمكن للواحد المتواضع أن ينقلب عشرة أو عشرين أو ألفاً أو عشرة آلاف أو مائت من هذه الأعداد ، التي أعرفها أنا وأنت أرقاماً على الورق ، وقد يعرفها سوانا جنيهاً أو ما إليها مما تطيب به الحياة ، نعم . لولا هذا الصفر « المسكين » الذي لا يساوى في سوق البيع والشراء شيئاً - لأنك لا تشتري بالصفر خبزا ولحماً - لولاه لاستحالت عمليات الحساب ، التي لها في شؤون الحياة العملية والحياة الفكرية ، ما لها من خطر .



تلك حقيقة أروها لك باردة لا تجرى في عروقها دماء ، ثم أضع القلم حيناً ، لأدير البصر في الحياة من حولى ، وما تدل عليه أوضاعها من معان ، فإذا هذه الحقيقة التاريخية الجامدة قد انتفضت أمامي بغتة كأنها حياً محتاجاً نابضاً ، يتمتع ويفزعنى ... وكان المفتاح الذى ضغطت عليه بإصبعي فانفتحت لى هذه الآفاق الجديدة - الممتعة المفزعة - هو أنى حولت الصفر من أرقام الحساب إلى دنيا البشر !

تخيلت أن هؤلاء الناس من حولى أعداد حسابية ، تختلف « قيمة »

باختلاف « قدرتها الشرائية » ، فهذا الرجل واحد ، وذلك اثنان ، وهكذا حتى وصلت إلى الرجل الذى تكون قيمته تسعة بالقياس إلى من ذكرت ، ثم أردت بعد ذلك أن أنتقل إلى من يكون عشرة بين الناس - واضعاً أرقام الحساب التى أقيس عليها نصب عيني - فإذا بالامر يقتضىنى فى هذا الموضع أن أبحث عن شخص آخر تكون قيمته فى الحياة صفراً ، ليقف إلى جوار سيده ، حتى يجعله فى الناس عشرة محترمة موقرة ..

وهنا هنا انفتح أمام عيني هذا الأفق المخيف الرهيب ! أياكون هذا صحيحاً فى عالم البشر ، كما هو صحيح فى أرقام الحساب ؟! أوصحيح فى عالم البشر أن الإنسان يستحيل أن يعظم ويضخم - بعد حد معلوم - إلا على حساب غيره من « أصفار » الانسانية الذين لا يساوون فى دنيا العيش شيئاً ؟ أمن أجل هذا إذا قاربت اللغة بين لفظتى العدم والعدم ، لتدل على أن ما كتب عليه أن يكون صفراً - أى عدماً - لا بد له كذلك أن يعيش فى عدم وإملاق ، ولا عبرة بالحقيقة الواقعة - الرهيبة المخيفة - وهى أن هذه الأصفار البشرية هى التى خلقت « عشرات » الرجال و « مئاتهم » و « آلافهم » .. ؟

أى والله إنه الحق ! فقد يستطيع الرجل - مثلاً - أن يزرع أرضه بيديه ، وعندئذ لك أن تعدّه واحداً أو تسعة حسب انفساح الرقعة التى يملك ، لكنه إذا ما اتسعت رقعته فوق ما يستطيع زرعه بيديه ، اضطر أن ينتقل خطوة - فى علم الحساب - فيجعل نفسه

في « خانة العشرات » بأن يضع « إلى يمينه » صفرا أو صفرين أو أكثر حسب ما يقتضيه اتساع ملكه ، وعلى هذه الأصناف أن تظل قائمة إلى يمينه ، تمدد بقيمته الحقيقية ، وإلا اندك بناؤه وانهار ! .

ثم ماذا ؟ .

ثم مضيت في التشبيه إلى آخره ، فوجدت الأمر ينتهي إلى خاتمة اطمانت لها نفسي بعد ضيق ، وانبسط لها جيني بعد عبوس ، إذ وجدت أن إدراك قيمة الصفر — في علم الحساب — كان دليلا على الرقي في مدنية الانسان ، كان دليلا على الرقي بمعنيين : بمعنى أن هذا الإدراك قد جاء آخرًا ، وبمعنى أنه كان أداة وسعت الآفاق أمام علم الحساب .

أفيكون الأمر كذلك — يارباه — في أصفار البشر؟ الجواب : كان ولم يكن ، أعني أنه قد تم منه شيء وبقي شيء ، نرجو له التمام ، فقد أخذ العالم منذ قريب يعرف للطبقات العاملة — وقد كانت أصفار البشر — قيمتها الحقيقية ، أخذ العالم منذ قريب يدرك أنه على الرغم من أن هذه الأصفار البشرية محدودة في قوة شرائها ، إلا أنها هي التي تهتئ الأسباب لأصحاب هذه القوة ، وأنه إن أراد « الواحد » الذي ارتقى إلى « خانة العشرات » أن يحتفظ بمكانته العددية فلا بد له من المحافظة كذلك على الصفر الذي يقف إلى جانبه مؤيدا ومعضدا ، لكن ما قد تم من الأمر حتى اليوم لا يكفي لأنه إن غير في إدراك القيمة العددية لهؤلاء الأصفار ، فهو لم يغير بعد في إدراكنا لقيمتهم

النفسية . . . ولا مدنية بغير هذا .

لا مدنية بغير إدراكك أن للصفر البشرى قيمة شعورية وإن أعوزته القيمة في سوق البيع والشراء ، وكيف أنسى ما رأيته أمس في غرفة الطعام من الفندق الذى أقيم فيه ؟ .

جاء ضابط طيار وجلس الى مائدة قريية منى يتناول غداءه . فلما قدم له الخادم طبق الفاكهة ، ازور عنه الضابط لعطب رآه فيما أظن - فوجه الى الخادم لوما حادا عنيفا (وقد لا يكون فى ذلك ما يعاب ، إذ ربما جاز هذا « للواحد » على « صفره » الذى جعله « عشرة » موقرة محترمة) لكن الصفر البشرى المسكين ، هم بالجواب فثارت ثائرة الضابط الطيار ، لأن خادما أردا الجواب وأمره أن ينادى « الخواجة » لأنه لم يتعود أن يجادل الخدم .

وددت أن يعلم القارىء عن هذا الخادم ما أعليه ، فوالله ما وقعت عينى عليه مرة إلا وتذكرت قصيد « جراى » الخالدة التى وقف فيها وسط قبور الفقراء فى فناء الكنيسة يسائلهم : ترى كم منكم من كان يعدل فحول الشعراء وجبايرة القادة والعلماء ، لو أسعفته الظروف إن المسكين « صفر » فى سوق البيع والشراء ، ولسوء حظه أن الضابط الطيار لم يبلغه ان الانسانية منذ قرون طويلة قد فرغت من الكشف عن قيمة الصفر فى علم الحساب ، فرأته أكثر الأرقام العددية حضارة ، وأهمها منزلة وقيمة . . . وإنه لم يبق إلا أن تعترف الانسانية كذلك بما للاصفار البشرية من خطر وقيمة .

وفرغت من غدائى ، وصعدت إلى غرفتى ، فاذا بى ألمح الخادم مقرفا فى ركن معتم يحش بالبكاء .

شمال وجنوب

كثيرا ما أقرأ الصحيفة أو الكتاب في شيء من الغفوة والذهول
فعيناي تطالعان شيئا ، والعقل مشغول بشيء آخر ، حتى إذا ما فرغت
من قراءتي . وسألني سائل : ماذا قرأت في هذا الفصل أو في ذاك
المقال ؟ لم أجد ما أجيب به إلا على نحو مضطرب مهوش غامض .
لكنني قد أصادف في غضون قراءتي الغافية الذاهلة فقرة أنبه
لها مذعورا كأنما هي تلسع ، فأعيد قراءتها متمهلا متفهما ، وأديرها في
رأسي لأتخذ إزاءها موقف القابل أو الراض أو المتشكك ، ثم
أمضي في القراءة . . . ولعله من مثل هذه الفقرات المنبهة الموقظة
تتألف ثقافة الانسان ، لانها هي التي تكون له رأيا ووجه للنظر ،
وما أكثر ما يكون الكاتب أو الفيلسوف صنيعة وخزة من هذه
الوخزات القوية ، التي لو لاها ظل العقل قابلا ، يحصل العلم تحصيلًا
يجمع الحقيقة إلى جوار الحقيقة . حتى يصبح الرأس كتابا متحركًا
لا إنسانا مفكرًا ، وهذا هو فيلسوف الألمان « كانت » يقرأ زميله
الانجليزي « هيوم » ، ما ذهب اليه في إنكار العلاقة السببية بين الأشياء
والحوادث ، « فيستيقظ من سباته » — كما يقول — وينهض ليجيب
على قول زميله إجابة مستفيضة ، فاذا هو يقيم للناس بجوابه ذاك
بناء شامخا جباراً .

من هذه الفقرات التي قرأتها فتنبهت من غفوتي ، ثم أعدت قراءتها
متمهلاً متفهماً متفكراً ، هذه الفقرة الآتية التي كتبها كاتبها (ديورنت)
وهو يصف كيف أطبقت القبائل الآرية الشمالية في العصور القديمة
على بلاد الهند ، فاكتمحت أهلها نحو الجنوب اكتساحاً ، ولم تلبث
أن استبدلتهم واستعبدتهم وملكت زمامهم ... » ولم تكن غزوة
الآريين لهذه القبائل المزدهرة ، وانتصارهم عليها ، إلا حلقة من
سلسلة متصلة من الغزوات ، كانت تقع على فترات منتظمة بين الشمال
والجنوب ، فينقض الشمال انقضاضاً عنيفاً على الجنوب المستقراً
وقد كان ذلك مجرى من المجارى الرئيسية التي سارت فيها حوادث
التاريخ ، إذ أخذت المدينيات تعلو على سطحه وتهبط ، كأنها أدوار
الفيضان يعلو عصرًا بعد عصر ، فالآريون قد هبطوا على الدرافيديين
(في الهند) والآخيون والدوريون قد هبطوا على السكريتين والإيجيين
(في اليونان) ، والجرمان قد هبطوا على الرومان ، واللمبارديون قد
هبطوا على الإيطاليين ، والإنجليز قد هبطوا على العالم بأسره ، وسيظل
الشمال إلى الأبد يمد العالم بالحاكين والمقاتلين ، والجنوب يمد به
الفن والدين ، فالجنة إنما يرثها الجبناء .

إذا فهذه تفرقة جديدة تقسم عباد الله قسمين : شمالاً سيظل إلى
الأبد يمد العالم بالمقاتلين الذين يحكمونه ، وجنوباً سيظل إلى الأبد
كذلك ملقياً بزمامه في أيدي سادة يجيئون إليه من الشمال ، لأنه في
شغل بالآخرة عن الدنيا ، فلئن كان أهل الشمال يقاتلون بالحديد
والنار ليمدوا سلطانهم على هذه الأرض وهادها ونجادها وسهولها

ووديانها ، فأهل الجنوب ساهمون حاملون ، يريدون الجنة ،
والجنة - في رأى الكاتب الذى نقلنا عنه الفقرة السالفة -
يرثها الجبناء .

هذه تفرقة جديدة نصادفها ، تقسم الناس إلى شمال وجنوب ،
بعد أن تقيأنا الصديد من تفرقة قديمة مألوقة ، شطرت الناس إلى
غرب وشرق ، والمعنى فى التفرقتين واحد ، والاختلاف فى الأسماء
وحدها ، إذ المراد فى كلتا الحالين أن يقال إن أوربا وأمريكا صنف
من البشر ، وسائر العالم صنف آخر ، ولك بعد ذلك أن تجعل الصنفين
شمالاً وجنوباً ، أو غرباً وشرقاً ، كيفما حلا وقع الألفاظ فى مسمعك
وليس لى من العلم بالتاريخ ما أستند إليه فى رد مفصل على هذا
الزاعم بأن مجرى التاريخ كان دائماً يتلخص فى سادة ينقضون من
الشمال ليحكموا فى الجنوب ، لكن على الضئيل بالتاريخ يتيح لى على
ضآلته أن أعلم بأن اتجاه الغزو لم يكن دائماً من الشمال إلى الجنوب ،
فالمصريون القدماء قد ساروا فى فتوحهم من الجنوب إلى الشمال ،
وأخذت جيوش الرومان سمتها نحو الشمال حتى بلغت بريطانيا ،
وجاءت غزوات العرب فى خط أفقى لا رأسى ، فاتجهوا من قلب
صحرائهم شرقاً وغرباً ، والأتراك ساروا فى الغزو نحو الغرب إلى
جانب اتجاههم نحو الجنوب ، وهكذا .

على أنى أعترف أن نفورى من الفقرة السابقة لم يكن أساسه
تسكذيب الكاتب فيما ذهب إليه من تفصيلات التاريخ ، بل كان
نفورياً ذاتياً شعورياً ، ما فتئت أبديه كلها سمعت إنساناً يقسم عباد الله

أقساماً ، فمرة هم شرق وغرب ، ومرة أخرى هم شمال وجنوب ،
لأننا — في أغلب الظن — لا نظفر من هذه التقسيمات إلا بصفقة
المخبون ، فإن كان العالم غرباً وشرقاً ، فنحن شرق ، وإن كان العالم
شمالاً وجنوباً ، فنحن جنوب ، أعني أن العالم إذا انقسم حاكماً ومحكوماً
فنحن الفريق المحكوم ، هازماً ومهزوماً ، فنحن الفريق المهزوم ،
سادة وعبيداً ، فنحن العبيد ، أهلاً لنعيم هذه الدنيا ، وأهلاً للجنة ،
فنحن أصحاب الجنة . . . « التي يرثها الجبناء » .

نحن نرفض كل تقسيم من هذا القبيل ، فلا شرق هناك ولا غرب ،
ولا شمال ولا جنوب في خصائص البشر وصفاتهم فكل شعب في
الدنيا ككل شعب آخر من حيث الاستعداد والفطرة ، وتبقى بعد ذلك
ظروف اقتصادية وسياسية . قد توجد في الشرق والغرب ، في الشمال
أو الجنوب على السواء ، فهي تظهر هنا مرة وهناك مرة .

هذا تقسيم خرافي أخذ به أصحابه لأنه يشبع في أنفسهم رغبة
الاستعلاء والسيادة ، فحين ذهب « رديارد كبلنج » إلى الهند حيث
أقام أعواماً ، ثم عاد إلى بلاده ليقول عبارته المشهورة : « الشرق
شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا » ، لم يكن بالطبع يقصد أن اختلاف
الهند عن إنجلترا هو اختلاف النظائر الأنداد ، بل أراد أن يقول
إنه اختلاف الأبيض عن الأسود ، والسيد عن المسود ، وكذلك
فيما أعتقد ، يرمي « ديورنت » إلى شيء كهذا من قوله إن التاريخ لم
يزل منذ بدايته يجري في مسلك يبدو فيه أهل الشمال سادة على أهل
الجنوب ، على الرغم من أن « ديورنت » — على نقيض كبلنج

الاستعماري المتعصب الضيق الأفق — من أشد الناس في عالمنا المعاصر
تساحاً وأوسعهم ثقافة ، وأرحبهم صدراً لما بين شعوب الأرض
من أنواع الخلاف .

هم يقولون ذلك ليشبعوا في أنفسهم رغبة الاستعلاء والسيادة ،
فماذا يقول أدباؤنا ؟ يعترفون لهم بالتقسيم ، ثم يأخذون في الدفاع
عن شرقهم أو جنوبهم ، ليظهروا مافيه من حسنات بينات ، ولست
أدرى لماذا نلزم أنفسنا بالدفاع عن قضية خاسرة ؟ لماذا نتورط في
تقسيم خرافي يزعمه سوانا لغرض في نفسه ؟ لماذا نضرب على النغمة التي
تؤكد في أنفسنا معنى التدهور والتأخر ؟

إن أعجب العجب في موقفنا ، هو أننا نختار لأنفسنا أسوأ
الفروض ، إذ الفروض ها هنا ثلاثة : الأول أن يكون التقسيم باطلاً
من أساسه لخلوه من المعنى ، ومن شاء فليدلى على الموضع من وجه
الأرض ، الذي يبدأ عنده التقسيم شرقاً وغرباً أو شمالاً وجنوباً ،
والفرض الثاني هو أن يكون التقسيم صحيحاً ، لكننا نقع من الأقسام
في الغرب دون الشرق ، وفي الشمال دون الجنوب ، وهذا هو ما اختاره
الحديو اسماعيل حين أراد أن يجعل مصر قطعة من أوروبا ، وما يجب
أن يختاره كل عاقل مخلص إذا أخذ بمبدأ التقسيم إطلاقاً ، فلو كانت
الدنيا أقساماً فلسنا أقرب إلى السنغال ويوغندا والتبت منا إلى اليونان
ويوغسلافيا وإيطاليا ، والفرض الثالث هو أن يكون التقسيم صحيحاً
أيضاً ، غير أننا نقع في الشرق دون الغرب ، وفي الجنوب دون
الشمال ، وهذا ما قد جرى به العرف ، وما قد استسلم له أدباؤنا وثبتوه

وأكدوه ، كأنما هو شرف نسعى إليه !

ليس الأمر هنا أمر ألفاظ ، وإلا لكان الخطب واحتملنا البلاء .
لكنه يصيب حياتنا ووجهة نظرنا وطرق إصلاحنا ونهضتنا في الصميم ،
إذا أردنا دستوراً سياسياً ، أو تعليماً ، أو إصلاحاً للأسرة أو المجتمع ،
بأية صورة من الصور ، فأى طريق نختار ؟ إذا أراد الشاعر أن ينظم ،
والفنان أن يرسم أو ينحت التماثيل ، والموسيقي أن يعزف ، فأى
طريق يختار ؟

عندى أن الجواب واحد واضح ، لا تردد فيه ولا غموض
لمن أراد أن ينظر إلى الأمور نظرة جادة حازمة ، وهو الجواب
الذى أجابت به تركيا صريحة جريئة مخلصه ، الجواب الواحد
الواضح هو أن نندمج في الغرب إن دماجا ، في تفكيرنا وآدابنا وفنوننا
وعاداتنا ووجهة نظرنا إلى الدنيا ، الجواب الواحد الواضح هو أن
تكون مصر قطعة من أوروبا كما أراد لها إسماعيل ، وكل من يريد
لها النهوض الذى لا يكبو ولا يتعثر ، ليس من العزة القومية في
شئ أن نحفظ لأنفسنا بطابع إذا كان هذا الطابع مما يصمم صاحبه
بالعجز والقيود والبلاهة ، فإذا اختلفنا عن أمم أوروبا وأمريكا ،
فلا ينبغي أن يجاوز هذا الاختلاف مقدار ما تختلف به تلك
الأمم بعضها عن بعض .

إننى فى ساعات حلى ، حين أحلم لبلادى باليوم الذى أشتهيه لها ،
فأننى أصورها لنفسى وقد كتبنا من اليسار إلى اليمين كما يكتبون ،
وارتدبنا من الثياب ما يرتدون ، وأكلنا كما يأكلون ، لننكر كما

يفكرون ، وننظر إلى الدنيا بمثل ما ينظرون ...
لسنا شرقا إن كانت الدنيا إلى غرب وشرق ولسنا جنوبا إن
كانت الدنيا إلى شمال وجنوب ... والتقسيم كله باطل من
أساسه على كل حال .

جناية الصحافة على الأدب

لا أظننى مسرفاً فى التقدير إذا زعمت أن تسعة أعشار الأدب المصرى تكتب مقالات فى الصحف والمجلات ، ولو أردت أن أفرق بين الأديب المصرى والأديب الأوروبى بكلمة واحدة ، قلت إن أديبنا يكتب مقالة وأديبهم يكتب كتاباً ، فطريقة الكتابة عندنا — فى أغلب الأحيان — هى أن يكتب الأديب مقالة هنا ومقالة هناك ، حتى إذا ما تجمع له مما كتب مقدار يصلح أن يكون كتاباً ، جمعه فى كتاب واختار له اسماً ، يوهم القارئ أنه كتاب ، وهو فى الحقيقى كتاب إذا كانت الوحدة فيما كتب هى وحدة القلم والكاتب ، أما إن جعلت وحدة الكتاب موضوعه ، فليس هو بالكتاب إلا على سبيل المجاز ، والمجاز هنا أساسه أن مجموعة الأوراق قد ضمها غلاف .

هذه حقيقة واقعة ، وليس بالشاق العسير عليك أن تتبين صدقها باستعراض ما أنتجه الأدباء : طه حسين ، أحمد أمين ، العقاد ، المازنى ، توفيق الحكيم ، وغيرهم ، لتعلم أن الكثرة الغالبة مما يخرجون للناس من كتب ، هى مجموعات من مقالات أو فصول ... حتى المسرحية ، هذا اللون الأدبى الذى كان يمكن أن يفلت وينجو ، لم تلبث أن طواها الاتجاه العام ، فإذا هى فى الأعم الأغلب مسرحية

ذات فصل واحد ، وكذلك القصة عندنا في معظم الأحيان هي القصة القصيرة التي تشر في الصحيفة على دفعة واحدة .

وقد يكون تعليل هذه الظاهرة في أدبنا ، هو أن أديبنا قصير النفس ، إذا قيس إلى الأديب الأوربي صاحب النفس الطويل ، ثم قد يكون هذا النفس القصير فطرة فينا ، ورثناها عن آبائنا مع سمرة اللون وسواد الشعر وكثافة الشفاه ، فالأديب العربي منذ أقدم عصوره — فيما يقال — معروف بالتركيز والإيجاز ، فتكفيه الحكمة الواحدة أو الفصل القصير ، حين لا يكتفى الأديب الأوربي بأقل من قصة طويلة عريضة ، قد تجاوز صفحاتها الألف ، ليحلل فكرة واحدة ، ويخلق لها الأشخاص خلقاً ليلبسوها ويمثلوها في أفعال وأقوال .

أو قد يكون هذا النفس القصير عند أديبنا ، نتيجة لضعف ثقافته وضيق أفقه ، فليس لديه ما يقوله عن الفكرة أكثر من ثلاث صفحات أو أربع ، في الوقت الذي يتمكن فيه الأديب الغربي بحكم ثقافته الواسعة العريضة أن يكتب الكتاب الضخم لتحليل الفكرة الواحدة ، فيبرز ظلالها وأضواءها ، ويجعلها كأنها حياً يسعى على قدميه .

ثم جاءت الصحافة عاملاً آخر ، قضى على الأدب المصري قضاءه الأخير ، وبات معه حتماً مقضياً على هذا الأدب أن يظل على صورته الممسوخة الشائهة البتراء ، التي لا تسمح للأديب أن يستقر على أثره الأدبي حيناً من الدهر يكفي لتسويته كأنناً كامل الأعضاء ، كما يفعل أدباء الغرب بما ينتجون من آثار .

جاء عامل الصحافة ، فقضى على أديبنا أن يكون صحيفياً في إنتاجه

لا خالقاً متأنياً مبدعاً ، ذلك أن الصحافة استعانت بالأدباء ، فكان لها الفضل على الأدب مرة واحدة ، لكنها كانت جناية على الأدب بألف مرة ، أما فضلها فهو أنها أتاحت لكثير من الأدباء فرصة العيش المتواضع حيناً ، والمعتدل حيناً ، وأما جنايتها الكبرى فهي أنها صبت الأدباء في القالب الذي تريد ، فإذا الأدباء في يدها مأجورون لا يكادون يسطرون من أجل الفن الحالص سطرأ واحداً ، إنما يكتب أدينا ما يصاح للصحف وما يقبله منه رئيس تحرير الصحيفة ، وللصحف ورؤساء تحريرها أساس يحكمون به أبعد ما يكون عن الأساس الذي يرضاه الفن الرفيع ، وإذا فقدت أدباؤنا في واد ، ومقاييس الفن الرفيع في واد آخر .

كيف يكتب الأديب المصري اليوم وماذا يكتب؟ هنالك صحف يومية أو أسبوعية أو شهرية ، تركزت في أيديها قوة الشراء ، بحيث أصبح محالاً أو قريباً من المحال أن ينافسها منافس تواضعت موارده المالية ، وهذه الصحف القوية بما لها هي أيضاً واسعة الانتشار ، لأن الأمر هاهنا كالحلقة المفرغة : قوة مالها توسع من انتشارها ، وسعة انتشارها تزيد من مالها ... والأمر عند رؤساء التحرير في تلك الصحف ، هو كالأمر في كل بيع أو شراء ، فهم كباعة الفاكهة والخضر يريدون أن يعرضوا على وجه الصندوق أو على سطح المقطف برتقالتين كبيرتين تخفي وراءهما البرتقال الصغير ، أو كرنبة ضخمة تستوقف الأنظار ، فيدق رئيس التحرير التليفون إلى فلان الأديب الكبير صاحب الاسم اللامع ، ويطلب منه مقالا لعدد هذا الأسبوع أو هذا

الشهر ، والأجر الكبير المعروض كفيل خير كفيل للأديب الكبير
أن يضعف فيكتب ، ولا عليه حرج لأنه بشر كسائر البشر يريد
أن يعيش .

فماذا يكتب الأديب عندئذ ؟ إنه لا يكتب ما يمليه عليه فنه ، أو
ما كان ينبغي أن يمليه عليه الفن الرفيع ، بل يدير في رأسه نوع المجلة
التي طلب إليه أن يكتب مقالة فيها ، فيكتب شيئاً يلائمها ويلائم
قراءها ، وإذا لم يفعل ، فقد يقبل منه رئيس التحرير هذه المرة حياء ،
لكنه لن يعود إليه مرة أخرى .

يقول الأديب لنفسه إذا ما هم بالكتابة . إن قراء هذه الصحيفة
هم أوساط المثقفين ، الذين لا يطلبون إنشاء رزينا رصينا ، ولا يقوون
على خلق أدبي رائع ممتاز ، إنهم طراز من البشر يشتري المجلة لتسلية
في الترام أو عند الحلاق ، فلا بد من مراعاة ذلك في اختيار الموضوع
ومعالجته معا ، فينبغي للموضوع أن يكون خفيفاً لطيفاً ، وأن يعالج
على نحو مسل ظريف ، وعلى هذا الأساس يكتب الأديب ، فليس
هو حراً كل الحرية في اختيار ما يكتبه ، ولا في الطريقة التي يعالج
بها موضوعه ، بل ليس هو حراً كل الحرية في طول ما يكتبه ، لأنه
يكتب ليملاً فراغاً طوله كذا سطرأ وعرضه كذا نهراً ، إن رئيس
التحرير يأمره بما يريد ، وهو يصدع بالأمر راضياً أو كارهاً ، فإذا
عرفنا أي الدوافع يحدو رئيس التحرير في نوع ما يطلبه ، عرفنا من
هو الأمر الحقيقي الآن الذي يستبد بأرباب القلم ! إنهم أنصاف
المثقفين وأرباعهم .

ولا تقل إنها الديمقراطية في الأدب ، وإنه لأعيب في الديمقراطية بكل صورها ، سياسياً وأدبياً ، لا تقل : ماذا تريد ؟ أتريد للآديب أن يكون مترفعاً يخاطب الطبقة الأرستقراطية في مالها وثقافتها ؟ لا تقل ذلك لأنني ما أردت شيئاً منه ؟ لأن الديمقراطية في الأدب كما فهمت في الغرب لم تكن قط شيئاً كهذه الأسماء التي يضطر أدباؤنا إلى صناعتها والاشتغال بها دون ما قد يستطيعون من آثار خالدة باقية . كان أهم معنى للديمقراطية في الأدب عند الغرب — فيما أعلم — هو اختيار الآديب أشخاصاً من سواد الشعب يصورهم بأدبه ، فلم يعد شرطاً أن يجعل أشخاصه ملوكاً وأمراء ، بل أصبحت الخادم الساذجة تصلح أن تكون بطلان لقصة ، يهتم الآديب بتحليلها وتثريتها ، وبهذا جعل عنايته ملاحظة أوساط الناس كيف يعيشون وكيف يشعرون ويفكرون ، لا ليكتب ذلك على النحو الذي ترتضيه الصحافة الأسبوعية أو الشهرية ، بل على الصورة التي يرضاها الفن المتمهل المتأن الذي يسوى خلقه تسوية كاملة في كتاب كامل يقصر حيناً ويطول حيناً ، حسب ما تقتضيه أوضاع الفن ، لا حسب ما يأمر به رؤساء التحرير .

إنه من حسن حظنا — أبناء هذا الجيل — أن أدباءنا قد وجدوا بعض الفراغ فيما مضى — لم تشغل الصحف عندئذ كل وقتهم ، لأنها لم تكن — فيما يظهر — قد تنبعت إلى شراء هذه السلعة الراجعة ، من حسن حظنا أن أدباءنا قد وجدوا في ماضيهم فراغاً أنتجوا لنا فيه قطعاً أدبية نعتز بها ، وإن تكن من النوع الذي لا يرتضيه رؤساء

التحرير ، وإنى لأتساءل جادا : ماذا عسى أن يؤول إليه الأمر بعد عشرة أعوام أو عشرين ؟ أذكر لى أديباً واحدا اليوم لم «تستخدمه» الصحافة استخداماً يعود عايتها بمئات الجنيهات وألوفها ، ويعود على الأدب الرفيع بالفقر ، وكدت أكتب : بالخزى والعار ؟ إنه بعد عشرة أعوام أو عشرين ، لن تجد مقالا واحدا يكتب من أجل الفن الرفيع ، لأن «أشلاء» المجلات الأدبية الباقية فى طريقها إلى الزوال والباقيات الفاسدات ، لأن العبرة فى الباقيات هى سعة الانشمار وقوة المال ، ولم يعد الأديب الكبير يرضى أن يضيع وقته فيما لا يعود عليه بالكسب ، والكسب مرهون بطاعة رؤساء التحرير . . ان الذى يعمل الآن فى تسيير الأدب المصرى هو قانون تنازع البقاء وبقاء الأفسد ، لا لأن أدباءنا غير قادرين على انتاج الصالح ، بل لأن الصالح ليس هو ما يأمر به رؤساء تحرير الصحف القوية الغنية ، وأدباؤنا قد باتوا اليوم فى حكم المحررين فى تلك الصحف ، وقل على جودة الانتاج ألف عفاء .

ومن أنواع التسلية — اذا أردت تسلية — أن تتعقب الأدباء وهم يتجمعون فى صحيفة بعد صحيفة . كما ينتقل مركز البيع والشراء فى المدينة من شارع إلى شارع ، كان شارع الموسيقى هو مركز الحركة التجارية فى عهد مضى ، ثم انتقل مركز التجارة الى شارع فؤاد الأول وكأنى به اليوم ينتقل الى شارعى قصر النيل وسليمان باشا ، وهكذا الصحف والأدباء ترى بمجموعتهم فى هذه الصحيفة مرة ، ثم فى هذه الصحيفة أخرى ، لأن الصحف تتنافس كما تنافس دكاكين البقالة ،

فقد يعن لصحيفة منها أن تضارب زميلاتها بالاكتثار من أجور
الأدباء الكبار ، فيجتمع لديها هؤلاء ، ثم تعود صحيفة أخرى فتمسك
بالزمام ، ويعود الأدباء فيرحلون رحلة جديدة ، وهكذا ، ولسنا
نكره بالطبع أن يُجر الأدباء أعلى الأجور ، إنما الذي نكرهه
وننشأ له ، أن تكون هذه الأجور ثمنا لطاعة الأدباء ، فلو ساء
التحرير أن يأمرُوا وعلى الأدباء أن يطيعُوا ، كأن الأمر مقاولة
وبناء ، فأضع التصميم الذي يعجبني وأستأجر البناء لينفذ لي ما أريد
دون أن يكون له حق الاعتراض ، إذا حدث هذا فلا فن في بناء ،
وكذلك قل في فن الكتابة وفي أي فن آخر .

جناية الصحافة على الأدب جنائية كبرى ، لا تعوضها الجنيئات
القليلة التي تدفعها لأدبائنا ثمنا بخسار خيصة ، يموتون بعده فقراء — كما
مات المازني ، فأولا تجنت الصحافة على الأدب فجعلته مقالات قمارا
ولم تفسح من الوقت لأدبينا أن يتفرغ للكتاب المسهب المطول ،
وثانيا جعلت مدار ما يكتب هو ذوق الجمهور القاريء من حيث
الصنعة والآداء ومن حيث الموضوع والمعنى ، ولو سارت الحال على
هذا النحو عشرين عاما ، فلن تدور مجلات المطابع بكتاب واحد
يمتاز بخرجه أديب إنتاجا خالصا لوجه الفن الرفيع .

هناك ، على مبعدة نائية من المدينة وصخبها ، وفي أحضان النخيل
المشايك المتعانق ، أقام هذا الفنان الشرود لنفسه داراً من الطين ،
تراها بقبابها وسط الزرع ، فيخيل إليك أنك دان من مهبط ولى من
من أولياء الله ، نفرت به قداسة روحه عن مطارح العمران . وتدخل
الدار فيزداد هذا المعنى شيوعاً في نفسك ، منذ تنحنى راعياً لتدخلها
من باب وطىء ، إلى أن تدور في قيعانها القليلة البسيطة المترعة بالروح
في كل شبر من أرضها وجدرانها وسقفها . . . ويودعك الفنان
وزوجه الفنانة ، وكأنهما ملكان طاهران ، قد نظرا إليك نظرة
الاشفاق ، أن تركت لهما ركناً معموراً بالروح والمعنى ، لتعود
إلى مدينة مزدحمة الأرض والهواء بكل ما تضيق به الصدور
وتكتئب النفوس .

أغفل هذا الفنان الشرود التفور مدائننا وشوارعنا ويوتنا
وأسواقنا وموانئنا ومآكلنا ومشاربنا وأطماننا ، ليعيش هو وزوجه
في تلك العزلة النائية ، فينصرف إلى الطبيعة يستمد منها الحياة غزيرة
دفاقة ، واسمع له يحدثك في هدوئه العجيب الأخاذ ، كيف تمتلئ
الطبيعة في كل ركن من أركانها بما تهتز له النفوس الحية اليقظ فتنة
وإعجاباً ، ألا خست عينان تغضيان عن هذا الغصن ، وهذه

الصخرة ، وتلك الصدفية ، وهاته الحشرة ، أنظر إلى هذه الحشرة يوما
ويوما وأياما ، تطالع فيها كل يوم جديدا من ترتيب وتنسيق ونظام
وجمال وجلال ، سبحانك اللهم خالق الخلق ! .
وفي هذه اللفات إلى ما يظنه الناس سمغائر توافه ، وما يرى فيه
الفنان موضعا للفننة ومصدرا للسحر ، ثم فيما بين كائنات الطبيعة من
وحدة وإخاء ، برغم ما يبدو فيها من تباين وخلاف . يدر « حامد
سعيد » بفسكره وفنه ، وعلى هذا الأساس يقيم مدرسته ، وبهذا المبدأ
يعلم حواريه .

وأين عسى هذا الفنان المصرى الصميم جسما وروحا ، أن يجد
مصدر إلهامه ؟ عند أجداده القدماء ، عند المصريين الأوائل ، فتراه
مع تلاميذه فى المتحف المصرى ينظرون ويتأملون ويستوعبون ،
ليمتلئوا روحا ، ثم يعودون إلى لوحاتهم ليصبوا أرواحهم المترعة
آيات من الفن الجميل .

وشعار هذه الجماعة هو تمثال « حتحور » أنظر إليه ، كيف اتحد
فيه الإنسان بالحيوان والطبيعة ، هذا إنسان واقف تحت عنق البقرة
وكأنه جزء منها ، وهذه بقرة لها قرنا ثور ليحى عندك كل تفريق بين
ذكور الطبيعة وإناثها ، ثم هذه هى الشمس قد استقرت بين القرنين
فى اتساق وانسجام ، بهذه العين ينظر الفنان وتلاميذه إلى الأشياء ،
فيرون الطبيعة كلا واحدا لا تجزئة فيه ، وهذا الكل مائل فى كل جزء
كأنما ما كان ، فى هذا الغصن الجاف روح الطبيعة كلها .

وفى هذه الصدفية الخاوية سر الكون كله ! أنظر إلى هذه الصدفية

الخواية التي قد تصادفك ملقاة على رمل الشاطئ فلا تعبرها التفاتا ،
تأمل أى ركن شئت من أركانها ، ترفيه الثنايا والخطوط والتعاريج
على اتساق كأنه أنغام اللحن المنسجم ، ثم اجمع هذه الألحان بعضها
إلى بعض ، تجد فى الصدفه الخاوية الملقاة على رمل الشاطئ بناء
موسيقيا كاملا ، قد يشغلك التفكير فيه ، وتتبع أجزاء وبنائها واتساقها
يوما وأياما ، وتلك هى الطبيعة العامرة !! .

أو انظر إلى جذع هذه الشجرة ، التى قد تتفيا ظلها وأنت لا تدري
ماهى ! أنظر إلى هذه الأجزاء المتآخية فيه . كأنما قد تعاقد كل منها
مع أخيه على أن يكون له مؤازرا وظهيرا .

* * *

زرت حامد سعيد فى داره النائية ، وزرت المعرض الذى أقامه
لرسوم تلاميذه فى متحف الفن الحديث ، فعرفت معنى جديدا لأشياء
كنت قرأتها ، وكنت ظننت أنى فهمت معناها !! فقد كنت قرأت
فيما قرأت ، هذه الفقرة الآتية فى «يوبانشاد» — الكتاب الهندى
المقدس — التى عبر بها الهنود عن عقيدتهم فى وحدة الوجود ، وفى
أن الكائنات كلها تعبير عن إله واحد قهار ، فأضيت لى اليوم
بضوء جديد :

« لم يشعر بغبطة بادىء ذى بدء ، لأن واحدا وحده لا يشعر
بغبطة ، فتطلب ثانيا ، وكان فى الحق ذا حجم كبير ، حتى ليعادل
جسمه رجلا وامرأه تعانقا ، ثم شاء لهذه الذات الواحدة أن تنشق
نصفين ، فنشأ من ثم زوج وزوجة ، وهكذا تكون النفس الواحدة

وهذا الفراغ تملؤه الزوجة ، وضاجع زوجته وهذا أنسل البشر
وسألت نفسها الزوجة قائلة : « كيف استطاع مضاجعتي بعد أن
أخرجني من نفسي ، فلا أخف » ، واختفت في صورة البقرة ، فانقلب
هو ثورا ، وزاوجها حقا ، وكان بازدا واجها أن تولدت الماشية ،
فاتخذت لنفسها هيئة الفرس ، واتخذ لنفسه هيئة الجواد ، ثم أصبحت
هي أتاناً ، فأصبح هو حمرا ، وزاوجها ، وولدت لها ذوات الحافر ،
وانقلبت عنزة ، فانقلب لها تيسا ، وانقلبت نعجة ، فانقلب لها كبشا ،
وزاوجها حقا ، وولدت لها الماعز والخراف ، وهكذا حقا كان
خالق كل شيء ، مهما تنوعت الذكور والإناث ، حتى تبلغ في التدرج
أسفله إلى حيث النمال ، وقد أدرك هو حقيقة الأمر ، قائلا : حقا
أفنى أنا هذا الخلق نفسه ، لأنني أخرجته من نفسي .. وهكذا نشأ
الخلق .

ولكن « حامد سعيد » لم يقف عند الحيوان وحده في تصوره
لوحدة الوجود ، فأضاف إليه النبات والمحار والحجر ! نعم ، فهمت
معنى جديدا لوحدة الوجود بعد زيارتي لهذا الفنان العجيب ، وآمنت
بصدق مقاله القديس برنار : « إن ما تعلمته من العلوم الدينية ومن
الكتاب المقدس ، قد عرفته من الغابات والحقول ، فليس لي من معلم
سوى أشجار الزان والبلوط ... إن الشجر والحجر ، يعلمانك أكثر
مما تتعلمه من شفتي الحكيم ... »

ليس من عجب بعد هذا كله ، أن ينقل حامد سعيد رسومه
ورسوم تلاميذه يعرضها في لندن ، فيكتب فيها « هربرت ريد » -
وهو في إنجلترا إمام في عالم الفنون - مايلي :

« ... لما طلب إلى منذ أسايسع أن أرى نتاج طائفة من الفنانين
المصريين .. ذهبت لايجادوني شيء من رجاء عظيم ، فما أكثر ما خاب
رجائي فيما مضى ، وأنا الناقد الفني في مثل هذه السن وهذه الخبرة ..
فآخر ما كنت أتوقعه ، أن أرى أصالة حقيقية ... لكنني ما كدت
أبصر رسمين أو ثلاثة من رسوم الفنانين المتصلين بحامد سعيد ، حتى
أدركت أنني إنما أرى فنا أقل ما يقال فيه إنه لا ينساق وراء الأساليب
الجارية ، فهو فن فيه من صدق الفنان ما يلزمك إلزاماً أن تقف
له معترفاً به ، وليست كلمة « الصدق » بالكلمة التي تجرى هذه الأيام
على اللسان إذا ما أردت وصفاً لشيء مما ينتجه الفن السائد ، لكنها
أول كلمة ترد على ذهني وأنا مائل أمام رسوم بلغت مدى بعيداً من
الإخلاص - لا أقول إخلاص الفنان للطبيعة نفسها ، بل إخلاصه
في إخراج مواقع الطبيعة من نفسه ..

... وإنما سر الاصالة في هذه الرسوم ، وما يخلع عليها هذه
القوة التي تفردت بها ، هو الفلسفة الكامنة وراءها ... » .

ولو قد زار الناقد العظيم « هربرت ريد » حامداً في بيته الذي
نأى به عن العمران المدنى ليزداد قرباً من أحضان الطبيعة لأضاف
إلى قوله ذاك عبارة أخرى ، هي :

وسر الاصالة في هذا الفنان العجيب . وما أضنى عليه روحاً
عجيباً تفرد به ، هو افلسفة الكامنة وراء حياته التي يحياها .

طوائف تارة — افس

في مصر — كما في غيرها — طوائف من الموظفين ، ففيها مدرسون ومهندسون ، وفيها ضباط للآمن وضباط للقتال ، وفيها أطباء وقضاة ، وفيها غير هؤلاء وأولئك من سائر عباد الله .

لكن الذي في مصر — وليس في غيرها — هو هذا التنافس العجيب القائم بين هذه الطوائف ، ولست بحمد الله من « فقراء » الهنود بحيث أصبح بالناس أن كفوا عما أنتم فيه من قتال وتنافس وسالموا واستسلموا ، لأنني أعلم أن الحياة في صميمها ليست إلا هذا التنافس وذاك القتال ، لكن الذي يستوقف نظري ويستثير عجبى هو أن هذا التنافس القائم بين طوائف الموظفين في مصر ، قد أقام نفسه على أساس من علم الفلك القديم كما عرفه بطليموس ، وكان حقه أن يتمشى مع العلم في تطوره ، فيقيم دعائمه على أساس من علم الفلك في صورته الراهنة التي رسمها له كوبرنيق ، خشية أن يظن الناس بهؤلاء الموظفين جهالة وإنهم لعالمون ، ولو غيروا من وجهة نظرهم وبدلوا من أساسهم ، لرضيت عنهم أنفسهم ، ورضى العلم ، ورضى الوطن جميعاً .

وقد تقول : وما شأن هذه الدرجات يطلبها المهندسون فيطلبها في أثرهم المدرسون ، وما شأن هذه « الأقدار » المالية يظفر بها

القضاة فيلاحقهم بها المدرسون والمهندسون معاً، وما شأن ضباط القتال يسبقون ضباط الأمن فيما تزدان به أكتافهم من أنجم وتيجان، فيثور ضباط الأمن لما ظفروا به من دونهم ضباط القتال ! ما شأن هذا كله بعلم الفلك كما تصوره بطليموس أو كوبرنيك ؟ هذه الطوائف المتنافسة جميعاً تمشي ها هنا على الأرض « في غير مرجح » وأما هذان العالمان فكانا يسبحان في السماء صلفاً بين الكواكب والأفلاك، فأين الشبه بينهما وبين هزلأ ؟ .

قد تقول ذلك فهاك البيان : كان ما كان في قديم العصر والأوان، عالم فلكي يدعى بطليموس ، يقيم في مدينة الاسكندرية — ولست والله أدري لماذا اختار له الله مدينة مصرية ، ليهبط فيها عليه الوحي بفكرته الفلكية — فكان من رأى هذا العالم أن أرضنا هذه القليلة الضئيلة النحيلة ، هي من دنيا الله الواسعة الفضاء بمثابة القطب من الرحي ، تدور حولها سائر الشمس والنجوم ! فالشمس والقمر ومريخ وعطارد والزهرة والمشتري وما شاء الله من أجرام وأجسام تدور حولها وهي في مكانها لا تتحول ، لأنها أعظم عند الله قدراً من أن تدور مع الدائرين ، ولو قد نطقت هذه الأرض بلسان حالها كما تصورها بطليموس ، ل قالت إني رأيت ملايين الكواكب والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . . . وكان لا بأس على بطليموس من هذا النظر ، لأن الدنيا كما رأتها عينا ، كانت أضيق من الدنيا كما يعرفها الواقع .

ثم اتسع في أعين الناس الأفق ، فرأوا عالماً فسيح الأرجاء واسع

الجنبات ، وأدركوا أن الأرض يستحيل أن تكون قطباً لهذا كله ،
والإلا لاقتضى الأمر لبعض الأجرام السماوية البعيدة عنا أن تقطع
الفضاء بسرعة مستحيلة حتى يتسنى لها أن تدور حول الأرض المكرومة
فى كل يوم مرة ، وهاهنا تدخل فى الأمر فلكى آخر ، هو كوبرنيق
وكان فى مدينة ايطالية ، لم يشأ له الله أن يكون مقامه على أرض
مصرية ، فرأى الدنيا بمنظار آخر ، جعل يدير منظاره فى أرجاء السماء
ليرقب النجوم فى مسالكها ويساير الكواكب فى مسارها ، ثم قال
فى بساطة صاحب القلب الطيب والنية السليمة : كلا ! بل إن هذه
الأرض كوكب كسائر الكواكب ، وهى تدور حول الشمس كما
أن غيرها يدور ، وبهذا القول البسيط تغير وجه العلم كله ! .

ولعلك تدرك الآن ما أردته حين زعمت لك أن التنافس القائم
بين طوائف الموظفين فى مصر ، قد أقام نفسه على أساس من علم
الفلك كما رآه بطليموس ، وكان حقه أن يتابع كوبرنيق لتستقيم
الأمر . فالمدرسون والمهندسون وضباط الأمن وضباط القتال
والأطباء والقضاة وغير هؤلاء وأولئك من سائر عباد الله ، تريد كل
طائفة منها أن تكون مركزاً يدور حوله العالم بأسره ، لأنها لا تفكر
إلا فى نفسها ، ولا ترى الدنيا إلا بمنظارها ؟ هذه هى الدنيا تجرى
أنهارها ذهباً نضارا فلماذا لا يعينى منها إلا جنهيات قليلة ؟ .

ولو قد استعارت هذه الطوائف المتنافسة منظار كوبرنيق ، إذا
لرأت أن هناك شمساً كبرى — هى مصر بأسرها — ولرأت كل
طائفة منها أنها كوكب واحد من كواكب ، وأن مصلحتها واحدة من

مصالح ، فليست إذا هي كل شيء ، ويستحيل أن تتدفق أنهار الذهب في جيوبها وحدها .

لكن لا ، كل طائفة من هؤلاء تحصر نظرها في نفسها وتأبى إلا أن تكون أسبق من سواها وأفضل ، فاذا وجد السابق أن المسافة التي تفصله عن مسبوقة قد نقصت ، غدا في المسير وأسرع في الخطى يستعيد مكانته ، والمسبوق يخضبه أن يكون فوقه سابق على الإطلاق ودع عنك أن يرضى بمسافة تقل أو تزيد .

وكان أولى الأمر إذا ما رأوا المسبوق غاضبا دفعوه إلى الامام قليلا لعله يدنو من سابقه حتى إذا ما غضب السابق لهذه الالهانة التي لحقت به دفعوه إلى الامام قليلا كذلك ليسترد مكانته بالقياس إلى سواه .

وإن ذلك ليذكرني بقصة من حياتي الماضية ، كنت مدرسا في بلد ريفي حيث لافنادق ولا مطاعم ، فاستخدمت طاهية من أهل البلد تطبخ لي الطعام ، وكنت أجد في طهيها فكاكة أكثر مما أجد غذاء ، وطلبت منها ذات يوم أن تعد لخدائي شيئا من محشو الكرنب ، فلما عدت ساعة الغداء وجدت الكرنب المحشو الذي رجوت ، لكنني وجدت منه « قرانا » كبيرا يكفي مدرسة بأسرها لامدرسا واحدا .

- ما هذا كله يافاطمة ؟

- كرنب محشو كما أمرت ياسيدي .

- لكن لمن هذا كله ؟

- وماذا أصنع ياسيدي ؟ اشتريت كرنبة واحدة ودور طلاوا احدا

من اللحم ، وأعددت مادة الحشو وأخذت أحشو ، فإذا بمادة الحشو
تنتهى والكرنبة بعضها باق ، فاشتريت رطلا آخر من اللحم وأعددت
مادة جديدة للحشو وأخذت أحشو ، فإذا بالكرنبة تنتهى ومادة
الحشو بعضها باق ، فاشتريت كرنبة ثانية وأخذت أحشو ، فإذا بمادة
الحشو تنتهى والكرنبة بعضها باق ... وهكذا دواليك ياسيدى ، ولا
تسل كم أنفقت من وقت وكم أنفقت من جهد حتى فرغ الكرنب
والحشو فى آن معا .

— لقد ذكرت ما أنفقته من وقت ومن جهد ، ولم تذكرى
ما أنفقته من مال .

— أى والله ياسيدى لقد كلفتك هذه « الطبخة » قدرا كبيرا .

— لكن يافاطمة هذا غير معقول ، فلو حسبت ...

— أنا ياسيدى كما تعلم لا أعرف ما تعرفه أنت من العدو والحساب
فلم أتعلم فى المدارس كما تعلمت ، فهل لك أن تدلنى على طريق صواب
كنت أسلكه ؟ .

— لا تعتيد فى الأمر يافاطمة ، لما فرغت منك الدفعة الأولى
من مادة الحشو ، لماذا لم تقذفى ببقية الكرنبة فى صفيحة القمامة ؟ .

— صفيحة القمامة ياسيدى ؟ أرمى الكرنب فى القمامة ؟ وماذا
كنت تقول إذا ما عدت ونظرت فرأيت كرنبك الذى اشتريته بمالك
ملقى فى القمامة ؟ كنت بالطبع تملأ لنا الدنيا صياحا ، وتحتج قائلا :
كيف تقذفين بالكرنب فى القمامة ، ولماذا لا تشتريين له رطلا من
اللحم ؟ .

فأدركت أن الحوار لن يذهب بنا إلى نتيجة ، وهزئت رأسي
متعجبا باسمي ، حتى لقد ظننت أنها أفحمتني بالحجة القوية وراحت
تقول في زهو :

— ليست العبرة بالمدارس وحدها ياسيدي . . . مازلنا مثلكم
ناسا نفهم ونحسب ...

ذكرت قصة فاطمة ومحشو الكرنب حين فكرت في هذه
الطوائف التي يلاحق بعضها بعضا كأنها في سباق ؟ فالحكومات المتعاقبة
هي فاطمة في هذه القصة ، لا تجد في نفسها شجاعة تتذرع بها فتلقى
بشيء من الكرنب في القمامة لتقف من الأمر عند حد معقول ، بل
لبثت تعالج الأمر بمحايلة هذه الطائفة مرة وهذه الطائفة مرة ، راجية
أن تحل العقدة نفسها حين تصل الطوائف في حلبة السباق حدا يرضاه
الجميع ، ولن يكون ذلك إلا إذا ضحمت « الطليخة » وناعت ميزانية
الدولة بتكاليفها .

الأديب بين يوم —هـ وغده

سمع شاعر من شعراء الانجليز بشاعر من شعراء الفرس ، فقرأ له ثم قرأ ، ودهش للذي قرأ فأعاد ثم أعاد ...

« لله هذا الجمال النادر ! أترك هذا « الخيام » دفيناً في فارسيتها فلا أبتعث « رباعياته » ، إلى حيث تشهد النور ، فيستمد منها بنو وطني نورا على نور ؟ ... لأترجم هذا السحر القاتن »

وراح « فتزجر ولد » يترجم . فكان مما ترجم :

ها هنا في ظل هذى الغصون : رغيـف الحبـز في يدي ،

وزق الخمر ، وديوان الشعر ، ثم أنت في صحبتي

إلى جانبي تنشدين الغناء في هذا القفر الأجرد ،

إيتني بذاً وذا يكن لي من هذا القفر جنتي

ومضى الشاعر في ترجمته للزميل الفارسي حتى فرغ ، فماذا هو

صانع بهذا الذي صب فيه النفس صباً ؟ أيذهب به إلى الناشر ؟ لكنه

شاعر مغمور والناشر لا يجازف بماله إلا لكاتب مشهور . لأذهبن

إلى أستاذ اللغة الفارسية في أكـ..فورد ، فلعله إن شهد بصدق الشعور

في الترجمة ، كانت شهادته عند الناشر شفيعا .

وجلس الأستاذ والشاعر إلى نضد يواجه أحدهما الآخر وأمسك

الأستاذ بالأصل الفارسي في يمينه وبالترجمة الانجليزية في يسراه ،

وجعل يهتمهم لنفسه : « ها هنا في ظل هذى الغصون ... »
ونقر الأستاذ بأصبعه على الأصل الفارسي ورفع عينيه إلى الشاعر
الشاب : « لم يذكر الخيام غصونا في قصيدته » .

فأجاب الشاعر : « وما ذاك ؟ لقد أنبأتك أني امتصت من
القصيدة شعورا فصيبته في لغتي شعورا مثله . فلم أقصد إلى ترجمة حرفية
أجتاز فيها امتحانا في معاني الألفاظ . »

فهر الأستاذ رأسه وتمتم وهو يقلب لأصل الفارسي وقال :
« رغيف الخبز ، موجود ، وزق الخمر ، مذكور ، وأنت في صحبتي ،
صحيحة ، لكنك حذفت جزءا هاما من رباعية الخيام ، فقد ذكر
عمر إلى جانب هذه الأشياء ، فخذاً من الضأن . ، على كل حال ، هل
فرغت من ترجمة القصيدة كلها ؟ » .

— نعم . فأين أرسلها ؟ .

— ابعث بها إلى الصحيفة الأدبية الفلانية وسأكتب للمحرر
خطابا أوصيه بك خيرا .

مضى عام كامل والصحيفة الأدبية لم تنشر للشاعر قصيدته ،
فأرسل إليها الشاعر خطابا شديد اللهجة يطلب أن ترد له قصيدته التي
أسرى فيها روحا من روحه ، فدار حديث بين رئيس التحرير
ومساعدته .

رئيس التحرير : ابحث لي عن قصيدة هذا الرجل بين أوراقك ،
فإن وجدت أبعدها إليه مصحوبة بخطاب اعتذار .
مساعد التحرير : ما عنوانها ؟ .

رئيس التحرير : هي قصيدة صينية أو هندية لست اذكر ،
وعنوانها غريب لا أستطيع نطقه ، فهاك خطاب الرجل فاقرأه ،
اعتذر له بخطاب لأنه صديق لأستاذ الفارسية في اكسفورد .

مساعد التحرير : ها هي ذى .

رئيس التحرير : اقرأ الى منها سطرا أو سطرين من أى موضع
شئت .

مساعد التحرير :

ها هنا فى ظل هذى الغصون : رغيـف الخبز فى يدى .

وزق الخمر ، وديوان الشعر ، ثم أنت فى صحبتى ...

رئيس التحرير : ما رأيك فى شاعر يذكر الخمر فى شعره ؟

مساعد التحرير : هذا فحش يا سيدى لا نرضاه لقرائنا . ثم اسمع

ياسيدى لهذا الشاب المستهتر يمضى فى قصيدته فيصف لنا جماعة من

مدمنى الشراب قد أنفقت سواد ليلها أمام الحان ، حتى إذا ما تنفس

الصبح راحوا يخبطون الباب لصاحب الحان كي يفتح لهم ليواصلوا

شرابهم ، فالحياة قصيرة ومن يمضى عنها لا يعود . واسمعه ها هنا يجادل

العلماء فى الفلسفة والدين فلا يفهم عنهم شيئاً لأنه مخمور ، فينادى

بمزيد من الخمر ليغرق جهله فى حبابها . لا ياسيدى لا ، كان الله فى

عوننا من شباب هذا الجيل ! .

رئيس التحرير : امض فى قراءتك ، فانه ليخيل الى أن شعر هذا

الشاب لا يخلو من جمال .

مساعد التحرير : جمال ياسيدى ! إنه يعترف بأنه لا يعبأ بالعلم

ولا يهتم به ، وكل ما يفكر فيه هو الخمر . واسمع ها هنا ماذا يقول !
يقول لك إن الدنان الفارغة المهمة على رفوفها تحلم بأيام كانت فيها
مترعة بخمرها ، أسمعت هذا ؟ . وها هنا أيضا ، البلبيل ينادى الورد
صائحا : الخمر ! الخمر ! الخمر ! أعوذ بالله ، لا ياسيدي ، إن صحيفتنا
معروفة لقراءها بوقارها ، ولا يجوز أن نرسل أعدادها إليهم وهي
تترنج ، وثق بأن نشر قصيدة كهذه معناه لصحيفتنا الموت والفتنة .

رئيس التحرير : لاجدال في هذا ، أعددها إلى صاحبها فما إلى
هذا الحد البعيد يكون التسامح في ضيعة الأخلاق .

ووصلت القصيدة إلى صاحبها ، فحملها إلى الطابع يريد طبعها بما
عنده من مال ، لكنه آثر أن يستشير وراقا صديقا ، فدار بينهما
هذا الحديث :

الوراق : ماذا تقول ؟ تطبع شعرا وتنفق مالك في طباعته ؟ أين
في هذه الأيام من يقرأ الشعر ؟

الشاعر : عدنى بشيء واحد ، ولا عليك بعد ذلك ، عدنى بأن
تضع الديوان بعد طبعه في معرض الكتب في دكانك هذا .

الوراق : لك منى هذا . لكنى أعيد تحذيرى ، ليس بين زبائنى
رجل واحد يشتري الشعر ، وليته شعرا وكفى ، بل هو شعر فارسى !!
لا يا صديقى ، أنا أحدثك الآن حديث الخبير ببيع الكتب وشرائها .
الشاعر : سأطبع القصيدة ، فانصحنى كم نسخة أطبع منها .

الوراق : إذا فاطبع مائتين لا تزدد ، واسمح لى مرة أخرى أن
أحملك على العدول ، إن عيالك أولى بهذا المال على قلته ، فما اضطرارك

إلى طباعة شيء لا يجد قارئاً واحداً ؟ .

الشاعر : لست أدري ، لكن روح الخيام لا تمنى لحظة واحدة ،
إنها تلح على وتلحف ، مازالت كذلك حتى ترجمته ، وهى مازال كذلك
ولن تزال حتى أطبعه .

وطبع الشاعر « رباعيات الخيام » وأنفق على طبعها ما لا كان
يحتاجه لقوته وقوت أسرته ، طبع منها مائتى نسخة كما أوصاه الوراق
وكان الوراق عند وعده للشاعر — وإنه لو عدسخى كريم — وهو
أن يعرض له كتابه الصغير بين ما يعرض من كتب !

عرضت « الرباعيات » وكتب عليها الثمن بما يساوى خمسة وعشرين
قرشاً ، فدخل الزبائن إلى دكان الوراق وخرجوا من دكان الوراق ،
ثم دخلوا وخرجوا ألف ألف مرة ، والرباعيات ملقاة على النضد
ضرع إلى كف كريمة تسخوها مرة واحدة بخمسة وعشرين قرشاً !!
وعلى هذا النحو مرت سنون !

وكان الشاعر يخجله أن يسأل صديقه الوراق كم بعث من الكتاب
لكثرة ما سأل السؤال ، ولكثرة ما أجابه الوراق بالجواب : لم أبع
منه نسخة واحدة يا صديقى الشاعر . مكث الشاعر للوراق رسالة
صغيرة ذات يوم يهدى إليه الرباعيات بنسخها المائتين جميعاً ، فما لبث
التاجر اليأس من تصريف بضاعته الكاسدة أن أنزل الثمن إلى نصف
ما كان ثم إلى نصف النصف وهكذا ، ولم يجد الكتاب شارباً .

وكان فى ركن من أركان الدكان صندوق كبير ألقيت فيه أكداش
من كتب قديمة منوعة ، وكتب على الصندوق : (الكتاب من هذا

الصندوق بنصف قرش) وفي هذه الهاوية ألقى الرجل بآية الشاعر ،
بل بآية الشعارين ، وتركها للتراب يضر جبهتها بما يشاء أن يعضر .

ولكل فولة كيال — كما يقولون — جاء إلى دكان الوراق شاعر
مفلس ليس في جيبه إلا بضعة قروش ، كما أرادت الأيام للشعراء
والأدباء أن يكونوا ، لافرق في ذلك بين كبيرهم وصغيرهم ! لكن الشاعر
المفلس يريد أن يقرأ كما يريد ذلك سائر عباد الله ، بل هو في ذلك
أكثر من سائر عباد الله ، إذأ فليستبضع لنفسه كتاباً أو كتابين من
ذوات نصف القرش الملقاة في جوف الصندوق ، وشاء القدر أو قل
شاءت ربات الفنون أن يدلى الشاعر بيده في الصندوق ليخرج بين
أناملها كتاباً من « الرباعيات » وقرأ الرباعية الأولى ، فقطب جيبه في
اهتمام ودهشة ، وجعل يقرأ ، فاذا الرباعيات كلها سحر وفتنة ، وعز
عليه أن يشتري نسخة واحدة من هذه الآية العصماء ، فدفع للتاجر
ثمان أربع وأخذ من الكتاب أربعاً !

كان هذا الشاعر المفتون بما قرأ من رباعيات الخيام ، هو
« روزقي » ، ذهب إلى داره فلم يستقر له على كرسي قرار ، فقصد
إلى شاعر صديق على غير موعد :

— أي صديق « سونبرن » ، خذ يا صاح فاقراً !

وقرأ الشاعر « سونبرن » ولمعت عيناه من عجب وإعجاب .

— أنى لك هذا الكتيب يا روزقي ؟

— ابتعته من مكتبة هناك في ركن الطريق ، ورأيتُه ملقى في

صندوق هناك في ركن المكان ! واشتريته بنصف قرش للكتاب

الواحد ، فاشترت أربعة .

وهم «سو نبرن» بالخروج ليشتري لنفسه كتابا ، وأخرج مكنون جيبه كلها سترّة وسراويل فلم يجد فيها نصف قرش ، ذلك لأنه شاعر ! فنادى الخادمة واستقرضها قليلا من قروش ومضى ،

وأخذ الشاعر ان يتحدثان في الحلقات الأدبية عن هذا الكشف الأدبي العجيب ، والعلم به يزداد انتشارا ويتسع نطاقا .

ودارت دورة الأعوام ، وانقضى بعدئذ نصف قرن من الزمان ، ومات الشاعر المترجم «فنزجروالد» كما مات من قبله الشاعر المبدع «عمر الخيام» . . . وعندئذ أرسل محب الرباعيات خطابا إلى دكان الوراق ، وكان يقوم عليه حميد الوراق القديم ، قال فيه : « ابعث إلى بنسخة كلما طبعت من رباعيات الخيام طبعة جديدة » .

فأجابه الوراق في خطاب رقيق ينبهه إلى حقيقة قد يكون غافلا عنها ، فقال : « إننا نطبع من الرباعيات طبعة كل أسبوع ، وتتراوح أثمانها حسب جودة ورقها وغلافها من خمسة قروش إلى عشرة جنيهات للنسخة الواحدة . . . وسأمر بحجز نسخة لك من كل طبعة جديدة كما أمرت ياسيدي » .

لكن «فنزجروالد» كان عندئذ قد بات في رسمه رفاتا ! !

السحر والسحر ————— احر

لو كان معنى السحر هو أن يلتبس الانسان النتائج من غير أسبابها
كنا بحمد الله — الذى لا يحمد على مكروه سواه — نعيش فى بلد
السحر والساحرين .

فاذا شهدت إنسانا « يطبل على صفيحة » لكسوف الشمس لعله
يزول عنها فتشرق ، أو شهدت امرأة عجوزاً تخز بالدبايس تمثالا من
الشمع وخز الحانقة الغاضبة ، فتفقأ عينيه مرة ، وتلعن جنبيه أخرى
ثم تلقى به فى النار .، تفعل ذلك لعل العدو الذى يشير إليه التمثال
يصيبه ما أصاب صورته على الشمع ، أو شهدت قروياً ساذجاً يحمل
فى جيوبه الأحجية والطلاسم ، لترد عنه الضر والأذى . . لو شهدت
واحداً من هؤلاء ، فماذا أنت قائل ، وماذا أنت صانع ؟ سترتسم
على شفئك ابتسامة ساخرة حزينة ، اشفاقاً على هؤلاء السذج المساكين
بما يتخبطون فيه من ظلمات الشعوذة وأضاليل السحر .

وما الشعوذة والسحر هنا إلا التماس النتائج من غير أسبابها ،
فالشمس لا يزول عنها كسوفها بالنقر على الصفائح — والعدو لا يهلك
إذا هلك له تمثال من الشمع ، وليس سبيل الخلاص من الضر والأذى
أن تحمل الأحجية والطلاسم فى الجيوب .

لو كان الساحر ساحراً لأنه يوهم الناس أن يتوقعوا النتائج من

غير أسبابها كنا بحمد الله لموطنين بالسحرة من كل جانب ، يكاد كل
منهم يلقي بعصاه ، فاذا هي حية تسعى !

وإن شئت فاقصد إلى من شئت من ساستنا — أو من هم في
طريقهم أن يكونوا ساسة لنا — اقصد إليهم وهم يروجون لأنفسهم
بين ناخبينهم ، فاذا الواحد منهم يبدى من سحره للناس ما يزرى بسحر
بابل كلها ، ومصر القديمة والهند والسند وبلاد الأفيال جميعا ، فأصغر
سياسي منا قادر — والله الحمد على آلائه ونعمائه — أن ينقر بعصاه
نقرة ، أو يزمر بمزمارة زمرة ، فاذا البلاد قد تقشع عنها كل مردول
كرهه فلا جهل بعدئذ ولا فقر ولا مرض !

فلئن كان الجهل يزول في بلاد الأرض طرا ، بالمدارس تقام ،
وبالمدرسين يدرسون ، وبالمناهج تعد ، وبالكتب تكتب وتطبع ،
فزوال الجهل عندنا ، لا يريد هذا العناء كله ، فقد تكفيه خطبة أو
خطبتان ، ومقالة أو مقالتان ... نعم إن زوال الجهل عن بلادنا ،
يكفيه أن نصنع له مسخا من الشمع ، نعطيه لامرأة عجوز ، تخزه
بدبايسها في جنبيه وفي عينيه ، ثم تلقى به في النار فاذا الأمية قد أمحى
عارها ، وإذا الناس جميعاً قد انقلبوا قراء كاتبين !

ولئن كان زوال الفقر في بلاد الأرض طرا مرهونا بزيادة
وسائل الانتاج ، واصطناع الآلات ، وتكوين العقول الصناعية
والتجارية ، التي تأخذ مسائل الاقتصاد مأخذ الجد الذي لا يريد هزلا
ولا مزاحا ، فزوال الفقر عن بلادنا ، أمره أيسر من ذلك سيلا ،
وأهون طريقا ، إنه لا يكلفنا إلا قطرات من مداد نثرها على الصحائف

هنا وهناك ، والله بعد ذلك قادر ، على أن يجعل من هذه الطلاسم
قوة قاصفة عاصفة ، كأنها الريح العاتية هبت من فقام الشياطين ، فلا
ترى العين بعدها عاريا إلا اكتسى ، ولا جائعاً إلا شبع ، ولا
مشرداً إلا أوى إلى بيت .

وإذا كان المرض في بلاد العالم كلها يحتاج إلى مستشفيات ومعدات
وأطباء ودواء ، وفحص ورقابة ، ورعاية وعناية تتآزر في سبيلها
الحكومات والأفراد جميعا ، فهو عندنا لا يتطلب شيئا من هذا كله ،
فلا أكثر من ضربة يضربها الخطيب بجمع يده على منضدة أمامه
أو سجعة يسجعها الكاتب في مئذنة تنشره له الصحف . . وبعد ذلك
فانظر كيف يحيى البرء للرضى بين عشية وضحاها ، أنظر كيف يتوى
السقيم ، ويحتدل الكسبيح ، ويبصر الأعشى ! .

ولو قد كانت الأمور في بلادنا مستقرة مطمئنة هادئة ، لآنحصر
فعل السحرة في نطاق ضيق غير ذى خطر ، لأن الناس لا ياتمسون
أفاعيل السحر . إلا حين يشتد بهم الضيق ويزداد الحرج ، فما آيسر
أن ينساق الناقم الساخط القلق المضطرب ، لسحر الساحر ، لأنه يريد
شعاعا من الأمل حتى ولو كان كاذبا ، فمن وعده بإزالة الجهل عنه في
شهر أو شهرين ، خير من يدقق له ويحقق ويتأقن ويتمهل ، ومن
وعده بعلاج الفقر والمرض جميعا في يوم أو يومين خير له آلاف
المرات ممن يقف عند أرقام الاحصاءات ، يستقرئها ويستوحىها ،
عسى أن يتهدى بهديها إلى صراط مستقيم ، لكنه على استقامته
طويل لا يعلم إلا الله متى ينتهى . ، وإلى أين ينتهى .

نعم إن المصلح الجاد الذى يحترم عقول الناس ، لا يتوقع إلا
النتائج القليلة فى الزمن القليل ، ثم هو لا يتوقع هذه النتائج القليلة إلا
من أسبابها الصحيحة ، وأما الساحر ، فهو الذى يستطيع - مستعينا
بسحره - أن يبشر الناس بنتائج لا تعرف قيودا ولا حدودا ، فأى
الرجلين نختار ؟ . . .

إلى الساحر وسحره ياقوم ، بقضكم وقضيضكم ، وحسبه فضلا
أنه يزخر ف لكم الآمال ، فى هذه السنين التى استحكم فيها اليأس ،
وخاب الرجاء .

عربان يحلم

لو قيل لى : ما هو الكتاب الواحد الذى تتمنى أن يذيع فى الناس ويشيع وأن يستوعبه الناس درسا وتمحيصاً لعله يصور لهم أنفسهم تصويراً يثير فيهم الضحك والسخرية ، فيستقيم لهم بذلك من أنفسهم عوج ، ويرتدوا إلى نهج قويم وطريق مستقيم ؟ لاجبت فى غير تردد هو قصة دون كيشوت !!

ولا بد أن يكون القارئ قد ألم بطرف من قصة هذا الحالم الواهم ، الذى قرأ كثيراً عن الفروسية والفرسان فى سالف الأزمان فأعجبه ما قرأ ، فتوهم نفسه فارساً من هؤلاء ، وامتطى صهوة جواد له نجيل هزيل ، وأمسك بسيف صدىء متآكل مثلوم ، وراح ينسج على غرار الفرسان الأقدمين .. ولكنه نسج لم يجاوز به دائرة أوهامه وأحلامه ، فيطعن الهواء بسيفه ، وهو يتوهم أنه يطعن السيف فى أحشاء الأعداء ، ثم يغمد السيف فى قرابه وهو يتوهم أنه قد انتصر !!

ولا بد كذلك أن يكون القارئ قد لحظ أن كثيراً جداً من الناس يشبهون « دون كيشوت » إلى حد بعيد أو إلى حد محدود ، فتراهم ينسجون حول أنفسهم نسيجاً من أوهامهم ، يعيشون فيه ثم يخلون لأنفسهم أنهم انما يحيون ويتحركون فى عالم الواقع ... ويزداد

هذا الانحراف في الإنسان كلما كان أميل إلى الطفولة في نفسه وعقله، إذ يتميز الطفل بشدة هذا النوع من الخيال الذي يختلط عنده بالواقع فيركب عصاه موقناً أنه على فرس، أو يجلس على وسادة حاسباً أنه في مركب أو قطار... فانظر — مثلاً — إلى هذا الرجل الذي أوهم نفسه بأنه عين من أعيان القوم وذات من ذواتهم، ثم أبى على نفسه بعد ذلك إلا أن يكوى في معاملته للناس شاذاً نائياً، لأنه يخشى لو اعتدلت أساليبه واستقامت، ألا يعده الناس ذاتاً ولا عيناً، فتصطدم أحلامه بالحقائق ويهوى إلى الأرض حطاماً .

لكن الحديث يطول بنا لو جعلنا نتعقب الناس امرأة امرأة ورجلاً رجلاً، لنحلل ما أحاطوا أنفسهم به من أوهام استراحوا إليها وعاشوا في أكنافها سعداء، فما ضرنا أن يسعد الناس بالأوهام والأحلام ؟ !

إنما الخطر كل الخطر، والضرر أبلغ الضرر، أن تصاب الأمة بهذه الزعة « الكيشوتية » فتعيش في أوهامها وتستغرق في أحلامها والدنيا من حولها ساهرة واعية، لا تحرك قدماً إلا بحساب ولا تفعل فعلاً إلا مهتدية بالأرقام .. إن أخشى ما أخشاه أن تفكر معي، فينتهي بنا التفكير إلى أننا أمة من هذا الطراز الحالم !

نعم، إن هذه الشطحات « الكيشوتية » ملهاة مسلية حين تحكى عن الأفراد لكنها مأساة أي مأساة حين تروى عن الأمم، فقد يحكى لك — فتضحك — أن رجلاً فقيراً يلبس الهلاهيل، قد أراد له الله يوماً أن يصنع صنيعاً حسناً، فجزاه السلطان بلقب عظيم من ألقاب

الإمارة ، لكن الرجل ظل جائعا عرياناً رغم لقبه الذى خلع عليه ،
غير أن صاحبنا كان موفور النصيب من أوهام « دون كيشوت »
فاستمد من أوهامه تلك غذاء وكساء ، حتى كان شتاء قارس البرد ،
فشكت إليه زوجته من لدعة البرد وعضة الجوع ، فانتهرها قائلاً :
إذا كنا ونحن الأمراء نشكو برداً وجوعاً فماذا يقول الفقراء ؟ !

قد يحكى لك ذلك عن الفرد الواحد فتضحك ، أما أن يروى لك
أمثال ذلك عن الدولة — فأساة تشيع فى النفس أسفا وحسرة ..
ولأضرب لك مثلاً واحداً من أمثلة كثيرة اختزنتها فى رأسى :

لأنجلترا فى مصر معهد أو معاهد ، أنشأتها لتكون مراکز لنشر
الثقافة الانجليزية ، واللغة الانجليزية ، فاهتزت نفوسنا هزة « كيشوتية »
وقلنا : ولماذا لا نقف من إنجلترا فى هذا موقف الند للند ، لماذا لا ننشىء
معهداً فى لندن ينشر لنا الثقافة المصرية فى بلاد الانجليز ، كهذا المعهد
الذى أنشأته إنجلترا فى القاهرة لينشر لها الثقافة الانجليزية ؟ ... وما
هو إلا أن أرسل الموظفون كبارهم وصغارهم إلى لندن ، وفرشت
هناك الحجرات الفاخرة بأفخم الأثاث وبدأ المعهد ينشر الثقافة
المصرية ...

وشاء لى حسن الحظ — أو سوءه — أن أدخل ذات يوم غرفة
الدرس فى المعهد المصرى بلندن ، وهى الغرفة التى أعدت لتشع منها
أضواء الثقافة المصرية فى بلاد الانجليز ، فرأيت هناك صفافاً من مقاعد
أمامه سبورة ، كتب عليها بالحروف المتقطعة : ض ر ب ، ق ت ل
الخ ، واستفسرت كم يكلف الدولة نشر الثقافة المصرية على هذا النحو

في بلاد الانجليز؟ فقيل كذا ألفاً من الجنيهات لست أذكر عشرة
أو عشرين .

يا سبحان الله العلي العظيم ، أنا الذي أجد حولي من أبناء بلدي
ملايين تبيت على الطوى بالمعنى الحرفي لهذه الكلمات ، وتلبس
الهلهيل بالمعنى الحرفي لهذه الكلمات ، وتجهل القراءة والكتابة ،
تسول لى نفسى الواهمة الحاملة أن أبعث مالى يمينا ويسارا لأزيل الأمية
في بلاد الانجليز !!... ثم يمضى بعد ذلك عامان ، فماذا تظننا قد فعلنا
في ضوء خبرة العامين ؟ أتظننا قد قضينا على هذا الهذر وحولنا شآبيب
المال إلى أبناء هذا البلد نكسوهم ونغذوهم ونعلمهم ؟ لا والله فنحن أمة
تدين بمبدأ هو أن « الجرن الكبير خير من شماتة الأعداء » ماذا
يقول عنا العاذلون لو أننا أقفلنا معهداً أنشأناه لنشر الثقافة المصرية ؟
ألا يقولون عندئذ أننا أمة بغير ثقافة تنشرها ؟ فلننشئ - إذن -
معهداً مصرياً آخر في واشنطن ينشر الثقافة المصرية بين الأمريكان ..
ثم ماذا ؟ ثم هذه الثقافة المصرية التى زخرت بها رءوسنا حتى
فاضت وامتألت بها صدورنا حتى طفحت ، لا بد من نشرها كذلك
في بلاد الشرق كلها ، فابعثوا بالمدرسين أفواجا أفواجا وادفعوا لهم
من أموال الدولة مايزيد على خمسين ألفاً من الجنيهات كل عام - فيما
أعلم - لى يقال إن مصر منارة ترسل الضوء هنا وهناك ... وأنت
كافر بنعمة الله لو اضطربت نفسك بالقلق إزاء هذا كله ، فقلت لأولى
الامر إن أبناءنا فى مدارسنا قد يظلون فى قصوهم بغير مدرس أشهر
ثلاثة أو أربعة فى أول العام ، فحرام أن تضيعوا أبناءنا لتنشوا

أبناء الآخرين

لكن هل كان يمكن إنساناً أن يقنع « دون كيشوت » وهو
سابع في أوهامه وأحلامه ، أنه لا يطعن السيف في أحشاء الأعداء بل
يطعنه في الهواء ؟ !

اللهم زدنا وهماً على وهم ، لنستمد من عريننا كساء ، ومن جوعنا
غذاء ، ومن جهلنا علماً

جمل فى حركة المرور . . .

عند ملتقى شارع شامبليون بشارع الاتكخانة ، على بعد أمتار قليلة من ميدان سليمان باشا ، وقف شرطى المرور بحلته البيضاء الناصعة وكميه الاسودين ، باسطا يمين ذراعيه ، ليمنع بها المرور فى أحد طريقيه . . ونظرت إلى السيارات الممنوعة عن السير حيثئذ - وكنت قد خرجت لتوى من حيث أقيم ، مكروب النفس محزون الفؤاد - فاذا ضحكة تنطلق من صدرى نقية خالصة لوجه الله . . ذلك أنى رأيت جملا واقفا فى حركة المرور . . .

وقفت السيارات متزاحمة فى أحجام مختلفة وألوان متباينة ، فهذه سيارة نقل كبيرة تحمل أكدا سا من القش المحزوم ، وهذه سيارة أنيقة مزخرفة لامعة فيها سيدتان جميلتان ، كانتا تطفحان بالزينة ، ثم هذه وهذه وتلك . . وقفت كل هذه السيارات متزاحمة متحفزة للجري ، كأنها جماعة من كلاب الصيد ، قد تأهبت على أطرافها مرهفة الأذان محدقة العيون تنتظر من سيدها إشارة خفيفة ، لتنتلق مع الريح الى حيث قنائص الصيد . .

وأما الجمل ، فقد وقف بينها شاخصا يبصره الى الأفق البعيد . ونظرت الى عينيه فرأيت فيهما ازدراء وامتعاضا . . وقف الجمل فى حركة المرور هادىء الأعصاب ، قد أرخى أعضائه عن طمأنينة

ودعه ، فستان ما كان بين هدوئه هذا ، وثحفز السيارات التي حوله
تأهباً للوثوت ، هو في اطمئنانه لا يكاد يفرق بين حركة ومسير ، أما
هي فقد وقفت تمغص بأمعائها ، كأنها لا تريد للحركة الدائبة أن تقف ،
فلما وقفت لحظة ، هاجت أحشاؤها حتى لتوشك أن تتهيز
من الغيظ . .

الفرق بين الجمل في استرخائه ذاك ، وبين جاراته اللائي وقفن
محتلجات الأعصاب ، مضطربات الأبدان ، هو بذاته الفرق بين مدنية
ومدنية !! هو الفرق بين مدنية ذهب زمانها وانقضى ، ومدنية لها
اليوم سيادة وسلطان ، هو فرق بين مدنية قديمة لم تعرف للزمن قيمة
فأثرت أن تسير الهويناء على غير عجل . ومدنية حديثة تستقطر الزمن
كل لحظة فيه لكي يحى عمر الفرد مترعاً مليئاً ، وتجيء حياة الأمة
منتجة خصيبة ، هو فرق بين عهد الرماية بالقوس في الحروب ، فتصرع
العدو رجلاً رجلاً ، وبين عهد القنبلة الذرية فتسحق الأعداء بلداً
بلداً ، هو فرق بين عصر كان الانسان يغزل فيه نسجه بيديه ، وقد
ينسج الثوب الواحد في عام كامل ، وبين عصر تخرج فيه الآلات
نسجها أثواباً كل يوم . . هذا هو الفرق بين الجمل الذي وقف هادئاً
في حركة المرور وبين جاراته المتوثبات المتحفزات . . والعجيب أن
الجمل لم يدرك تخلفه عن زميلانه ، فراح يشخص إلى الأفق بنظرات
ناعسة مسترخية ، فيها ازدراء وامتعاض !!

وسارت حركة المرور بسياراتها وجملها ومضيت في طريقي ، فما
كدت أستمقر في مكان قريب حتى سألت نفسي : ما الذي أضحكك

لما رأيت الجمل واقفا في حركة المرور ؟

أ يكون ذلك لأن الجمل كائن حي ، والسيارات من حوله آلات جامدة ، وخضوع الأحياء لما تخضع له الجوامد يثير الضحك ، كما ترى رجلا انزلق على الطين فوقع على الأرض ، فتضحك لأنه قد تصرف كما يتصرف الجماد الأضمر إذ خضع للجاذبية ، وسقط كما تسقط قطعة الحجر ؟

لكنني سرعان ما عدت إلى نفسي قائلا : فيم هذا الاغراب في التحليل والتعليل : إن مبعث الضحك حين رأيت الجمل بين السيارات في حركة المرور ، هو رؤيتك منظرالم تكن تتوقع أن تراه ، إن سر الفكاهة كلها هو في وضع الشيء في غير موضعه المنتظر ، فاذا رفع ستار المسرح — مثلا — عن قرد ، وكنت تتوقع انسانا ، انطلقت منك الضحكات لا تملك حبسها ، وإذا رأيت القرد يتحرك حركات آدمية ، وكنت تتوقعها منه حيوانية كالتى تعدها في سائر الحيوان ، انطلقت ضاحكا ، وهذا هو نفسه ما يضحك حين يتصرف الأملفال تصرف الرجال ...

فالذى أضحكني في الجمل حين وقف المسكين بين بنات عصر غير عصره هو بعينه ما يضحكني لو رأيت رجلا شيخا متهدما يلعب الكرة مع فئة من الشباب القوي الفتى ، الوثاب السريع ! أو هو ما يضحكني لو رأيت سلحفاة ثقيلة متحجرة ، وقفت إلى جانب صف من الجياد في حلبة السباق !

يا ويح نفسي لو نظرت فرأيتنا بين بلاد العالم المتحضرة بمثابة

الجمال الذي وقف مع السيارات في حركة المرور !!

أليس من حق أن أضحك ملء شدي إذا ما رأيت الشادوف في القرن العشرين لا يزال يثن تحت أصابع الفلاح ، ورأيت المحراث لا يزال يشق الأرض أصبعا أصبعا ، ورأيت النقل لا تزال أدواته الحمار ! ... والعجيب - بل انه لأعجب العجب - أننا ننظر إلى الأفق كما كان ينظر الجمال ، بنظرات ناعسة مسترخية ، فيها امتعاض من مدينة عصرنا .. وفيها ازدراء !

لكني ، رغم هذا كله ، أكبرت في الجمال أن يخضع لقيود الحضر ، بعد أن عودته البادية طلاقة وانسياباً . ففي التزامك لقواعد المجتمع الذي تعيش فيه معنى جميل من معاني المدنية ، بل لعله المدنية في أرقى معانيها .

وإن في مراعاة الجمال لحقوق غيره لدرساً يلقيه على كثيرين وكثيرات ، لا أقول من عامة الناس وسوادهم ، بل من العلية والذوات ..

نملتان في الفلفل

جلس الشيخ في دكانه مخزوناً ، اعتمد رأسه على راحتيه وجعل ينكر : ماذا أنا صانع يارباه في جحافل النمل التي تهجم على سكرى في ظلمة الليل ؟ إنها لتأكلني أكلاً إذ هي تأكل قوت عيالي ، وإني لعائل أسرة أكاد أنوء بحملها الثقيل ، لو كانت النمل مما يرعى مبادئ الأخلاق ، لناشدتها الضمائر ألا تسلطوا على ملك غيرها ، فحرام عليها أن تستريح بياض النهار في أعشاشها ، حتى إذا ماسترها الليل بعتمته ملأت بطونها مما كد غيرها في جمعه وكدح ، حتى تنسدى منه بالعرق الجبين . لكن - - - وأسفاه - ليس للنمل أخلاق يراعيها .

وتحير الشيخ في أمر هذا النمل ، كيف يعرف موضع السكر وإنه لحبيء في علبة محكمة الغطاء ، وإن الشيخ ليغير مكان العلبة كل مساء ، فيضعها على الرف مرة ، وتحت النضد مرة ، ويكسوها باللفائف تارة ، ويعلقها في الهواء طوراً ... لكن النمل يعرف !!

ولمعت فسكرة في رأس الشيخ كاد يثب لها في مقعده : أما والله إني لأحق مأفون ، أضع أصبعي في الفخ حتى إذا ما ضغط الفخ على إصبعي ، صرخت من ألم ! ألم أكتب على الصناديق بيدي هذه بطاقات ، تعلن عما في بطونها فلمن كتبت - يا أحمق - هذه البطاقات إن لم تكن للنمل يقرؤها في الليل ، وإنه لنو بصر حديد ، فيعرف

موضع السكر من الدكان في حندس الليل ! لأنزعن من قورى هذه البطاقات عن أماكنها ، وكفانى من بلاهتى مالقيت كفانى ... ونهض الرجل فى حماسته لينزع ...

لكن لا ! لقد لمعت عيناه بفكرة أخرى . فكرة افترت لها شفتاه بابتسامة عريضة ، ثم انفجرت بقهقهة عالية ... أنا الرجل الذى يغلبه النمل على أمره ، وإن عدّ النمل بالألوف لا بأحاد وأفراد ؟ أنا الرجل الذى يغلبه النمل على أمره ثم لا ينتقم ؟ فيم إذن كان مقامى فى حلقات العلم أعواماً إن قصرت بى عن ختام العلم فقد دنت منه ؟ ! ويحك الليلة منى يانمال !

ونزع الرجل فى زهو الظافر بطاقة السكر ووضعها على علبة الفلفل وكتب الفلفل على علبة السكر .

— سيأتى النمل الليلة أسراباً كعهده ، وسيقرأ العنوان فيظنه دالاً على مضمون الكتاب ، وسيدخل علبة الفلفل وفى وهمه أنه سيجد حلاوة كل يوم ، وما كل ما يتمنى المرء (يانمل) ياركه ، تأتى لرياح (يانمل) بما لا تشتهى السفن ...

وأوشكت الخطة أن يصيبها الفشل ، إذ جاء النمل ولم يقرأ ، بل اشم وانصرف ، إلا نملتين حفظتا القراءة فى مدرسة من مدارس الإلزام ، فقرأتا وضحكتا من جهل الأخوات ، وتسلماتا إلى السكر الموهوم ، فاذا داخل العلبة ديجور لم تعدهاه فيما سلف من الليالى . وبيناهما تسعيان وراء الرزق ، صدمت نملة منهما نملة فى بعض الطريق :

— مالك الليلة ماذا دهاك ؟

— عتمة لم أعدها هنا يا أختاه .

— لست أرى في الأمر اختلافا عن المؤلف .

— بل ألفت أن يتسرب من سماء هذا المكان شعاع ضئيل من الضوء يعكس شيئا من بياض ، وإذا الأمر كله الليلة في عيني سواد في سواد ، ثم ألفت أن أسير على منبسط فسيح ، فإذا بي الليلة أدور مع موطيء القدم حيث يدور ، ثم ... لست أدري يا أختاه ماذا دهاني ، لعله مرض في جوفي تغيرت معه طبيعة دنياي ، ثم ألفت على اللسان حلاوة فاذا بالشئ يلسع الليلة لسانى لسعا ألما ، حتى ليكاد اللسان من حدة اللسع يحترق .

— لك الله يامسكينة ، ألا إن الأرض هي الأرض والسماء هي السماء ، والمأكَل كعهدنا به طيب حلو المذاق ، غيرى من جوفك تتغير الدنيا في عينيك .

أواثقة أنت أننا في علبة السكر .

— قرأت العنوان بعيني ، وأذوق الطعم الآن بلسانى ، وليد إلى الشك عندى من سبيل . وفيهم الريبة والسؤال؟ دونك المكتوب فاقريه ، وليست الرحلة إليه بشاقة ولا عسيرة .

— سأفعل ، لا ارتيابا في صدق ما تقولين ، ولكن ليطمئن قلبي .

وخرجت النملة إلى ظاهر العلبة ثم عادت والتقت بأختها بعد تعثر في الطريق وبحث في الشايات هنا وهناك .
صدقت ، إنه السكر لا شك فيه .

— لا يا أختاه « بل كل الشك فيه .

— وى ! ماذا تقولين ؟ ماذا تظنين ؟

— كأنه « يا أختاه » حب فلفل ، إني لأحس الآن ماتحسين ،

فسواد شديد حالك يسد على مسالك الطريق ، وانبعاج فى الأرض لا يكاد يمكننى من السير ، ثم طعم لاذع يذيب اللسان ويمزق الأحشاء .

— لكنه السكر ، والبدال لا يخطئ الترقيم .

— نعم ، لابد أن يكون سكرا ، لأن الببدال لا يخطئ الترقيم ،

فصبرا جميلا ، حتى نملأ جوفينا مما رزقنا الله وإنه حلو مستساغ .

وإن كره البصر واللسان والأحشاء جميعا !

وأصبح الصباح وعاد النمل إلى عشه ، لا لتستريح النملتان هذه

المرة من عناء الليل ، بل لتتلويا من عذاب أليم كلما غصت فى جوفيهما

الأمعاء ، والتقت المسكينتان فى منبسط من العشب :

— ليتنا ما أكلنا السكر .

— السكر ؟ !

— وماذا عساه فى ظنك أن يكون ؟

— اسمعى يا أختاه ، لقد ذهبت مع ظلمة الليل غفلتى ، وعادت

إلى مع ضوء النهار حكمتى ، إن هؤلاء الناس لأصحاب خدعة فما فتتوا

الدهر يخذعون ويخدعون ، إني لأعلم من أمرهم ما لا تعلمين ، بل

لعلى أعلم منه ما ليس يعلمون .

— ماذا تريدن ؟

— سأوضح لك الليلة ما أريد .

وجاء المساء وخرجت النملتان ، نملة تهدي وأخرى تهدي
تعالى معي فادخلي خزانة الكتب ، امسكي هذا الكتاب
ما عنوانه ؟

— من الفلسفة الإسلامية .

— ومن كاتبه ؟

— شيخ جليل في طليعة الشيوخ .

— دونك فاقريه ، ماذا ترين فيه ؟

— لست والله أطلع فيه إلا فقهاً وما إلى الفقه .

— نعم ، وسماه فلسفة ليدخل المریدون خلال العنوان إلى فلسفة

فإذا بهم في فقه يتقلبون ، كما دخلنا ليلة أمس على بطاقة من سكر ،

فإذا الفلفل يملأ منا الأمعاء والبطون . . . وهذا الكتاب الآخر ،

ما عنوانه ؟

— خواطر الأديب .

— ومن كاتبه ؟

— علم من أعلام القلم .

— دونك فاقريه ، ماذا ترين فيه ؟

— لست والله أرى فيه إلا خليطاً من معرفة لا هي إلى العلم في

دقته ولا إلى الأدب في جمال صورته .

— نعم ، وجعله الكاتب أدباً ليتسرب إليه الراغبون في أدب ،

فإذا هم في مرج آخر يمرحون . . . أخرجي من بطون الكتب وهيا

بنا إلى الحياة العريضة في المنازل والشوارع ، أنظري هناك ،

ماذا تبصرون ؟

— كومة من قماش . . . لا بل هو آدمى يتحرك .

— هذه القامة البشرية يسمونها مدينة شرقية .

— كلا ، لا تمزحى ، بل . . .

— وانظرى هناك ، ماذا تبصرون ؟

— شرطى يضرب إنسانا فى عرض الطريق .

— وهذا الطغيان السارى يسمونه مدينة شرقية .

— كلا لا تمزحى ، بل . . .

— وانظرى هناك ، ماذا تبصرون ؟

— كأنى به مريض محوم أحاط به ذووه .

— وهذه الجهالة يسمونها مدينة شرقية .

— كلا لا تمزحى ، بل . . .

— وادخلى هذه الدار فانظرى ، ثم ادخلى جماجم الرءوس

وانظرى ، وسترين شيئا عجبا يسمونه مدينة شرقية .

— كلا ، لا تمزحى ، بل المدينة الشرقية شئ غير هذا كله ، سمعتهم

هكذا يقولون .

— وأنا سمعت آخرين يقولون إن المدينة لا تكون

شرقية ولا غربية ، إنما هى علم يعلمه الإنسان أنى كان ، وفن

يخلقه الإنسان أنى كان ، فحيثما وجدت الجهالة والمرض ،

وجدت ماذا ؟

— لكنهم يقولون . . .

— ويحك من نملة حمقاء ، أفتنصتين بعدُ لما يقولون ؟ إن المؤمن

لا يلدغ من جحر مرتين ، ألا يكفيك ليلة واحدة قضيناها في
علبة الفلفل ؟

مرآة الطريق . . .

استمع إلى صيحة الوليد ! إنه ينذر العالم بدوم عضو جديد ...
إن كل ما في الدنيا يؤلمه ويؤذيه ، فقد فاجأته الحياة بضرورة التنفس
والتنفس مؤلم لرئتين لم تعهداه من قبل ، وتدفقت على عينيه أشعة
الضوء ، والضوء شديد على عينين كانتا مغمضتين حتى الساعة ، وازدحمت
أخلاط الصوت في أذنيه ، والصوت يؤذى أذنين لم يقرعهما طارق
إلى اليوم ، وبرد الهواء يلفح جسما ما عرف إلا جوفاً دفيئاً ... كل
ما في الدنيا إذن يؤلمه ويؤذيه ، ولكنّه أدّرع قبل قدومه بما يصونه
ويحميه ، أدّرع ببلادة الحس ، فالضوء المتوهج خافت في عينيه ،
والصوت القوي همس ضئيل في أذنيه ، ولم يكفه هذا ، بل هيأت له
الطبيعة أن يغط معظم يومه في نوم عميق ، لا يدرك ما تموج به الدنيا
من حوله ... ويكبر الوليد ويكبر ، فيكشف عن دنياه شيئاً فشيئاً ،
مدفوعاً في كشفه بقوة تغريه بالتطلع واكتساب العلم ، حتى إنه ليمس
كل شيء ويلقم كل شيء ! وأداته في ذلك كله هي اللعب ، فما يزال الطفل
يلهو بطبيعته ليخبر الحياة عن طريق لهُوه ، حتى يدركه الشباب .

والشباب هو البرزخ بين لعب الطفولة وجد الرجولة ، وحلقة
الاتصال بين توال كل الفرد على أسرته ، واعتماده على نفسه . الشباب
ينزع بطبعه إلى الفوضى وحب الذات ، لأن الدنيا لم تعلمه فيما سأل من

عمر إلا درساً واحداً : يأمر فيطيع الوالدان . والشباب مغامر مخاطر
يميل إلى المبالغة والغلو ، لأن به نشاطاً فياضاً يريد أن ينطلق في هذه
المغامرة والمخاطرة والاسراف . ولقد قيل إن الرجل يكون شاباً
بمقدار ما فيه من حب لركوب الخطر ، ومن سمات الشباب كذلك
أن يضيق بالقانون وينفر من النظام ، لأن القانون ضرب من القيد ،
والنظام نوع من الغل ، فأين يصب نشاطه الحبيس ؟ . إن أوضاع
المجتمع قد تطالبه بالسكون ، مع أن طبيعته الحيوية تدعوه إلى جلبة
وضوضاء . والشباب يحيا في حاضره أكثر ما يحيا ، لا يأسف على
أمس ولا يعبأ بالغد ، فلئن كانت الطبيعة قد ثلثت إحساس الوليد
ليكون بنجوة مما حوله ، فقد أزهفت إحساس الشاب حتى ليكاد
يلتهم ما حوله التهاماً ، لأن كل شيء حوله ما يزال جديداً ، ولم يبلغ
بعد من سعة التجربة أن يرى الدنيا صوراً مكررة مملولة . إن
الحياة في عين الشباب خلافة ساحرة جديدة أن ينغمس فيها الانسان
ليستمتع بطبيعتها ، ولهذا قيل إن الشباب هو الحياة ، وأما رجال
الاربعة وما بعدها فلا يعيشون إلا في ذكرى الشباب الدابر . وأفدح
السكوارث أن يخلو هذا الشباب الفتى القوى من الحكمة التي تهديه ،
وأن يفرغ الرجل المجرب العارف من الشباب الذي يستطيع التنفيذ
أواه لو عرف الشباب وآه لو قدر المشيب !

فلقد يقنع الرجل بمشاهدة اللعب ، وأما الشاب فلا يرضيه إلا
أن يكون من اللاعبين ! إنه يؤثر حلبة الرياضة على قاعة الدرس ،
وهل تراه أخطأ الاختيار ؟ لا . إن أول ما نطلبه للرجل الكامل هو

— كما يقول نيتشه — « أن يكون حيواناً كاملاً » . فخلق بالترية أن تستمع إلى صوت الطبيعة في ميول الشباب ، وأن تعنى بتثقيف الأجساد في الملاعب كما تعنى — على الأقل — بتغذية العقول بالتفكير النظري ولكن الشباب لا يستنفذ نشاطه كله في فاعلية الجسد ، بل إن موجة المراهقة ما تكاد تغشاه حتى يأخذ في شيء من التفكير الذي لم يكن له به عهد من قبل ، فهو كثيراً ما يتأمل نفسه ويفكر في العالم من حوله ، وتعجبه النظريات لأنها تفسر له معاني ما يرى من أشياء . تراه يكثر من السؤال : ما هذه الدنيا ؟ ما أصلها ؟ إلام تصير ؟ ما الروح وما الله ؟ إن العقل في هذه السن جياش فوار ، والحس مغمور مأخوذ بجمال كل شيء .

وما هي إلا أن يكشف الشاب عن الحياة سترها قليلاً قليلاً ، فيرى السوء فيزعجه لأنه لم يكن يتوقعه ! ماذا ؟ ألم أكن في أسرتي عضواً في جماعة لا تعرف سوى المحبة والعطف والتعاون ، القوى يعين الضعيف ، ورزق الكاسب مشاع للجميع ؟ ! فما لي أرى المجتمع الأكبر لا يفهم إلا التنافس والقتال ؟ يتنازع أفرادُه على البقاء كأنما البقاء ضيق محصور ! ما لي أرى المجتمع الأكبر يحو الضعيف محواً ، ويسحق الفقير سحقاً ، ليخلو المكان للقوى الغنى ؟ هكذا تتردد الخواطر في نفس الشاب مبهمة غامضة ، فيثور ، فيصيح في وجه العالم : أن خذوا أيها الناس مبدأ الحياة من مبدأ الأسرة ، ليعيش الأفراد في تعاون الشقيق ، وهكذا تبدأ المبادئ الاشتراكية ، ويعلو صوتها من صفوف الشباب ! ولكن واحسرتاه !

إن هذا الشباب الطموح لا يلبث أن ينساق أمام تيار الحياة الجارف فتأخذه الحماسة لشخصه بعد قليل ، وتشتد به حتى لا يعود يرى في الدنيا إلا نفسه ، وتسيطر عليه رغبة الملك ، فيدلى بدلوه في دنيا التنافس ليختطف به ما وسعه أن يختطف من قوة ومال ! وهكذا تخمد ثورة الشباب ، وتسير قافلة الحياة .. تسير آمنة من معاول الشباب الهادمة ، لأن الشباب قد أحب فتزوج .

وإذا تزوج الشاب فقل على شبابه العفاء ! فها هنا يبدأ طور جديد ، ها هنا تبدأ مرحلة الرجولة من مراحل الطريق ، فيعرف ما العمل وما عبئه الثقيل ، وتخضع العاطفة لقيود القانون والمجتمع .. هنا تنتهي قصيدة الحياة الشعرية ويبدأ نثرها !

ولكن للرجولة حسنة كبرى وفضلا عظيما ، فهي الوسط الذهبي بين طرفين من الغلو ، فورة الشباب من ناحية ، وخمود الشيخوخة من ناحية أخرى .. الشباب يعتمد في كسب العلم الجديد على إلهام الغريزة ، والشيخ يركن إلى العلم الراكد الجامد ، فيستوحى منه النتيجة الجديدة عن طريق القياس . وأما الرجولة فتمد إلى الاستقراء ، استقراء الأمثلة التي تجمعها من الطبيعة لتصل إلى العلم الجديد ... الشباب لعب والشيخوخة راحة مطلقة . وأما الرجولة فشأنها العمل المنتج .. الشباب مليء بالفن ، والشيخوخة نزاعة إلى الدين . وأما الرجولة فشغوفة بالعلم قبل كل شيء . الشباب خيال مبتكر ، والشيخوخة ركون إلى ذكريات الماضي . وأما الرجولة فعقل مفكر مدبر ... في الشباب ثورة ، وفي الشيخوخة جمود . وأما الرجولة فنستمتع بالحرية ،

والحرية بمعناها الصحيح مرحلة بين الثورة والجمود . . . في الشباب
جراحة إلى - د التهور ، وفي الشيخوخة خوف إلى حد الجبن . وأما
الرجولة ففيها الشجاعة كما تملأها الحكمة .

فأنت ترى أن عهد الرجولة عصر العمل والبناء ، فلئن فقد الرجل
حماسة الشاب وأمله ، فقد كسب قوة الانجاز والتنفيذ ، حتى إذا
ما بلغ الرجل سن الخامسة والثلاثين ، فقد بلغ الذروة القصوى ،
التي تحتفظ ببقية صالحة من عاطفة الشباب وبداية طيبة من فهم الشيوخ
ولقد قام باحث انجليزي بإحصاء عجيب ، أثبت به أن الكثرة
العظمى من نوابغ الانجليز أنجبهم آباؤهم بين الثلاثين والرابعة
والثلاثين .

وبعدئذ يأخذ النشاط في التدهور والفناء ، وينضب معين القوة
قليلا قليلا دون أن يملأ ما فرغ منه ، أو كما يقول شوبنهاور : يعيش
الإنسان بعد ذلك على رأس ماله لا من دخله . وإن الرجل في هذه
السن لتكشف له هذه الحقيقة المروعة المخيفة ، فتعلوه غاشية من
الكآبة والقنوط ، ساخطاً على هذه الحياة القصيرة التي ان تمكنه من
تحقيق أمله . انه ليقف في ذروة الجبل وينظر ، فاذا بالموت قابع عند
السفح يرقب وينتظر ، فماذا يفعل ؟ . انه في الأغلب يشتد حماسة في
العمل ليغالط الحقيقة الواقعة ، كأنما يريد أن يصيح في وجه الفناء :
أنا هنا حتى نشيط متوثب ! أنا موجود رغم أنف الزمان !

يقول نيتشه : ان الانسان في شبابه ورجولته شأنه شأن الخطب
تشعل فيه النار ، تعلو شعلته ويملا الدنيا دخاناً وشروراً ولكنه

لا يدفىء ، فإذا ما انحابت عنه غاشية الدخان وهدأت أطراف لهيبه ،
بدأت جمراته الهادئة تشع الدفء الجميل . وهكذا فورة الشباب ودخانه
لا يفيدان شيئاً إلا إن استقرا في هدوء الرجولة وسكونها . فالرجولة
أذن هي عصر الخصب والانتاج .

ولكن ديب الشيخوخة لا يمل الرجل طويلاً حتى يسرى في
العظام والمفاصل ! فلا يعود الشيخ قادراً على حفظ علم جديد ،
كأنما العلم الجديد لا يجد في رأسه المزدهم مكاناً خالياً ! إن الطفل في
سنيه الأولى يكبر بنسبة أسرع من النسبة التي يكبر بها بعد ذلك ،
وكذلك الشيخ كلما أمعن في شيخوخته ودنا من ختامه يضعف بنسبة
أسرع مما كان . والطفل مزود عند مولده ببلادة الاحساس لئلا
تصعقه الإحساسات الجديدة المتكاثرة ، وكذلك الشيخ يعود في هرمه
إلى ذلك الحس البليد ، لأن رغبة الحياة قد خمدت قواها . إن الشيخ
المتهدم ليشعر بمزيج عجيب من حب البقاء وحب الراحة الأبدية فهو
يريد أن يمتد به البقاء ، ولكنه يريد في الوقت نفسه أن يخلص من هذا
العناء المضني . إن الشيخ ما يفتأ ساخطاً ناقماً على مظاهر الحياة التي يشهدها
صخابة حوله . ومن الشطط أن تطالب إنساناً ذهبته عنه الحياة بحب الحياة !
لقد بلغ الحى غاية الشوط فأسلم حياته إلى كف المنون ! إن
الحياة آخر مراحل الموت والفناء ! . . . ولكن لا ! ! إننا نموت
من أجل الحياة ، إن هذه الخلايا الذابلة لتسقط من جسم الحياة
ليبقى سليماً معافى ، فيفنى الشيوخ لتبقى الحياة في قوة الشباب . . .
صه ! هذا وليد يصيح ، إن الحياة خالدة لا تعرف الفناء !

بين الأدب ونقده

عجيبة هذه المصادفات . . .

لم أكد أفرغ من كتاب « النقد المنهجي عند العرب » للدكتور محمد مندور ، وأسجل رأيي في بعض ما جاء فيه - وهو رأي عارضه الدكتور مندور - أقول إنني لم أكد أفرغ من ذلك الكتاب ، حتى طالعت كتابا آخر لأديب آخر ، ليس بين موضوعه وموضوع الكتاب السابق من أواصر القربى إلا ما يذهب إليه الأديبان من أن النقد الأدبي مرده إلى الذوق ... وأما هذا الكتاب الجديد الذي أعنيه ، فهو « على هامش الأدب والنقد » للكاتب الأديب المطلع الذواق الأستاذ علي أدهم .

وكم كنت أحب أن أستعرض هذا الكتاب للقارئ ، وأن أقدم له قبسات منه تظهره على ما فيه من غزارة مادة وجمال صورة ففيه خمس وعشرون مقالة أضيفت إليها مقدمة ، كل متالة منها - أستغفر الله ، بل كل صفحة من صفحاتها ، وأستغفر الحق ، بل كل فقرة من كل صفحة - تضيف إلى علمك علما جديدا . . .

نعم ، كم كنت أحب أن أستعرض هذا الكتاب للقارئ ، لولا أني آثرت شيئا آخر لنفسى ولقارئى معا ، وهو أن أجادل أديبنا الكاتب رأييه في اعتماد النقد الأدبي على الذوق ، في كلمة أوجهها

كذلك إلى الدكتور مندور وإلى كل من يأخذ بهذا الرأي في أساس
النقد . . . أريد أن أبسط رأيي في شيء من التفصيل ، لأبين للتأري
ما أذهب إليه وأدين به ، من وجوب 'عَد' النقد الأدبي على العقل
دون الذوق . . .

ياويح نفسي من هذه الألفاظ تلوكها الأفواه ، ويشتمد حولها
الجدال والقتال ، دون أن يتمهل المجادلون المقاتلون لحظة واحدة
يتبينون فيها معاني هذه الألفاظ التي شمروا عايتها السواعد وأرهفوا
الأسنة وشرعوا السيوف ! يرحمك الله ياسقراط رحمة واسعة ،
إنك لم تطلب إلى الناس إلا هذا المطلب المتواضع : تحديد الألفاظ
التي يستخدمونها في أحاديثهم ونقاشهم ، ولو قد فعلوا ، لاستراح
ضمائرهم ، واطمأنت أفئدتهم في صدورهم .

إن موضوع الخلاف بيني وبين الأدبيين الكبارين هو أنهما
يريدان للنقد الأدبي أن يعتمد على الذوق ، وأريد أن يعتمد على
العقل ، بعبارة أخرى ، هما يريدان للنقد الأدبي أن يكون فنا ،
وأريد له أن يكون علما . أنظر - نشدتك الله - إلى هذه الكلمات
التي حشرناها حشرا في سطر واحد ، ولو تناولنا واحدة منها بالتحليل
والتحديد ، لجاز أن ننفق أعمارنا دون أن نبلغ المدى !! « فن » ،
« علم » ، « ذوق » ، « عقل » .

ما معاني هذه الكلمات الأربع على وجه التحديد ؟ ألا يجوز أن
ينحسم الخلاف إذا ما اتضحت لنا تلك المعاني ؟ ذلك ما أنا فاعله

الآن ، غير زاعم أنى أقول كلمة الأخيرة فى شىء ، وكل ما أدعيه هو أنى حين أقول إننى أريد للنقد الأدبى أن يعتمد على العقل دون الذوق ، فأنما أقول ذلك وفى ذهنى ما سأثبته الآن من معان لهذه الألفاظ .



ماذا أفهمه من كلمة « فن » ؟

أنا الآن جالس إلى منضدة صغيرة أكتب هذا المقال ، فحانت منى التفاتة من نافذة صغيرة إلى يسارى ، ورأيت غرابا يرف بجناحيه ، نعنق نعتين كان فى صورتها تهيج ، ثم هبط على غصن من شجرة لا أعرف نوعها ، ولعله هبط على مكان من الغصن أوراقه متهافته ، فسقطت ورقة تأرجحت فى الهواء ، وهوت إلى الأرض هويأ بطيئاً . . .

هذه صورة مركبة من جملة عناصر ، نكتفى الآن منها بثلاثة : أنا والغراب والشجرة (لأنك تستطيع أن تضيف عشرات العناصر الأخرى مما أراه وأسمعه وأحسه بجلدى وأفكر فيه فى هذه اللحظة عينها) .

أما أنا ، فبديهى أننى كنت فى هذه اللحظة من لحظات حياتى فى حالة معينة فذة فريدة ، لم يسبقها قط منذ ولادتى ، ولن يلحقها قط إلى مائى لحظة أخرى تطابقها كل التطابق من جميع الوجوه ، فلا يعقل أن يتكرر موقفى إذ ذاك بما فيه مما يحيط بى من أشياء وملابس ، وما أرى ، وما أسمع ، وما يدور فى نفسى من خواطر ، وأقل ما يقال

في هذا الموقف الفريد الفذ ، هو أنني كنت قبل الآن أصغر مني الآن ، وسأكون بعد الآن أكبر مني الآن ...

وأما ما رأيته من الغراب فبقعة سوداء ، تحركت حركة معينة ، ثم سكنت في مكان معين ، على هيئة معينة . . بقعة سوداء ! لكن السواد يا صاحبي له ظلال تعد بالآلاف ، فأى ظل من هذه الظلال رأيته ؟ . والبقعة السوداء تحركت ! الحركة كذلك يا صاحبي لها ألوف الآلاف من الصور ، فبأى منها تحركت تلك البقعة السوداء ! ؟ . ثم سكنت البقعة السوداء في مكان معين ! حتى السكون يا صاحبي صنوف وأشكال ، فليس سكون النائم مثل سكون الميت ، وليس سكون الصخرة ملقاة على سفح الجبل كسكون غرابك هذا على الفن . . . وقل مثل هذا فيما سمعت من الغراب ، سمعته ينعتى نعتين في صوتهما تهديج ، كم درجة من الصوت سمعت أذنالك ؟ وفي أية درجة من الدرجات أردت أن أضع نعيق الغراب ؟ الحق أن ما رأيته من الغراب وما سمعت مركب فريد من عناصر اجتمعت على نحو يستحيل أن يكون له ما يماثله مماثلة تامة في كل ما رأيته وما سأرى من الغربان . وما قلته في نفسي وفي الغراب ، أستطيع أن أقوله في الشجرة والورقة التي سقطت منها وهوت إلى الأرض ... ثم يزيد الأمر كله في درجة التركيب والتعقيد حين نضيف هذه الأشياء الثلاثة بعضها إلى بعض في صورة واحدة ، هي صورة فذة فريدة - كما أسلفت - لم تعرف ، وإن تعرف الحياة لها مثيلاً آخر ، بكل ما في التماثل من دقة وتطابق .

وكأنى ألمح فى قارئى علام الدهشة من هذه المبالغة فى قولى ،
ولكن ليس فى الأمر يا صاحبى غرابة ولا عجب ! هكذا الحياة فى
شئى صورها ، الحياة لاتعرف تكرار الأفراد . كل كائن حى -
والكائنات الحية ملايين الملايين - فيه ما يجعله فردا بذاته يختلف ولو
قليلا عما عداه ، خذ ورقة من شجرة ، ودر بها الأرض من قطبها إلى
قطبها ، فلن تجد لها مثيلا بمعنى التماثل الذى تنتفى فيه كل الفروق المميزة
انتفاء تاما . وانظر إلى ألوف الناس من حولك ، هل رأيت قطفردين
يتشابهان إلى الحد الذى تنمى فيه المميزات جميعا ؟ لا ، بل الاختلاف
بين الأفراد أدق من هذا وألطف ، فبصمات الأصابع لاتتشابه فى
الأفراد ، ودع عنك دقائق الجسم الباطنية من حيث الشكل
والحجم والتركيب .

هكذا الحياة يا صاحبى فى شئى صورها ، فلا موضع لغرابة
منك أو عجب ، الحياة لاتعرف تكرار الأفراد ، بل لاتعرف
تكرار اللحظات فى الفرد الواحد ، فيستحيل أن يكون الكائن الحى
فى هذه اللحظة هو بعينه ما كان فى لحظة مضت ، وهو بعينه ما سيكون
فى لحظة تالية .

والفن كما يقولون تصوير للحياة ! مقياس الفن ، بل معنى « الفن »
هو التقاط موقف فرد ما يعجب به العالم من حولنا . لو قلت كلاما
يصور حقيقة عامة تنطبق على هذا وذلك فقولك بعيد عن الفن الرفيع ،
ومن هنا كانت ثورق النفسىة ، وكان غيظى الشديد ، كلما قرأت
لكاتب من كتابنا يقول عن هذا الشاعر أو ذاك من أسلافنا إنه

شاعر لحكمته ، أو لصدق حكمه ، أو ما إلى ذلك . الحكمة ياسيدى
القارىء والحكم الصادق أدخل فى باب العلم لأنها تعمم القول ولا
تخصصه فى تصوير موقف فريد ، وإلا نخبرنى - أثابك الله - ما الفرق
بين شاعرهم حين يقول ، « والظلم من شيم النفوس » وبين عالم الطبيعة
حين يقول : « التمدد بالحرارة من شيم الحديد » و « الغليان من
صفات الماء » ؟ كلاهما يعمم الحكم ، وإذا فكلاهما عالم وليس بأديب
ولا يكون ذلك الشاعر شاعرا إلا إذا صور حالة جزئية فريدة من
حالات الظلم ، أو صور ظلما معيناً يتجسد الظلم فى أعماله .

إننا نقول إن شكسبير كان شاعرا فنانا حين كتب مسرحيته عن
كليوباتره ، وشوقي لم يكن شيئا حين كتب ، لأن الأول قد استطاع
بقوة فنه أن يجمع عناصر جزئية بعضها إلى بعض بحيث تتكون
صورة فذة فريدة لشخصية تجعلها كهذه الأشخاص الذين تراهم حولك
أحياء ، وأما الثانى فربما حاول ذلك ولم يوفق . ونجعل كتاب « الأيام »
للدكتور طه حسين باشا خير كتبه جميعا لما فيه من تصوير لطفولة
واحدة فريدة لا تجتمع عناصرها إلا مرة واحدة ، ونجعل « سارة »
خير ما أنتجه الأستاذ العقاد لإبرازه فيه شخصية واحدة كذلك ،
ونرجح للدكتور أحمد أمين بك أن يخلد فى دولة الأدب بكتاب
زعماء الإصلاح^(١) أكثر من أى كتاب آخر ، لأنه وفق فيه إلى هذه
الفردية التى ينشدها الفن ، حين رسم صورة هؤلاء الزعماء .

لو أحسنت لجعلت مقياسك فى الحكم دائما على القطعة الفنية كائنة
ما كانت هو هذا : إلى أى حد أخرج الأديب أو الفنان مركبا من

عناصر الحياة يستحيل أن يقع إلا مرة واحدة ؟ إن تغزل حبيب في حبيبته ولم تلح في عبارته ما يفرد حبه عن حب سائر الناس ، بل لم تلح فيه ما يفرد تلك اللحظة الواحدة من حياته الغرامية عن سائر لحظات حياته الغرامية أيضا ، فاعلم أنه شاعر زائف لا يصدر عن شعور صحيح ، لأن شعوره الصادق الصحيح في تلك اللحظة إزاء حبيبته شيء فريد لم يتكرر ، ولن يتكرر له مثل إلى أبد الآبدين .

وقد قلت هذا الكلام يوماً لأستاذ يحاضر في الأدب ، فضحك مني ساخراً وقال : إنك تجعل الأدب أضيق من سم الخياط ، وأنا الآن أرد عليه بقولي إنه فعلاً كما وصف ، وإلا فليحدثني لماذا يزخر كل جيل من الناس في البلد الواحد بآلاف «الأدباء» و «الشعراء» ثم لا يبقى الزمان من هؤلاء إلا أديباً واحداً أو شاعراً واحداً من كل عدة أجيال ؟ ذلك لو نظرنا إلى العالم كله جملة ، ولم نقصر نظرنا على قطر بعينه ، لأننا قد نحصر النظر — ياسيدى الأستاذ — في قطر واحد ، ولا أقول ما هو . قد نحصر النظر الصارم الصادق في هذا القطر الواحد فلا نراه قد أنجب أديباً واحداً ولا شاعراً واحداً في طول الزمان من مولده ... ولا أقول إلى منتهاه !



حسبي هذا في تحديد الفن — ومنه الأدب بالطبع — لأسائل نفسي : وماذا تريد بكلمة « العلم » ؟ .

العلم — كما قلت في كلمتي للدكتور مندور عند التعليق على كتابه — هو منهج لا موضوع ، فقد يختلف الموضوع عند مختلف العلماء ،

فيكون النبات عند هذا وطبقات الأرض عند ذلك ، قد يكون الموضوع هو أجرام السماء عند عالم وماء البحر عند آخر ، قد ينفق أحد العلماء عمره في حشرة يدرسها ، وقد ينصرف عالم آخر بجهد كفه إلى إشعاع الراديوم ، وكل هؤلاء علماء ! لماذا ؟ لأنهم جميعاً يصطنعون منهجاً معيناً في فرض الفروض وتحقيقها . وليس هنا مجال التفصيل في ذلك .

لكن الدكتور مندور لم يعجبه منا هذا القول ، فأذكره ، قائلاً :
(إن الذي يعرفه الجميع تعريفاً للعلم هو أنه « مجموعة من القوانين التي تفسر الظواهر الطبيعية » ...) . وقد كنت أحب أن يستثنى على الأقل من هؤلاء الجميع ، لأن « القوانين التي تفسر الظواهر الطبيعية » تتغير وتبديل في مختلف العصور ، قد يقول هذا بقانون ما ، يفسر به ظاهرة طبيعية ، وقد يقول غير ذلك من زملائه المعاصرين — ودع عنك من سبقوه ومن سيلحقون به — قد يأخذ زميل له بقانون آخر يفسر به الظاهرة عينها ، ومع ذلك فكلاهما عندنا عالم إذا اتبع منهج العلم الصحيح ، بغض النظر عن القوانين التي وصل إليها هذا أو ذاك . ولو كانت العبرة في تعريف العلم بالقوانين التي تفسر الظواهر الطبيعية ، للزم أن نخرج من قائمة العلماء كل من لم تثبت قوانينه التي وصل إليها ثبوتاً يدوم على مر الزمن ، وبعبارة أخرى ، لزم أن نمحو كل العلماء من قائمة العلماء ! .

ولو كان العلم منهجاً — لا موضوعاً معيناً — كما نعتقد ، لما كان مستحيلاً أن ينصب هذا المنهج على الآثار الأدبية فيصبح النقد علماً .

وسنعود إلى تفصيل ذلك .

أقول إن المجال لا يسمح بذكر تفصيلات المنهج الذى يجعل العلم علماً ، لكننى أذكر من خصائص هذا المنهج خصيصه لا بد من ذكرها فى سياق هذا الحديث ، ليتكامل رأى الذى ندافع عنه :

من أخص خصائص المنهج العلمى أن يسقط ما هو خاص من جوانب الموضوع الذى يبحثه ، فلا يستبقى إلا ما هو عام بين الناس ومن هنا يتضح الفرق بين الفن والعلم ، فبينما الفن كما قلنا - يلتقط من الموضوع تلك العناصر التى تجعله فرداً فريداً لا يتكرر فى أشباهه ، نرى العلم يستبعد هذه الجوانب الخاصة من موضوعه ليحصر نظره فى العام المشترك ، فمثلاً ، إن طالعتنا بأوصاف تتجمع فى أذهاننا فتسكون منها صورة فريدة لشخص معين كما فعل شيكسبير مثلاً فى تصوير هاملت أو الملك لير أو غيرهما من عشرات الأشخاص الذين رسمهم بقلبه - أقول إن طالعتنا بمثل هذه الصورة الفذة الفريدة التى تجاء ما يطابقها تمام التماثل فى سائر أفراد الناس ، كنت أديباً فناناً أما إن أتيتنا بقواعد عامة لسلوك الناس على اختلافهم ، فأنت عالم يشاهد الجوانب المشتركة بين الأفراد ، فيجردها وسجلها ، ولا يغير من الموقف أن تضع عليك هذا فى قصيد منظوم .

وهاهنا نضع إصبعنا على مميز واضح للعاومى شتى صورها ، يميزها من الفنون فى مختلف ألوانها ، وهو « التجريد » . العاوم موضوعاتها جوانب مجردة انتزعناها من المفردات التى نشاهدها ، والفنون موضوعاتها هى هذه المفردات فى تفردها ، فلو لحظت صفة

تميز البقر - مثلاً - فُعر لنها بذهنك جانباً ، فقلت إن البقر يجتر ، كنت بمثابة العالم ، لأنك جردت صفة واحدة من مجموعة صفات لا توجد في العالم الواقع إلا مركبة مشتبكة ، أى انتزعتها وحدها ، مع أنها لا توجد في الدنيا الحقيقية وحدها ، ثم لأنك عممت هذه الصفة بين البقر جميعاً ، أما إذا استوقفت نظرك بتمرة واحدة بشيء ، فصورتها رسماً أو كلاماً أو نحتاً ، بحيث تثبت لها فرديتها التي لا تشترك فيها مع سائر البقر ، فأنت ها هنا بمثابة الفنان .



وننتقل في هذا الموضع إلى صميم ما أردنا أن نعرضه على القارىء ، وهو الذوق والعقل ، مامعناهما ، لنرى أيهما يصلح معياراً للنقد الأدبي وبالتالي لنرى هل يكون النقد الأدبي فناً أو علماً .

سأعرف الذوق بأنه تأثر أية حاسة جسدية بأى أثر من الآثار . إن الذوق في أصله تأثر حاسة معينة عضوها اللسان ، لكننا في هذا السياق سنعمم استعمال الكلمة على سائر الحواس ، فلو نظرت إلى شجرة أمامك ، فلنسم انتاباع صورة الشجرة على شبكية عينك وتأثرك بها ذوقاً ، على غرار ما يتأثر اللسان بذوق الطعام الذى يمسه ، وكذلك قل في سمعك لصوت ، أو لمسك لشيء . أو شمك لرائحة .

وبديهي أن الحاسة لا تتأثر إلا بما هو فرد فريد ، فليست « الحرارة » بصفة عامة هي التي تلسع أصابعك ، لكنها « هذه القطعة المعينة من الحديد » هي التي تلسعك ، وأنت لا ترى « الشجر » بصفة عامة ، بل ترى هذه الشجرة الواحدة المعينة في هذه اللحظة الزمنية المعينة ،

وهكذا قل في سائر المدركات الحسية .

وسنسمح لأنفسنا أن نستعمل كلمة « الذوق » في تأثر الإنسان بما هو فريد من المشاعر ، على نحو ما أطلقناها على تأثره بما هو فريد من الإحساسات ، فمثلا - إذ أصيب إنسان بموت ولده ، فسيحزن ، ولكنه لن يحزن « حزنا عاما » بل حزنا خاصا فريدا في ظروفه وفي الشعور به ، وإذا رأيت منظرا جميلا ، شروق الشمس أو غروبها مثلا ، فستشعر بفرحة قوية حسب استعدادك ، لكنك لن تفرح « فرحا عاما » بل فرحا فريدا فذ يتعلق بمنظر فريد فذ كذلك ، وحتى لو فرحت بشروق الشمس أو غروبها كل يوم ، فالمنظر في كل مرة من هذه المرات واحد متميز لا يطمس مع أقرانه في سائر الأيام . هذا التأثير الفريد المتميز ، الذي تنطبع به نفسك استجابة لموقف فريد متميز كذلك ، هو الذوق ، وهو كما ترى شيء خاص بك ، يستحيل أن تنقله إلى سواك ، يستحيل أن تنقل إلى ما تشعر به أنت من ألم في ضررك أو حزن على فقيدك الذي تحبه وتعزه ، كما أنه يستحيل أن تنقل إلى تذوقك للطعام ، وكل ما في استطاعتك أن تقول لي كلمات لتشير في نفسي إحساسات ومشاعر أستمدها من تجاربي الخاصة أيضا ، فإن قلت لي مثلا : إني حزين على ولدي الذي مات ، فربما حزننت لحزنك ، لكنني سأحزن حزنا ثانيا خاصا بي ، سأستشير من ذكرياتي شعور الحزن ، إنك لم تنقل إلى حزنك وإنما أثرت في نفسي جانبا من سابق خبرتي .

هذا هو الذوق ، وأما العقل ياسيدى القاريء ، فلسنا نريد أن

نصوره سحراً غامضاً ، ليرتفع كل متكلم وكل كاتب في معانيه كيف شاء . العقل هو ألا يكون في قولك تناقض ، هو ألا تقول قولاً ينقض بعضه بعضاً .

وبديهي أن التناقض لا يعنى شيئاً إذا طبقناه على الأفراد . إذ لا معنى لقولك إن هذا الكتاب الذى أمامى يناقض هذا القلم ، أو إن شعورى بالحزن فى هذه اللحظة يناقض شعورى بالفرح عصر الأمس ، أقول إن التناقض لا يكون بين المفردات الواقعة ، وإذا فهو لا يكون أبداً فيما ألتقاه عن العالم بالذوق ، لأن الذوق - كما أسلفنا - هو وسيلة تأثرنا (بالحس أو بالشعور) بتلك المفردات الواقعة . من هنا استحال علينا أن نقول لشاعر صدقت أو كذبت ، هذا إن كان الشاعر شاعراً حقيقياً يعبر عن أثر شعورى فريد .

وإنما يكون للتناقض معنى فى التعميمات المشتركة ، فإذا قلت عن شئ إنه فوق المنضدة ، فمن التناقض أن تعود فتقول إنه تحتها ، و « فوق » و « تحت » وأشباههما من المعانى مشتركة عامة ، وليست هى بالاحساسات الفذة الفريدة .



وبعد ، فهل يكون النقد الأدبى للذوق أو للعقل ؟ هل يكون فناً أو علماً ؟ هذه هى المشكلة - كما يقول هاملت .

وأعتقد أن الأمر لم يعد عسيراً بعد تحديد الألفاظ الذى أسلفناه . فهبك قرأت قصيدة فأشاعت فى نفسك لذة ، إلى هنا أنت بمثابة المتذوق الذى يتأثر بشعور فريد خاص به ، ولسنا نحرمك ولا نحرم أحداً من

هذه اللذة الذوقية بأى معنى من معانى الحرمان ، لكن اذكر -
استحلفك الله - أن ذلك التذوق يستطيعه الألبكم ، فلا تقل : إننى
مادمت قد قرأت القصيدة وذقت فيها حلاوة فأنا ناقد !! لا تقل ذلك
بربك العظيم ، لأن الألبكم يستطعم القصيدة كما استطعمتها أنت ، ثم
لا ينطق ، والناقد بالطبع لابد فيه من كلام يقوله لنسمع .

لكنك است مصابا بالبكم ، وتريد أن تتكلم بعد استمتاعك بما
قرأت ، عندئذ أنت بين أمرين ، فإما أن تقول ماشئت من كلام
تقصد به أن تثير فى نفس سامعك مثل الأثر الذى وجدته أنت ، وقد
تفاح وقد لا تفاح فى تحقيق بغيتك ، لكنك - على فرض توفيقك -
بمثابة الأديب المبدع ، لا الناقد ، لأنك تؤدى ما يؤديه الأديب ،
وهو أن يقول كلاما يرصه على الصورة التى يهوى ، ليؤثر فى السامع
وقد نجحت ، وسم هذا الضرب إن شئت نقدا تأثيريا ، إذا ضمنت
لنفسك جرصا لا ينسبك أنه لا يصف حقيقة القطعة الأدبية ، بل يصف
وقعها فى نفسك .

وأعجب العجب فى هذا الصدد أن نفتح « منهج البحث فى الأدب
واللغة » للانسون ، وهو الذى يوصينا به الدكتور مندور لنتدى
سواء السبيل ، فنرى الرجل يفتتح بحثه قائلا : « فالنقد التأثرى نقد
مشروع لا غبار عليه ، ما ظل فى حدود مدلوله ، ولكن موضع الخطر
هو انه لا يقف قط عند تلك الحدود . فالرجل الذى يصف ما يشعر
به عند ما يقرأ كتابا مكتفيا بتقرير الأثر الذى تخلفه تلك القراءة فى
نفسه ، يقدم بلا ريب للتاريخ الأدبى وثيقة قيمة ... ولكن مثل هذا

الناقد قلما يمسك عن أن يزج بأحكام تاريخية خلال وصفه لأثر الكتاب في نفسه ، أو أن يتخذ من ذلك الأثر وصفا لحقيقة الكتاب الذى يترؤه ... ولذا كان من أهم وظائف المنهج أن يطارد هذا النقد التائثرى .

كلا ، أيها القارئ الكريم ، لسنا نحرمك بأى معنى من معانى الحرمان ، أن تقرأ وتتذوق ثم تسكت ، فلا تكون شيئا بالنسبة إلينا ، ولسنا نحرمك بأى معنى من معانى الحرمان أن تقرأ وتتذوق ثم تكلما لتثير فينا أثرا مثل الذى تأثرت به ، وعندئذ تكون أديبا من المرتبة الثانية . فليس هنالك فرق جوهرى فى طبيعة الموقف بين تأثر الأديب الأصيل بالطبيعة مباشرة فيكتب ، وبين أن تتأثر أنت بالأثر الأدبى فتكتب ، وفضله عليك هو أنه أسبق منك إلى إدراك الجمال فى الطبيعة ، لكن كلاهما مع ذلك أديب يتأثر فينشئ ليحدث فى القارئ أثرا شبيها بأثره .

أما إذا أصررت على أن تكون ناقدًا ، فلا مندوحة لك عن خطوة بعد قراءة التدوق ، خطوة هى وحدها التى تجعلك ناقدًا ، وهى أن تسال نفسك ماذا فى هذه القصيدة من العوامل الموضوعية التى أثارت فى نفسى هذا الشعور أو ذاك ؟ وقد ينتهى بك البحث — مثلا — إلى أن اختيار الشاعر للبحر الطويل جاء موفقا لأنه يناسب موضوعه فأحدث ما أراد أن يحدثه من أثر فى نفس القارئ أو السامع ، أو إلى أن كثرة الرأىات فى هذا البيت جعله جميلا ، وكثرة السينات والصادات فى ذاك ... لكن هذه وأشباهاها قواعد عامة ،

فإنك تقول : كل بيت يصف خير الماء وتكثر فيه الرأىات فهو جميل فى هذا الجانب منه ، وكل بيت يصف الحرب بالسيف وتكثر فيه السيدات والصادات فهو جميل كذلك فى هذا الجانب منه ، وهكذا . أنت هنا لا تنقل إلينا عناصر تجتمع فتكون موقفا فريدا لا يتكرر ، بل تحدثنا عن قواعد عامة تتكرر فى كل حالة شبيهة بالحالة التى أنت بصدد تحليلها ، وما دمت فى مجال التعميم فأنت عالم وإذا فالنزد علم . ثم يقتضيك المنطق - أى العقل - ألا تناقض ما نقوله فى موضع ، بما نقوله فى موضع آخر فلا تقل مثلاً فى موضع ما : إن البحر الطويل يناسب التعبير عن الحزن لأنه بطيء والحزين بطيء الحركات والكلمات ، ثم تناقض ذلك فى موضع آخر وتزعم لنا أن البحر الطويل لا يناسب الحزن . . وإن كان هذا هكذا فأنت تصدر فيما تقول عن عقل ، إنك حين تنقد ، عالم لافنان ، يبنى كلامه على عقل - أى يخلصه من تناقض أجزائه - لا على الذوق الذى يتأثر بهذا الفرد الجزئى أو ذاك وكفى .

ولأنك فى نقدك عالم يبنى قوله على العقل ، أمكن أن نناقشك الحساب فيما تقول ، فنعترف لك بصدق قولك أو ندعى عليك الكذب ، ولا يكون كذب أو صدق إلا فيما يصور شيئاً موضوعياً بعيداً عن ذوقك الخاص وشعورك الخاص ، بل يستحيل استحالة قاطعة أن تفيدنى شيئاً على الإطلاق بكلامك ، إذا أردت أن تنقل إلى هذا الذوق الخاص وهذا الشعور الخاص ، لأنه خاص بك ، صوب فى أعصابك .

لست إذاً أوافق أديبينا الكريمين : الدكتور مندور في كتابه
« النقد المنهجي عند العرب » ، والأستاذ علي أدهم في كتابه « نبلى
هامش الأدب والنقد » فيما ذهبوا إليه من أن النقد فن ومردده للذوق ،
وأصر - كما قلت - على أن يكون علماً ، مرجعه إلى العقل ، على
شرط أن تفهم هذه الألفاظ بما حدثت لها من معان .

دفاع عن الادب (١)

تطغى على العالم موجة مادية تجتاحه أصولا وفروعا، وتريده على أن يحمل تراث الانسانية الادبي، منذ فجرها حتى اليوم الراهن، فيأخذ سمته نحو أليم، فيلقى بذلك التراث في لجة ماله من قرار، ثم يعود وقد أزاح عن كاهله ذلك العبء المضني من دموع الشعراء وأنينهم وهزات نشوتهم وسرورهم، وغير ذلك من نزوات الطفولة التي لا تدعو إليها ضرورة ولا شبه ضرورة في هذا العصر الحديث، وأن تتوفر على أزيز المعامل ومقارع الآلات، التي لا ينبغي أن يطارب لسواها، أو ينصت لصوت غير صوتها!! وماذا يغني دانتى وشكسبير بجانب علوم الطبيعة والكيمياء، التي على أساسها تعمل المطارق وتدور الأرحاء!! وفي ذلك يقول الكاتب الانجليزي توماس بيكوك: «الشاعر في عصرنا هذا نصف همجي يعيش في عصر المدنية، لأنه يقيم في الزمن الخالي، ويرجع بخواطره وأفكاره وخواجه وسوانحه إلى الأطوار الهمجية، والعادات المهجورة، والأساطير الأولى، ويسير بذهنه كالسرطان زحفا إلى الوراء..... لقد كان الشعر نقرة تنبه الذهن في طفولة الهيمنة الاجتماعية، ولكن من المضحك في عصر

(١) كتبت سنة ١٩٣٣

النضج العقلي أن نغنى بالأعيب طفولتنا ، ونفسح لها موقعا من
شواغلنا ، فإن هذا سخف يشبه سخف الرجل الذي يشتغل بالأعيب
الصبيان ، ويكي لينام على رنة الأجراس الفضية .

هكذا يقال عن الأدب الآن . كأنه عرض من أعراض الحياة ،
لا يمسها في الجوهر والصميم ، والواقع أننا حين نزل عن الأدب
وسائر الفنون ، فإننا إنما نزل عن نفوسنا ، لأن هذه وتلك شيء
واحد اختلفت أوضاعه

وللشاعر الفيلسوف طاغور تحليل يبين به موضع الفن من
أساس الحياة ، وأنه ضرورة لازمة لامناس منها ، ونحن نورد
للقارئ خلاصة موجزة لذلك البحث الجليل :

من الحقائق البديهية ، أن الإنسان مرتبط بهذا العالم بصلات شتى ،
فهو يعيش في مضطرب الحياة مدفوعا بطائفة من الحاجات التي يتحتم
عليه قضاؤها وهو في تلك المحاولة مضطر إلى أن يتصل بالعالم اتصالا
ليس له عنه منصرف ولا محيد

فالحاجة الجسمية تمل عليه أن يفلح الأرض ويتعهد الزرع حتى
يثمر له القوت ، وأن يلمس من الطبيعة مسكنا وملبسا يدفعان عنه
القر والهجير

والحاجة العقلية تريده تلي أن يمعن النظر ويستقصى البحث في
مظاهر الكون ، لأن العقل لا يقنع بالنظر إلى الأشياء الخارجية دون
أن يتتبع العال ويكتشف القوانين العامة التي تنتظم جميع الجزئيات ،
فهو ملبوع على هذا البحث ، ليخفف عن نفسه أعباء الحقائق

الكثيرة التي تصادفه في حياته ، باخترها في عدد قليل من القوانين
أو في قانون واحد شامل إن استطاع إلى ذلك سبيلا

ولست حاجة الانسان تقتصر على العقل والجسد ، بل هو يحمل
بين جنبيه نفسا لها مطمح تنشده وتسعى إليه ، فهي بدورها مضطرة إلى
أن تتصل بالكون كي تلتمس عند مظاهره ما تصبو إليه ، وهي بحكم
وجودها تعالج ضروبا من المشاعر ، فهي تموج بالأمل والسرور
والغضب وغير ذلك من ألوان الشعور .

ولكن هذه الروابط التي تصل الإنسان بالعالم لا تقتصر عليه
دون سائر الحيوان ، فهو يشاركه في الحاجة الجسمية ويشاركه في
الحاجة العقلية - إن صح إطلاق هذه الكلمة على الحيوان الأعجم -
كما يشاركه في مشاعره النفسية كذلك ، إلا أن أهم ما يرتفع بالانسان
عن مرتبة الحيوان ، أن هذا محدود في دائرة ضيقة جداً ، لا تتسع
لأكثر من الضرورات التي يقتضيها استمرار الحياة ، فهو يندل ما يندله
من مجهود لحفظ كيانه ، والاحتفاظ بجنسه ، ثم لا يزيد على ذلك إلا
بمقدار ضئيل ، أما الانسان فلا تكلفه الضرورة إلا بقدر محدود ثم
يبقى لديه من القوة ما يجول به حرا من الأصفاد والقيود ، مثل
الحيوان في ذلك ، مثل الزارع الذي ينوء بأعباء الدين الفادحة فهو
يكند ويكدح ويعمل ويشقى طول العام ، فإذا ما حان الحصاد تسرب
النمر إلى الدائن ، ويخرج صاحبنا من المعركة صفر اليدين ، أما
الانسان فهو في هذا التشبيه صاحب ضيعة واسعة النطاق ، لا يفقد من
دخله إلا جزءا يسيرا ، ثم ينعم بعد ذلك حرا لا يقف دونه سلطان

ولا رقيب ، أى أن لديه من ثروة الحياة ما يزيد على الحاجة الضرورية
بتمدر عظيم . وبذلك يتاح له من القوة والفراغ ، ما يستطيع معه أن
يعالج مختلف الشؤون ، لا باعتبارها واجبا حتما تمليه ضرورة الوجود ،
ولكن على أنها أغراض فى نفسها تقصد لذاتها .

فللحيوان مقدار من المعرفة ولا ريب ، إلا أنها معرفة ضئيلة
محدودة ، يستخدمها فى حفظ الحياة وكفى ، فهو ملزم أن يدرس بيئته
فى شىء كثير من الدقة ليستطيع أن يتخذ لنفسه من أركانها مستقرا
يثويه ، وليتمكن من الحصول على طعامه وشرابه فى سهولة ويسر ،
وهو ملزم كذلك أن يعلم بعض خواص الأشياء من حيث اللدونة
والصلابة مثلا ، ليبنى ما يشاء من أوكار ، ويعالج شؤون الحياة الأخرى ،
وهو لابد أن يعرف للفصول المختلفة علامات تدل على قدومها ، حتى
ينتهي لأجوائها المتباينة بالريش أو الفراء ، هذه وأشباهها معرفة لاندحه
عنها لكل أنواع الحيوان للذود عن كيانها والاحتفاظ بوجودها ،
ولكنها لا تزيد على ذلك إلا قليلا . والانسان أيضا ، لديه تلك المعرفة
اللازمة لاستمرار الحياة — حياة الفرد والجنس — ولكن معرفته
لا تقف عند هذا القدر القليل ، بل تفيض معرفته فيضا غزيرا يطغى
على تلك الحدود الضرورية ، فهو يحصل جانبا عظيما من المعرفة لذاتها ،
وينشد العلم لأجل العلم ، لا يبغي وراء ذلك قصدا ولا غاية . ومن
هذا الفيض العلمى تنشأ الفلسفة والعلوم .

وللحيوان جانب خلقى غير منكور ، فلديه كثير من الإيثار تراه
واضحا فى حنان الأم على صغارها أيا كان نوعها ويبدو ذلك الإيثار

بارزا في هذه النحلة العاملة ، وتلك النحلة المثابرة ، فهما تسعيان وتطوفان
هنا وهناك ، تجمعان القوت ، ولكن لماذا ؟ لحلية النحل كلها أو لجماعة
النحل بأسرها . وهذا المقدار الضئيل من الأخلاق ، إنما أوجدهته
ضرورة الحياة عند الحيوان ، أما الانسان فقد رسم لنفسه من
النشرع الخلق ما يربى على حاجته الضرورية أضعافا مضاعفة ، فهو
يفرض على نفسه التحير لأنه صالح للجماعة أولا ، ولكنه لا يكتفى
بهذا الغرض المتواضع ، بل يمعن في ذلك إمعانا بعيدا ، فينشد الخير
محضا ويطلبه لذاته فقط ومن هذا الفيض الخلق ، نشأ علم الأخلاق .
وللحيوان شعور يحسه ويعبر عنه ، فهو يبغض ويحب ، وهو يسر
ويحزن ، وهو يأمن ويخاف . ولكنه كذلك لا يعدو في التعبير عن
مشاعره ذلك الحد الذي تقتضيه ضرورة الحياة . أما الانسان ،
فعواطفه — وان تكن قد نشأت في الأصل لتلك الأغراض التي
نشأت من أجلها عواطف الحيوان — إلا أنها قد جاوزت ذلك
الحد تجاوزاً فسيحا . وتركت في الأرض جذورها الأولى التي
أخرجتها إلى الوجود ، وانبسقت عالية منتشرة بغصونها في سماء
اللانهاية ، نعم لدى الانسان من العواطف أضعاف أضعاف ما تتطلبه
طبيعة وجوده ، وهذا الفيض الغزير العميق من المشاعر التي تضطرم
وتتخدم في الصدور ، لا بد أن يجد متنفساً يتسلل منه ، ليعلن عن
نفسه في أنحاء الوجود ، وقد كانت الثغرة التي تدفق منها ذلك الفيض
الشعورى هو الفن الجميل في ضروبه المختلفة من أدب وتصوير ونحت
وموسيقى وغيرها . إذ اتخذها الانسان أداة للتعبير عما يحسه من شعور

وهذا الشعور الذى يتمس طريقه إلى عالم التعبير فى صورة فنية ،
انما يكشف عن نفوسنا وما يدور فيها من إحساس . وبعبارة أخرى
إن الفنون وسيلة لابرار مشاعر النفس الإنسانية ، دون الأشياء
المحسة التى تتعلق بها تلك المشاعر ، وبذلك أتاحت للانسان أن يسكب
نفسه أمامه ، فيراها ويلبسها ، وليس له عن ذلك بد بحكم تكوينه ، فهو
حين ينظم القصيدة من الشعر ، أو يضرب على أوتار الموسيقى ، فإن
ذلك يوازى فى قائمة الضرورات الانسانية الملبس والطعام ، ومن
هنا كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يعرف نفسه ويشعر
بوجوده .

ولما كانت الآداب والفنون هى شخصيتنا تدفقت إلى العالم
الخارجى فى مختلف الأثواب ، كان لا يصلح موضوعاً للفن إلا ما يتصل
بنفوسنا ويتنظم فى سلك مشاعرنا . أو تغذوه عواطفنا ، فيكتسى
الرضى أو السخط أو السرور أو الألم أو غيرها ، وعندئذ يصبح جزءاً
منا ، يصح له أن يبرز فى صورة فنية . فعلينا أن الأرض تبعد عن
الشمس كذا ميلاً لا يصلح موضوعاً للفن لأنه لا يمس نفوسنا ، أما
منظر غروب الشمس فهو يثير فينا عاطفة ما — الإعجاب مثلاً —
فيمزج المنظر بنا ، ويختلج فى نفوسنا ، ثم لا يلبث أن يسلك سبيله إلى
التعبير . وهكذا كلما اجتمعت مشاعرنا حول شئ معين فانها تجاهد
فى الإفصاح عن نفسها مستعينة فى ذلك بالفنون ، ولما كانت معظم
الأشياء التى تصادفنا فى الحياة تثير فينا لونا خاصاً من العواطف ،
فالانسان فنان فى الكثير الغالب من نواحي الحياة . فهو يشيد دوراً

فخمة لمسكنه ، وكان يكفيه كوخ خشب ضئيل ، وهو يتنى المعابد
والمساجد الشاخنة ، التي ترسل قبابها ومآذنها فى الفضاء . لينفس عن
عاطفته الدينية ، وكان يكفيه حيز محدود فى العراء لأداء فريضته ،
وهو يخطط المدن وينسق الحداثق ، ايرضى عاطفته الوطنية ، وهو
يعنى بأثاث منزله وجمال ملبسه إلى آخر دقائق الحياة ، لماذا ؟
لأنها تمس مشاعره فتصبح قطعة من شخصيته لايسعه إلا إبرازها
والاعلان عنها .

من ذلك نرى أن الفنون جميعاً هى الاداة التي يستخدمها الإنسان
ليتمكن من صب الوجود فى نفسه ، ثم يعود فيسكبها شخصية تنبض
فيها الحياة ، وقد اتخذت الفنون قوالب الجمال وسيلة إلى ذلك التعبير ،
كالتصوير والموسيقى والعبارة الجميلة ، فأدى ذلك إلى اقتران الآيات
الفنية بمعانى الجمال . فالتبس الأمر على بعض المفكرين ، وذهب بهم
الظن إلى أن الجمال هو الغرض المقصود من الفنون ، والحقيقة انه
أداة فقط ، استعملت للوصول إلى الغاية الحقيقية ، وهى إبراز
الشخصية الانسانية ، وقد تبع ذلك جدل ونقاش حول موضوع لم
يكن ليحتمل النقاش والجدل ، وهو أيهما أفضل فى الأدب : المعنى أم
المبنى ؟ فذهب فريق كبير إلى تفضيل العبارة الجميلة ، وحجتهم فى ذلك
أن المعنى أدخل فى باب العلوم منه فى باب الأدب ، أما اللفظ الجميل ،
فهو فن خالص لأنه قطعة من الجمال ، والجمال أساس الفنون ! وفات
هؤلاء أن جمال الأدب لايتحقق إلا بمزج هذين العنصرين مزجاً
(كيميائياً) لايقبل التجزئة والتحليل ، فانت إذا أردت أن تتذوق

لونا من ألوان الطعام فلا تعتمد إلى تحليله إلى عناصره الأولى
لتختبر كل واحد على حدة ، بل لابد لك أن تتناوله وحدة متماسكة .
كذلك الحال في الأدب : الكل شيء آخر غير أجزائه . فالمعنى وحدة
قطعة من العلم . واللفظ وحدة كذلك جزء من علم البلاغة والنحو
والصرف ، فاذا مزجت بينهما ، كان لديك بذلك آية أدبية
خالدة .

فالفنون ومنها الأدب ، هي أشخاصنا وأرواحنا ، في حين أن
العلوم — كالأشياء نفسها — جامدة ميتة ، لا تتصل بنفوسنا ولا تظهر
فيها الشخصية الإنسانية . وقد أحسن فيكتور هوغو حين قال في
كتابه (وليم شكسبير) : « ينادى كثير من الناس في أيامنا هذه —
ولاسيما الفلاسفة وفقهاء القانون — أن الشعر قد أدبر زمانه .
فما أغرب هذا القول ؟ ! الشعر أدبر زمانه ! لكان هؤلاء القوم
يقولون : إن الورد لن يذبت بعد ، وأن الربيع قد أصدع آخر أنفاسه
وأن الشمس كفت عن الشروق ، وأنتك تجول في مروج الأرض
فلا تصادف عندها فراشة طائرة ، وأن القمر لا يظهر له ضياء بعد
اليوم ، والبلبل لا يغرد ، والأسد لا يزأر ، والنسر لا يحوم في الفضاء ،
وأن قلل الآب والبرانيس قد اندكت ، وخلا وجه الأرض من
الكواكب الفواتن والأيفاع الحسان ... لكانهم يقولون إنه لا أحد
اليوم يبكي على قبر ، ولا أم تحب وليدها ، وأن أنوار السماء قد
خمدت ، وقلب الإنسان قد مات ،

والخلاصة أن الأدب والفن بوجه عام ، ضرورة تحتها المشاعر

الزائدة على حاجة البقاء ، وأنها صورة دقيقة لنفوسنا ، تربطنا بالعالم
برباط الصداقة والرحم ، بخلاف العلوم ، فإنها صورة العالم الخارجى
ولا دخل للانسان فيها ، فهى من الانسان بمثابة الزائر الاجنبى
الذى لاتصله بنا وشائج القربى . واحسب أننا لو خيرنا بين العلم
والأدب لما ترددنا لحظة فى أن ننبد العلم نبذا ، وتمسك بالأدب ونعتز
به اعتزازنا بالنفوس .

القطة السوداء

يانصيب !

فى هذه الكلمة القصيرة تلخيص موجز - لكنه تلخيص ملىء بالقوة والحياة - لقصة كثير جدا من الأحياء والأشياء فى هذه الدنيا ، فعدد كبير من الناس جاءت له الحياة على نحو تلخصه كلمة يانصيب ، هذا إنسان سحبت ورقة نصيبه فإذا هو مولود لرجل غنى يرث ماله العريض ، وذلك آخر ، يولد لمعدم فقير لا يرث عنه إلا الهم والمرض .

وعدد كبير من الحيوان جاءت له الحياة كذلك على نحو تلخصه كلمة يانصيب ! فكلب ينعم بما تشبهه الأعين والأنف من لذائذ العيش ، وكلب يتمرغ فى الطين ويأكل العظام ويضرب على ظهره بالهراوة والعصى .

وعدد كبير من الأشياء جاءت ظروفه على نحو تلخصه كلمة يانصيب ! فنسخة من كتاب قد تباع بالقروش والملايم وهى لاتزال زاهية بحالتها الجديدة ، وتباع زميلتها بعد أن يتغضن عليها الجلود ويصفرون لون البشرة - أعنى إذا ما تقدمت بها السنون - تباع هذه الزميلة العتيقة بمئات الجنيهات وألوفها ، وربما كان صاحب الكتاب فى حياته أشد ما يكون الإنسان حاجة إلى مال .

بل إن عددا كبيرا من الألفاظ أراد له الله هذه القصة نفسها في تقدير المخطوط ، ومن هذه الألفاظ كلمة منحوسة مسعودة في آن معا ، منكودة محدودة في وقت واحد ، هي كلمة « فلسفة » فقد تسحب ورقة نصيبها حينما فاذا هي دليل على اضطراب الفكر والتواء النظر ، وقد تسحب ورقة نصيبها حينما آخر ، فاذا هي وصف للعبقرية والذهن الجبار - فلماذا ؟

لأن الناس مذ جعلوا ينعثون بالفلسفة بعض ضروب التفكير اختلفوا ، وهم لا يزالون يختلفون في مدلولها . فيم يبحث هذا الذي اعتزل في برجه العاجي وغلق دونه الأبواب زاعما لنا أنه فيلسوف ! إن الناس ليعرفون على وجه الدقة واليقين متى يكون الرجل رياضيا أو طبيا أو عالما من علماء الطبيعة أو الكيمياء ، وقل مثل ذلك في شتى ضروب المعرفة .. إلا الفلسفة !

سل أصحابها : فيم تبحثون ؟ يتعثروا في الجواب وتحمر وجوههم بالخجل ، فان كانوا ممن لا ينجحون ولا يتعثرون في الكلام ، أجاوبك بكلام أقل ما يقال فيه إنه كلام غير مفهوم ، والحق أني لا أعجب لرجل يصادفني في بعض الطريق فيعلم عني أني درست الفلسفة وتخصصت فيها حتى ظفرت بدرجاتها العلمية أدناها وأعلاها ، لا أعجب له إذا ابتسم مشفقا ساخرا كأنما يريد أن يقول : وفيم هذا العناء كله ، لست أعرف عن الفلسفة إلا أنها الكلام إذا لم يكن له معنى مفهوم ! لست أعجب لمثل هذا الرجل ، لأنني أتهم كثيرين ممن يشتغلون بالفلسفة بأنهم يقولون ما لا يفهمون ، إذا كانوا

لأنفسهم يخلصون .

هم يقولون مالا يفهمون لأنهم يحاولون - عبثا وباطلا أن يجدوا لدراساتهم موضوعا ، ليكون شأنهم في ذلك شأن سائر عباد الله ، وفاتهم أن الحقيقة الحلوة - والحقيقة ليست مرة دائما - هي أن الفلسفة دراسة بغير موضوع ، ومن شاء أن يتصيد لها موضوعا تخبط في ديجور بعد ديجور .

الفلسفة طريقة في البحث بغير موضوع ، فليست غايتها أن تبحث « مسائل » لتصل فيها إلى « نتائج » لأنه ليس هناك « مسائل فلسفية » ولا ينبغي أن يطلب من الفلسفة أن تصل إلى « نتائج » عن حقائق الكون ، كل مسألة في الدنيا يراد فيها الوصول إلى نتائج يجب أن تترك للعلم والعلماء ، إذ هي والله أضحوكة الأضاحيك أن يجلس المتفلسف على كرسيه في برجه معزولا عن العالم ، حتى إذا ماسئل : ماذا تصنع هاهنا في عزلتك هذه ؟ أجاب : أريد الوصول إلى حقيقة العالم !! وسأسوق لك مثلا كلام فيلسوف مسلم - هو الكندي - في موضوع الفلسفة ، لأوضح لك به ما أريد ، قال : « علوم الفلسفة ثلاث : فأولها العلم الرياضي في التعليم وهو أوسطها في الطبع ، والثاني علم الطبيعيات وهو أسفلها في الطبع ، والثالث علم الربوبية وهو أعلاها في الطبع ، وإنما كانت العلوم ثلاثة لأن المعلومات ثلاثة : إما علم ما يقع عليه الحس ، وهو ذوات الهیولی ، وإما علم ما ليس بذی هیولی إما أن يكون لا يتصل بالهیولی البتة ، وإما أن يكون قد يتصل بها . فأما ذات الهیولی فهي المحسوسات ، وعلمها هو العلم الطبيعي ، وإما

أن يتصل بالهوى وإن له انفرادا بذاته — سعلم الرياضيات التي هي العدد والهندسة والتنجيم والتأليف (أى الموسيقى) وإما لا يتصل بالهوى البتة ، وهو علم الربوبية .

وقد يكون كلام الكندى مما لا تألفه أذنك من الكلام ، فخلاصة رأيه هذا هي أن الفلسفة تبحث إما فى شيء لا يمكن أن يتصل بمادة وهو الله ، أو فى شيء قد يتصل بالمادة وقد ينفصل ويكون وجوده ذهنيا فقط مثل العدد ، وعلمه الرياضة ، أو فى شيء يتصل دائما بالمادة ولا ينفصل عنها كالأشجار والنجوم والهواء ، وعلمه الطبيعة ، وبعبارة أقصر ، يقول لنا الكندى إن موضوع الفلسفة ثلاثة : الإلهيات ، والرياضة ، والطبيعة .

والذى أريد أن أعترض به على الكندى وأمثاله هو أنك حين تبحث فى الإلهيات فأنت من رجال الدين ولست بالفيلسوف ، وحين تبحث فى الرياضة فأنت رياضى لا فيلسوف ، وحين تبحث فى الطبيعة فأنت من علماء الطبيعة لا فيلسوف .

كلا ، ليس للفلسفة موضوع ، ولا ينبغى أن يطلب إليها أن تتصل إلى نتائج هي من شأن رجال الرياضة والعلوم ، ولو طلبنا إليها ذلك كنا عابثين ، ولو أخذ الفيلسوف على نفسه أن يصنع ذلك كان عابثا واستحق سخرية الساخرين ، إنما واجب الفلسفة الصحيح هو نقد وتحليل ، نقد وسائل التعبير وتحليل معانى الألفاظ التي يستخدمها الرياضيون والعلماء ليزداد الانسان فهما لما يقواه الرياضيون والعلماء بل ليزداد الرياضيون والعلماء أنفسهم فهما لما يقولون .

وسيقول لنا المستنكر : ولماذا توضح للعلماء والرياضيين ألفاظهم؟
 أليس العلماء والرياضيون أقدر منك على تحديد معنى اللفظ الذى
 يستخدمون؟ وأجيبه أن نعم ، هم أقدر فى بعض الأحوال ، بل هم
 يصنعون ذلك لأنفسهم فى معظم الأحيان ، لكن العالم أو الرياضى
 إذا ما تناول اللفظ الذى يستخدمه بالتعريف والتحديد والنقد والتحليل
 كان بذلك فيلسوفا إلى جانب كونه عالما أو رياضيا . وليس ما يمنع
 أن يكون الرجل الواحد عالما وفيلسوفا فى آن معا . إن « إينشتين »
 حين حدد معنى كلمة « آتية » - أى وقوع حادثين فى لحظة واحدة -
 كان فى ذلك فيلسوفا إلى جانب كونه من أعلام الرياضة البارزين .
 وسيقول المستهين بثقال الاحمال : أهذا كل ما تريده من
 الفيلسوف الذى تقوس ظهره وطالت لحيته ؟ وجواب على مثل هذا
 المستهين هو أن كلمة واحدة قد تتطلب لتحديد معناها خول العقول
 فى كل العصور ، ثم هى لا تصل إلى معناها ! هل تدرى فيم كتب
 أفلاطون جمهوريته ؟ كتبها ليحلل لفظة واحدة هى « العدالة » ! وإذا
 لم يعجبك مثل هذا القول فنبئنى بربك - ولك عند الله الثواب - ما معنى
 هذه الألفاظ الآتية : مادة ، عقل ، إحساس ، شعور ، زمان ، مكان ؟
 ومن هذه مئات وألوف يستخدمها الرياضى أو العالم ، فيأتى الفيلسوف
 أو الرياضى نفسه والعالم نفسه إن أراد الواحد منهما أن يكون
 فيلسوفا كذلك - ليحلل ما وراء هذه الألفاظ كي يسير البحث العلمى
 على هدى وصراط مستقيم .

ليس للفلسفة موضوع معين ، وليس لها أن تنبئنا عن حقائق

الكون ، إنما هي طريقة بغير موضوع ، كقولك عن الرجل إنه وزير بلا وزارة ، فيعمل في العدل مرة وفي الدفاع مرة ! هي البحث عن معاني الألفاظ ، لا كما تشرحها القواميس ، بل هو بحث تحليلي له أوضاع وشروط .. ماذا أريد أن أقول للقارئ في مقال ؟ إن موعدى معه في ذلك كتاب .

أكاد أوقن أن كثيرين — وكثيرين ممن يشتغلون بالفلسفة دراسة وتدريساً بنوع خاص — سينكرون على ما ذهبت إليه ، وسيقولون : وماذا أنت صانع بهذه « المشكلات » التي أخذ الفلاسفة في - لها منذ نشأت على وجه الأرض فلسفة ؟ وأعود فأؤكد لهؤلاء أن الأمر لا يعدو أحد اثنين : إما أن تكون تلك « المشكلات » مسائل حقيقية عما في الكون من أشياء ، وعندئذ فهي من شأن العلم وحده يقول فيها قوله ويبحث فيها بطريقته ، وإما أن تكون « مشكلات » زائفة بمعنى أنها أسئلة لا تحتمل الجواب ، لأنها كلام فارغ من المعنى ، وإنما خدع به الناس حين رأوه يتخذ هيئة السؤال كما يقررها علم النحو ، لا كما يقررها منطق العقل ، إذا سألتك مثلاً : مالون الفضيلة ، أهو أحمر أو أصفر ؟ كم تساوى زوايا الإنسان ، هل تساوى قائمتين أو أكثر ؟ فيماذا تجيب ؟ إنك لن تجيب ، وستعلم أنى لست جاداً في السؤال ، لأن سؤالاً لا يحمل معنى يتفق مع طبيعة المنطق ، على الرغم من أنه يتخذ صيغة يرضاها علم النحو ، لكن النكبة الكبرى هي أن بعض الأسئلة يخدع الناس ، فيكون فارغاً من المعنى كهذه الأسئلة التي سقتها إليك ، غير أن فراغها من المعنى لا يكون بهذا الوضوح ، فترى الناس ينفقون

أعماراً وأعماراً في محاولة الجواب ولا جواب ! خذ هذا السؤال مثلاً :
ماذا وراء الطبيعة ؟ ... لن أحدثك عن ضخامة الجهد الذي بذله
«الفلاسفة» في سبيل الجواب . والامر في حقيقته هو ألا سؤال ،
وإذا فلا ينبغي أن يكون جواب ، شرط السؤال أن يكون جوابه
مما يمكن عليه التحقيق ، وشرط التحقيق أن تكون مادة الجواب
مما يمكن أن يقع في حدود التجربة الانسانية ، وما عدا ذلك هراء
في هراء .

وسيقول المستنكر مرة أخرى : ليست الميتافيزيقا إلا هذه
المسألة وأضرابها ، فماذا أنت قائل ؟ قولي هو أن الميتافيزيقا أسطورة
من أساطير الأولين — وكثير من الآخرين — وها هنا تأتي قصة
القطعة السوداء ، فقد قيل عن «الفيلسوف» الذي يجعل همه مثل هذا
البحث العقيم ، إنه رجل أعشى يبحث في غرفة مظلمة عن قطعة سوداء
ليس لها وجود .

التصوف والمعرفة

نشر الأستاذ الفاضل الدكتور أبو العلا عفيفي مقالين في عددتين متتاليتين من مجلة الثقافة ذهب فيهما إلى أن الصوفية من بين رواد الحقيقة ، بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، فزعم « أنهم وفقوا حيث أخفق غيرهم إلى معرفة الحقيقة » . ومعنى ذلك أنهم وحدثهم دون سائر عباد الله قد عرفوا هذا الذي يتحرق الإنسان شوقاً إلى عرفانه ، مذ خلقه الله إنساناً ورزقه فكراً ووجداناً

قرأت المقاليتين قراءة المتهمل المتأنى ، لأنه لو كان الأستاذ الفاضل يبسط فيهما رأيه ، إذأ فشقة الخلاف بيني وبينه بعيدة بعد ما بين الأرض والسماء ، فيدنا هو يرى الصوفي قادراً بصوفيته على إدراك الحقيقة كاملة شاملة ، أراه أنا - بما هو صوفي - لا يعرف من تلك الحقيقة كثيراً ولا قليلاً ، أراه لا يعرف شيئاً على الإطلاق ، أقول إنى قرأت المقاليتين قراءة المتهمل المتأنى ، لأننى إن لم أجد فيما يكتبه الدكتور أبو العلا عن التصوف ما يردنى عن وجهتى فما أحسبني واجداً ذلك عند أى كاتب عربى آخر ، لسكنى فرغت من قراءتى دون أن أجد ما يضطرنى إلى التحول من رأى إلى رأى ، والانتقال من مذهب إلى مذهب .

ترى أياكون هذا الاختلاف البعيد بيننا أساسه خلاف فى المعاني

التي ننسبها إلى ما نستخدمه من الألفاظ ؟ فإني ألاحظ في حديثنا ثلاث كلمات ضخمة شغلت جبابرة العقول في تحديد معانيها ، وهي « تصوف » « معرفة » « حقيقة » - لا بد إذا من تحديد المراد بهذه الكلمات على وجه الدقة ، قبل القول إن كان المتصوف يعرف أو لا يعرف الحقيقة ؟ والمثل الأعلى أن يتفق المتناقشان على تحديد دقيق لمعاني الألفاظ قبل المضى في البحث ، فان تعذر ذلك ، بين كل منهما ما يقصد إليه حين يستخدم هذه اللفظة أو تلك ، وفي كلتا الحالتين لن يطول بينهما خلاف فيما أعتقد ، لأنهما إن كانا يدوران في دائرة واحدة من المعاني ، فاتفقهما هين ميسور ، وأما إن وجد أنهما يتكلمان بلسانين مختلفين فلا سنيل بينهما إلى نقاش .

* * *

وقبل أن أوضح وجهة نظري ، أحب أن أعترف لأستاذنا الفاضل بأنني أعاني ما أعانيه من شقاء العيش ومرارته ، منذ أخذت نفسي أخذاً صارماً جازماً بأن أفهم عن المتكلمين أو الكاتبين بمدلولات ألفاظهم ، فقل ما شئت ياسيدي في مقدار ما أفسد ذلك على من متعة القراءة أو الحوار ، لأنني أحاول عند كل عبارة أن أفهم - ذلك بالطبع إن كنت أعلم عن المتكلم أو الكاتب نية الجدل فيما يقول - والفهم عندي معناه أن أتخذ من هذه الألفاظ التي أمامي أصابع تشير إلى أشياء ، فما أكثر ياسيدي ما ألوى العنق لأرى هذا الذي يشير إليه المتكلم أو الكاتب بألفاظه ، فلا أرى شيئاً وأبوء من قراءتي بما هو شر من الفشل الذريع ، إذ أني كثيراً ما أنحو باللائمة إلى نفسي ،

وأُنزل عليها سخطاً وغضباً أن ركبت على هذا النحو الذى يحول بينها وبين رؤية ما يراه كثيرون من أفضل المفكرين .

لكن الحب الفطرى الذى يكنه الانسان لنفسه ، سرعان ما يشور فى نفسى ليدفع عنها هذا الاتهام ، فلست أطلب بدعا حين أبحث عن مدلولات الألفاظ ليتسنى لى فهم ما يقال ، فهأنت ذا ترى الناس فى حياتهم اليومية العملية لا يفهم بعضهم عن بعض إلا على هذا الأساس ، وكيف كان صاحبي ليفهمنى حين قلت له منذ حين إن « المعطف ثمنه عشرون جنيهاً » إلا إذا استطاع أن يجد لكل لفظة من هذه الألفاظ مدلولها بين ما يرى من الأشياء وما بينها من علاقات ؟ ولو قلت له إن « المرطف ثمنه عشرون جنيهاً » كان من حقه أن يسألنى : « ما هذا المرطف الذى تتحدث عنه ؟ » ثم كان من واجبه نحو نفسه ألا يطمئن الى ما أقوله له إلا إذا أظهرته خبرته على شيء يسميه الناس مرطفاً مما يمكن أن تدفع فى شرائه الجنيهاً .

بل هأنت ذا ترى العلماء فى شتى ضروب العلم لا يتفاهمون إلا على هذا الأساس بعينه ، فلو قال قائل منهم إن أجرام المجموعة الشمسية بينها علاقة الجاذبية ، كان حتماً عليه أن يوضح المراد بلفظ الجاذبية ، ولمن يستمع له أن ينظر إلى أجرام المجموعة الشمسية ليرى هل يقوم بينها هذا الذى يسميه القائل جاذبية أو لا يقوم ، وسواء وجدته مخطئاً أو مصيباً ، فكلامه مفهوم مادام يحدد له معانى ألفاظه على نحو يتيح له أن يرى أخطأ فى قوله أم أصاب ، أما إن قال إن أجرام المجموعة

الشمسية بينها علاقة « اللاذبية » وسألته ماذا تكون هذه اللاذبية ،
فأجاب إنها ليست مما يقع في حدود الخبرة الحسية ، كان من حق ، بل
كان من واجبي ، أن أصم عنه أذني ولا أعبأ بما يقول ، لأن قوله
عندئذ لا يزيد على خليط من موجات صوتية ، لا يحمل إلى السامع
معنى على الإطلاق .

وأستاذنا الدكتور أبو العلا عفيفي يقط متنبه فيما يجري به قلبه ،
فتراه يحدد لك ألفاظه ما وسعه التحديد ، فهو في مقالتيه هاتين عن
الصوفية ومعرفتهم للحقيقة ، يبين في مواضع شتى ما يريده بالصوفية ،
وما يريده بالمعرفة ، وما يريده بالحقيقة .

وللقارئ هاهنا أن يسألني : وماذا تريد منه بعد هذا التحديد لما
يريد ؟ وجوابي هو : أني لم أفهم اللغة التي استخدمها في تحديداته تلك
وكانت عندي بمنزلة « المرطف » و « اللاذبية » ، ومن حق إذاً أن
أستفسر ماذا يراد على وجه الدقة بهذه الألفاظ ليتسنى لي الحكم على
ما يقال بالخطأ أو بالصواب .

فالصوفية عند أستاذنا الدكتور صنف من الناس « ملهم متصل
بالعالم الروحي » : هذا زعم يزعمه لك زاعم ، أليس من حقك بل من
واجبك أن تعلم إن كان في زعمه هذا مصيباً أو مخطئاً ؟ لكنك لكي
تعلم ذلك فلا سبيل إلا أن تكون هذه الألفاظ دالة على أشياء مما
عسى أن يقع في خبرتك ، وإذا فمن حقك — بل من واجبك — أن
تسأل : أين أرى هذا العالم الروحي لأستيقن من صدق القول بأن

الصوفي قد اتصل به ، كما تسأل الذي يزعم لك أن « إفرست » وصل إلى قمة الهملايا ، أو أن « أمندسن » كشف عن القطب الجنوبي ، أين هذه الهملايا وأين ذلك القطب الجنوبي — لكنك إذا سألت : أين هذا العالم الروحي وما صفاته ، ليتاح لي أن أفهم معنى قولك إن الصوفي « متصل بالعالم الروحي » أجابك الدكتور أبو العلا في أولى مقالاته بأن « الحقيقة » ليست هي هذا الواقع المحسوس ، أو العالم الخارجى الظاهر ، وأنتك إذا تشبثت بهذا الواقع المحسوس كنت « أقل نضجا في العقل والروح » (وهى دعوى لا أعرف كيف يستطيع الدكتور أبو العلا إثباتها) .

الفرض في الكلام أن ينقل المتكلم خبرا إلى سامعه ، ولولم يكن في الكلام خبر ينبأ به ، لوجب على المتكلم — منطقيا — أن يزم شفتيه صامتا ، والشرط الأساسى في الخبر أن يكون ما يمكن وصفه بصدق أو كذب ، فإن نطقت لى بكلمات زعمت أنها خبر ، ثم استحال على أن أصف كلامك هذا بصدق أو كذب ، لا عجز أمتى ، بل نتيجة لازمة عن طبيعة كلامك نفسه ، فليس كلامك — إذا — ما يصح أن يقال عنه إنه خبر ، وليس لك الحق من الوجهة المنطقية أن تحرك لسانك قط بهذا الكلام .

والصوفي يزعم لنا هذه الدعوى : ، أنا على اتصال بالعالم الروحي ، وسأسأله : أين هذا العالم وما أوصافه ؟ فيجيب : يستحيل عليك أن تعرف ، لأنك لست مركبا على نحو ماركيت أنا ... إذا فكلامه هذا ليس بالخبر ، بل ليس بالكلام إطلاقا ، لأنه شبيه بقول القائل إن

بين أجرام المجموعة الشمسية « لاذية » فان سألته : وما « اللاذية »
أجابك بأنها يستحيل أن تقع في خبرتك .

بل كلامه هذا شبيه بالمحموم أو الخمور الذي يزعم لك أنه يرى
أرانب خضراء تجري أمامه ، فان أنكرتها عليه كان جوابه - بحق -
إنه يستحيل عليك إدراكها إلا إذا كنت في مثل ما هو فيه من حمى
أو من سكر بالخر ، ولست أنكر أبداً على المحموم أو الخمور رؤيته
للأرانب الخضر ، لكني أخضع زعمه هذا للتحقيق ، فان كان
ما يستحيل تحقيقه ، كان « حالة خاصة » لا يجوز أن تأخذ بيننا موضع
الأقوال العلمية ، بل لا يجوز فيها الكلام إطلاقاً إلا على سبيل الترميم
بأنغام الكلام ، وهكذا قل في « الحالة الخاصة » التي يحسها
الصوفي .

ولم يسمع الدكتور أبو العلا - بالطبع - إلا أن يعترف في
صراحة بأن حالة الصوفي عند « اتصاله بالعالم الروحي » حالة خاصة
به ، إذ يقول : « إن الغاية التي يتجهون إليها ويكرسون حياتهم لها هي
البحث عن حالة روحية خاصة ... » .

وهنا ينشأ السؤال الآتي ، وهو المراد بهذا المقال : هل تصلح
الحالات الخاصة أن تكون معرفة ؟ :

أعود فأسأل : « هل تصلح الحالة الخاصة أن تكون معرفة ؟ »
إنني إذا ألقيت بنفسي من نافذة غرفتي ، فسأحس عند الهبوط بحالة
معينة نشأت عن سقوط الجسم إلى الأرض بفعل الجاذبية ، فهل يجوز

لى عندئذ أن أقول إتنى عرفت الجاذبية؟ وإذا لمست سلسكا مكهربا أحسست بهزة خاصة، فهل يجوز لى أن أقول إنى بهذه الهزة بجسمى قد عرفت الكهرباء؟ وهكذا تستطيع أن تمضى فى ضرب الأمثلة لحالات خاصة يحسها فرد معين فى ظروف معينة، وتستطيع أن تسأل هل هذه الحالات الخاصة معرفة؟ إنه فى الجواب عن هذا السؤال القول الفصل فى : هل يعرف الصوفى شيئا أولا يعرف، لأن الصوفى — بحكم تعريفه — يحس حالة خاصة هى التى تجعل منه صوفيا وبغيرها لا يكون .

ونحب فى محاولة الجواب عن هذا السؤال، أن نفرق فى إدراكنا بين جانبين، هما « مضمون » الإدراك من جهة « وهيكله » من جهة أخرى، ولو استمسكنا بهذه التفرقة استمساكا جادا صارما لتبين لنا الجواب عن سؤالننا واضحا، لأننا سنجد أن المعرفة لا تكون إلا فى هيكل الإدراك، وأما مضمونه فليس من المعرفة فى شيء . . . لكن هذا الكلام بحاجة إلى شرح وتوضيح .

أنا الآن أنظر إلى بتمعة خضراء أمامى، فلو أردت أن أنقل إدراكى هذا إلى سواى الذى لم ير هذه البقعة الخضراء، قلت له : رأيت بقعة خضراء، فماذا تظننى قد نقلته إليه حين قلت « خضراء »؟ بديهى أننى لم أنقل إليه « مضمون » الأخضر الذى اهتزت بتأثيره أعصابى، لأن هذا « المضمون » خاص ونقله إلى سواى مستحيل، ولكننى أقدم له بكلمة « أخضر » هيكلا فارغا ليسكسوه من ماضى خبرته . أو إن شئت فقل إنى أقدم له بهذه اللفظة وعاءا فارغا ليلا

بالأخضر الذى عرفه من حياته الخاصة ، ولم يكن نقل « مضمون الادراك » مستحيلا على ، لأننى حاولت ذلك وفشلت محاولتى ، بل لأن مجرد المحاولة فى ذلك ضرب من المحال ، كما تطلب إلى شخص أن يترجم عبارة إلى لغة لا يعرفها .

ونحن نعلم أن بيننا نفرا كثيرا يمتعه أن تتغنى بعجز الانسان وضعفه ، ولن أعدم من هذا النفر قارئاً يسأل : ألا يمكن أن يجيئنا المستقبل بفياسوف يدلنا على طريقة نعبر بها عن « المضمون » فى إدراكاتنا ؟ أين برهانك على أن ذلك مستحيل على كل إنسان وفى كل زمان ؟ وجوابى هو ألا برهان ، لأن البرهان إنما يكون على قضية تحتل الصواب والخطأ .

وقولى « مضمون الادراك يستحيل على التعبير » ليس مما يحتمل خيلاً أو صواباً ، لأنه قضية نحصل فيها حاصلًا ولا نزعم جديداً ، فمضمون الادراك من معانيه أنه يستحيل على التعبير ، فكانت فى قولنا هذا نعرف لفظاً بلفظ ، كما نقول إن المثلث سطح مستو محوط بثلاث خطوط مستقيمة .

فإن كان مضمون إدراكى مستحيلا على التعبير ، فهو إذا ليس معرفة ، لأن شرط المعرفة أن تكون عامة يمكن نقلها من شخص إلى شخص ، إننى حين أنطبع فى أعصابى باللون الأخضر ، فهذا الانطباع جزء لا يتجزأ من كيانى العضوى ، أو قل هذا الانطباع هو (أنا) فى هذه اللحظة التى أدرك فيها اللون الأخضر ، وليست المعرفة بالجزء الذى لا يتجزأ من كيانى ، إنما هى على خلاف ذلك يمكن نقلها ،

وأصدق ما تظهر فيه المعرفة الموضوعية التي يجوز نقلها من شخص إلى آخر ، هو العلاقات المكانية والزمانية بين الأشياء ، فلو قلت مثلا إنى رأيت طائرا على الشجرة ، فقد يترجم السامع لنفسه معنى الطائر ومعنى الشجرة بما مر عليه في خبرته من طيور وأشجار ، بحيث يختلف تصويره لها عن تصويرى . أما العلاقة المكانية « على » فنشترك فيها ، وكذلك لو قلت له إن الموسيقى عزفت بعد رفع الستار ، فقد يختلف تصويره عن تصويرى لصوت الموسيقى ولصورة الستار . أما العلاقة الزمنية « بعد » فنشترك فيها ، وهكذا .

المعرفة - إذا - شرطها أن تكون مشتركة بينى وبين سائر الناس ، فمعرفة الجاذبية - مثلا - هي علمنا بالمعادلات الرياضية التي يصف ظاهرتها ، وليست هي إحساسى الخاص الذى أحسه عند سقوطى ومعرفة الكهرباء هي كذلك العلم بمعادلاتها الرياضية (والمعادلات تحديد للعلاقات) وليست هي الهزة التي أحسها حين ألمس سلكا فيه كهرباء والصوفى ينظر إلى الوجود ، أو على الأصح إلى جزء منه ، فيبهره على نحو ما يبهرننا مثلا النظر إلى جبل شامخ أو شلال دافق ، لكن هذا الانبهار وجدان خاص ، لا يمكن نقله ، وبالتالي لا يجوز اعتباره ضربا من المعرفة ، فإن تكلم الصوفى عما يحس ، فهو فنان لا يقصد بقوله شيئا مما يصح أن يقال له فيه صدقت أو كذبت . وهذا هو ما يركده أيضا الدكتور أبو العلا فى مقالاته ، ولكنه رغم تأكيده لنا بأن التصوف « تجربة شخصية أو حال معينة يعانها فرد بعينه .. ومثل هذه الحال لا يقال فيها إنها صادقة أو كاذبة ، ولا

فيطالب صاحبها بإقامة الدليل على صحتها » أقول إنه رغم تأكيد هذا يعود فيقول إن الصوفي بتجربته الشخصية هذه يعرف الحقيقة ! إن الصوفية كما يقول الغزالي « أرباب أحوال لا أصحاب أقوال » أي أنهم يحسون وجدانات خاصة ، لكن ليس في وسعهم أن يقولوا شيئاً ، وما دام الأمر كذلك وجب عليهم الصمت ، وإذا كان صمت لا معرفة ، أو كما يقول وتجذشتين « ما لا نستطيع الكلام فيه يجب الصمت عنه »



وما يزيد في عجبى أن يقال عن المتصوف إنه يعرف « الحقيقة » ، وما عسى هذه « الحقيقة » أن تكون ؟ هي — بتعريف الدكتور أبو العلا — « ذلك الغيب المجهول أو ذلك الوجود المحجوب » وإن كان الشيء بحكم تعريفه غيباً ومجهولاً ومحجوباً ، فلست أدري ما حيلة الإنسان فيه ، صوفياً أو غير صوفى !!

إن من أكبر أخطاء الفلسفة التأملية أن تأخذ المعانى السكينة على أنها حقائق قائمة بذاتها ، فهذا منها بمثابة التجسيد للظل والتشخيص لما ليس مشخصاً ، فليس هناك حقيقة واحدة حتى يجوز للصوفى أو لغيره أن يبحث عنها ، إنما هناك حقائق ، فارتفاع فيضان النيل في الصيف حقيقة ، وتمدد الحديد بالحرارة حقيقة ، ونمو النبات بالغذاء حقيقة ، وهكذا قل في ملايين الحقائق التى هى من شأن العلوم المختلفة وقد يكون بين تلك الحقائق علاقات وقد لا يكون ، على ألا ننسى أن العلاقات لا تضيف إلى العناصر الموجودة عناصراً جديداً .

وبالطبع لم تغب هذه النظرة « الساذجة » عن الدكتور أبو العلا فهو يعلم وجود هذه الأشياء ، لكنه يعلم فوق ذلك أن الحقيقة شيء سواها ! يقول : « إن العالم المحسوس عالم حافل بالظواهر المتكثرة المتغيرة وطالب الحقيقة المطلقة يطلبها واحدة لا كثرة فيها ولا تغير » الخ . ونحن لا نريد أن ننقص على طالب الحقيقة المطلقة عيشه ولا أن نقض له مضجعه ، فليس ذلك من حقنا ، ولكن الذى هو من حقنا بغير نزاع أن يختار هذا الطالب للحقيقة المجردة أحد أمرين : فاما أن يتمتع بوجوده ذاك الخاص به ، وألا يكون له شأن بنا ، فلا يتحدث إلينا ولا يكتب لنا الكتب ، وإما أن يتحمل تبعه من يريد أن يصف للناس شيئا ، وأعنى بهذه التبعة إمكان أن يكون صادقا فيما يقول ، ولا يمكن وصف الكلام بالصدق إلا إذا كان يصف شيئا عاما مشتركا بيننا جميعا ، لكنه لا يريد لنفسه الحالة الثانية ، فلا مندوحة له عن الأولى .

ويمكن تلخيص ما قلناه فى هذه الخطوات .

١ - الصوفى يعانى تجربة شخصية أو حالة خاصة .

٢ - الحالة الخاصة هى بمثابة « مضمون الإدراك » وهو ما يستحيل نقله من شخص إلى شخص .

٣ - والمعرفة شرطها أن تكون عامة وأن يكون نقلها ممكنا ، ولذلك كانت المعرفة بأدق معناها منحصرة فى « هيكل الإدراك » أى فى العلاقات القائمة بين الأشياء .

٤ - وإذا فليس التصوف معرفة .

ولا بد أن نذكر أن الدكتور أبو العلاء - فرق بين «الاتصال» ،
و «المعرفة» ونحن نوافق كل الموافقة على أن الحالات الذوقية
الخاصة اتصال مباشر بالتجربة المعينة ، وهو ما سماه رسل acquaintance
تميزا له من المعرفة التي سماها «وصفا» description - لكن ما فائدة
هذه التفرقة إذا لم نكن ننوى التزامها ؟
إن قلنا إن التصوف «اتصال» فيستحيل أن يكون «معرفة» ،
وإن قلنا إنه «معرفة» ، فليس هو بالاتصال .
لكن المتصوف يعاني تجربة شخصية ، فهو إذا - كما قلنا في فاتحه
المقال - لا يعرف شيئا على الإطلاق .

التاريخ لا يعيد نفسه

أما أن يعيد التاريخ نفسه بمعنى « أن الحوادث نفسها بأشخاصها وزمانها ومكانها تعود مرة ثانية وثالثة . فهذا ظاهر البطلان ، فمحال أن يعود الاسكندر أو نابليون أو تيمورلنك فيفتح فتوحه ، ومحال أن يعود سقراط في أثينا ويعيد دروسه ، ومحال أن يعود المتنبي إلى مصر فيلقى كافورها ، أو إلى حلب فيلقى سيف دولتها ، أو نحو ذلك » هكذا بدأ أستاذنا الجليل الدكتور أحمد أمين بك تحليله للجملة المشهورة « التاريخ يعيد نفسه » في مقالة نشرت له بهذا العنوان في مجلة الثقافة ، وقد انتهى من هذه الفاتحة التحليلية إلى نتيجة ، وهي أن « الجملة على هذا المعنى سخافة ظاهرة »

لكن التاريخ - في رأى أستاذنا الجليل - يعيد نفسه بمعنى آخر يقبله ويعده صوابا ، وهو « أن كل حدث من أحداث الزمان نتيجة لمقدمات ، فإذا تمت المقدمات ظهرت النتيجة لا محالة ، وإذا تشابهت المقدمات تشابهت النتائج ، وهذا الأمر يتكرر دائما على نمط مطرد ، فكلما حدثت مقدمات من نوع خاص حدثت النتيجة بعينها »

ويستطرد الدكتور أحمد أمين بك في شرح هذا المعنى فيقول : « إن أحداث التاريخ - على هذا النظر - مثلها مثل كل القوانين

الطبيعية ، إذا حصلت أسبابها حصلت مسبباتها ، فإذا وجد الحديد ووجدت الحرارة تمدد الحديد لا محالة ، وأمكثنا أن نقول إن تمدد الحديد يعيد نفسه ، كما نقول التاريخ يعيد نفسه »

وخشى أستاذنا الفاضل أن يطوف برأس القارىء في هذا الموضوع اعتراض على تشبيهه حوادث التاريخ بحوادث الحديد في تمدده المحتوم إذا سلطت عليه الحرارة ، وأن يقيم القارىء اعتراضه على أساس أن حوادث التاريخ متصلة بالنفس التي تختلف عن قطعة الحديد في أنها حرة قد تعمل العمل في ظرف ولا تعمله في ظرف نفسه ، وأنه إذا صحت هذه التفرقة بين النفس الانسانية الحرة وبين قطعة الحديد المجبرة ، فالتاريخ لا يعيد نفسه كما يفعل تمدد الحديد . . خشى أستاذنا الفاضل أن يطوف برأس القارىء في هذا الموضوع اعتراض كهذا على موازنة التاريخ بالحديد المتمدد بالحرارة ، فأسرع هاهنا إلى إثبات رأيه جليا واضحا ، وهو أن النفس الانسانية مجبرة في شكل مخيرة . فهي بحكم قوانين الوراثة والبيئة وما إليهما لا يمكنها أن تفعل غير ما فعلت ، ولو جاز لنا أن نضع رأيه في عبارة أخرى ، قلنا إنه لا يرى فرقا بين النفس الانسانية وقطعة الحديد .

فإن كان هذا رأى أستاذنا الجليل ، فلماذا إذا يقطع قطعا لا تردد فيه باستحالة « أن يعود الاسكندر أو نابليون أو تيمورلنك فيفتح فتوحه .. ؟ الخ »

إن استحالة أن تعود هذه الكائنات الحية إلى ما كانت عليه مرة ثانية وثالثة ، أساسها أنها كانت حية تختلف عن قطع الحديد وسائر

أجزاء الجهاد ، ولو جعلنا الكائن الحى وقطعة الحديد سواء ، لارتفعت هذه الاستحالة التى نحكم بها على عودة هؤلاء الأحياء سيرتهم من جديد ، ذلك لأنه إذا كان الكائن الحى — وأنا لا أفرق هنا بين الشجرة والانسان — حاصل جمع العناصر الموجودة تجتمع اجتماعا لا مهرب منه ولا محيص عنه ، اذا فليس هناك ما يمنع — فى حكم العقل — أن تجتمع العناصر نفسها فى الظروف نفسها مرة ثانية وثالثة بحيث يكون لنا من اجتماعها « الاسكندر أو نابليون أو تيمورلنك » ولعل هذا رأى بعينه هو ما حدا بأحد الفلاسفة اليونان الأقدمين أن يزعم بأن العالم بما وقع فيه من أحياء وأشياء وحوادث سيعود إلى الوقوع بكل تفصيلاته مرة بعد مرة الى ما لا نهاية له من المرات كأنه شريط السينما . تديره آلاف المرات ، فتظهر لك على الشاشة نفس القصة التى تظهر فى كل مرة ، ولم يكن فياسوفنا هذا قد أخطأ فى زعمه ، اذا سلمنا له بالمقدمة التى يسلم بصحتها أستاذنا الجليل أحمد أمين بك ، وهى أن كل كائن — حيا كان أو جامدا — هو حاصل جمع الظروف والعوامل المحيطة ، فإن كان ذلك كذلك ، فليس بعيدا على العقل أن يتصور « عجيبة » الوجود قد طمست من جديد فى شكلها السديمى الأول ، وما دامت الظروف بعينها — تتكرر ، والعوامل بذاتها ستفعل فعلها ، فليس من شك « أن يعود الاسكندر أو نابليون أو تيمورلنك فيفتح فتوحه .. »

انه من الممكن لأجرام المجموعة الشمسية — مثلا — أن تتخذ وضعاً معيناً بحيث يصيب الشمس كسوف ، أو يصيب القمر خسوف

ولا استحالة قطعاً في أن يعود الكسوف أو الخسوف مرة ثانية وثالثة ورابعة وما لا نهاية له من المرات ، بحيث يستحيل أن تفرق بين حالتين من هذه الحالات ، ولا فرق — حينئذ — بين أن تكون إزاء حالتين متعاقبتين من حالات الكسوف ، أو الخسوف بينهما فترة انفصال ، وبين أن تكون إزاء حالة واحدة مستمرة ذات لحظات متتابعة ، فنستطيع بغير خطأ أن نقول عندئذ : إن كسوف الشمس أو خسوف القمر يعيد نفسه .. وهذا بعينه ما كان يحدث لو نظرنا الى « الاسكندر أو نابليون أو تيمورلنك » نظرنا الى أحجار الأرض وأجرام السماء ، أعنى أنه لا استحالة أن تعود الظروف مرة أخرى فيعودوا ، لولا شيء واحد فيهم هو الذى جعل هذه العودة مستحيلة ، وهو أنهم كانوا أحياء .

الفرق بين الحى والجامد هو هنا كل شيء ، لو أغفلته كان التاريخ يعيد نفسه على الحى كما يعيدها على الجامد سواء بسواء ، أستغفر الله ، بل لو أغفلت هذا الفرق بين الحى والجامد لما كان هناك تاريخ على الإطلاق يعيد نفسه أو لا يعيدها ، فالمجموعة الشمسية — مثلاً — ليس لها تاريخ ، وإنما التاريخ يكون للكائن الحى وحده . وأعود فأقول إنى لا أفرق هنا بين الشجرة والإنسان ... ليس للجماد تاريخ لأنك تستطيع أن تنصور أحداثه سائرة من هذا الطرف إلى ذلك ، أو من ذلك إلى هذا ، تستطيع أن تنصور أحداث الكائن الجامد سائرة من « ا » إلى « ب » أو من « ب » إلى « ا » دون أن يتعارض ذلك مع أحكام العقل فى شيء ، أعنى أنه لا فرق — عند العقل —

بين أن تسير الشمس من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق
فقد كان من الممكن لأية ظاهرة طبيعية أن يجيء سير حوادثها على
غير ما هو عليه بحيث يكون ذلك السير الجديد هو قانون الطبيعة ،
فلم يكن مستحيلاً - عند العقل - أن تقلص قطعة الحديد بالحرارة
وأن تتمدد بالبرودة ، وإنما كان العكس هو الصحيح بحكم التجربة
وحدها ، لا بحكم المنطق العقلي الذي لا محالة من وقوعه ، دلتنا التجربة
على أن الحديد يتمدد بالحرارة ، فقلنا إنه يتمدد بالحرارة ، ولو دلتنا
على غير ذلك لقلنا غير ذلك .

لكن هذا السير العكسي الذي يجوز على الجماد لا يجوز على
الكائن الحي بحال من الأحوال ، فها هنا خط السير واحد لا رجعة
فيه ، إذ يستحيل - في حكم العقل والتجربة معاً - أن يكون سير
الحياة في الشجرة أوله الإثمار وآخره بذر البذور في الأرض ،
ويستحيل أن يكون سير الحوادث في تاريخ الفرد من الإنسان بادئاً
من جثمانه وهو ميت ومنتهاً إليه وهو جنين .

ما شأن هذا كله بما نحن الآن بصدد بحثه ، وهو : هل يعيد التاريخ
نفسه أو لا يعيدها ؟ .

شأنه هو هذا : الكائن الحي وحده هو الذي يكون له تاريخ ،
وأما الجامد فلا تاريخ له ، لأن الزمن لا يدخل عنصراً من عناصر
تكوين الشيء الجامد ، إذ لا فرق بين حاضره وماضيه ومستقبله إلا
في طريقة توزيع أجزائه المادية ، ولا يتحتم أن يكون توزيع معين
في زمن معين ، أما الكائن الحي فالزمن جزء أساسي من طريقة

تكوينه ، لأنه يكبر وينمو مع مر الزمن ، فليس الفرق بين الإنسان وهو طفل وبينه وهو رجل هو مجرد إعادة توزيع مادة جسمه ، بل هناك فرق في النمو يستحيل أن يفهم بغير فعل الزمن ... وإذا كان هذا هكذا ، إذا كان التاريخ بمعناه الدقيق لا يتناول إلا الأحياء ثم إذا كان سير مراحل التغير في الكائن الحي يستحيل أن يكون في اتجاه عكسي ، بمعنى أن الرجل يستحيل أن يكون راجعاً ليعود طفلاً من جديد ، كانت عودة التاريخ مستحيلة بالنسبة لأي كائن حي نباتاً كان أو حيواناً أو إنساناً .

وما أفعال الجماعات التي يسجلها التاريخ كالثورات مثلاً ، إلا مجموعة أفعال أفراد ، فالثورة الفرنسية هي مجموعة مافعله هذا وهذا وذلك من أفراد الأمة الفرنسية إبان حدوثها ، فتاريخ الجماعة - إذا - هو حصيلة تواريخ أفرادها ، والجماعة بهذا المعنى وحده كائن حي ، لأنها حزمة من أحياء ، فإذا كان لارجعة للفرد الواحد فلا رجعة لمجموعة الأفراد التي تتألف منها الجماعة ، ثم لارجعة لأفعالهم ، وبعبارة أخرى : لارجعة لحوادث التاريخ ، على النحو الذي يرجع إليه تمدد الحديد .

ومن هنا كان يقين التنبؤ بحوادث المستقبل اهتداءً بحوادث التاريخ الذي مضى ضرباً من المحال ... محال لأنه كلام يناقض بعضه بعضاً ، فالمستقبل إذا لم يكن فيه جديد يختلف به عن الحاضر والماضي لم يكن مستقبلاً بالمعنى الصحيح ، إذا أنت نظرت إلى إجمام السماء ، وتنبأت بكسوف للشمس بعد مائة عام ، فأنت في هذه الحالة لاتنبأ

بمستقبل بمعنى الكلمة الحى الصحيح ، إنما تقرأ الحاضر ، ولا فرق فى
هذه الحالة بين أن يكون الكسوف أمامك تراه الآن بعينيك ، أو
أن يكون آتيا بعد مائة عام ، لكنك ترى علاماته قائمة فى السماء
الآن ... وهذا بعينه هو ما حدا بنا إلى القول بأن الكون الجامد
لا تاريخ له ، لأن ماضيه وحاضره ومستقبله كلها موجودة فى لحظة
الحاضرة ، ويمكنك أن تجرى عملية حسابية راجعاً بها إلى الوراء ،
فتعلم كيف كان الكون فى الماضى ، أو متقدماً بها إلى الأمام ، فتعلم
كيف يكون الكون فى لحظة آتية ، أما مستقبل الكائن الذى فغير
ذلك ، مستقبله فيه جديد دائماً ، فيستحيل استحالة قاطعة أن تحلل بذرة
القمح — مثلاً — ثم تهتدى بهذا التحليل إلى مستقبل شجرة القمح
التي ستولد منها تحليلاً دقيقاً يدلك على عدد أوراقها بالضبط وحجمها
بالضبط ، وعدد زهراتها بالضبط ، وهكذا كما يستحيل أن تحلل
جرثومة منوية فتهتدى بالتحليل إلى شىء دقيق عن مستقبل الإنسان
الذى سيتولد عنها ...

محال أن تتنبأ بحوادث المستقبل مهتدياً بحوادث الماضى ، وإلا
فها هو ذا العالم أمامنا ، ولك أن تختار أى أمر من أموره القائمة ،
ولتكن العلاقة بين إنجلترا وأمريكا مثلاً ، فهل تستطيع أو يستطيع
إنسان كائناً من كان أن يتنبأ بما ستكون عليه تلك العلاقة بعد عشر
سنين على وجه الدقة واليقين ؟! دع عنك ما هو أدق من ذلك من
المسائل التي تتصل بإرادة الانسان .

يقول أستاذنا الجليل أحمد أمين بك توضيحاً لرأيه : « فالثورة

إنما هي نتيجة لمقدمات كثيرة ، مثل حالة سيئة إجتماعية تسود الشعب ودرجة عالية من غليان الشعب ، وزعماء يوقدون النار تحتها ، ونحو ذلك من مئات العوامل ، وهذه هي المقدمات فإن حدثت كلها ولم يتخلف شيء منها حدثت الثورة لا محالة ، وقلنا حينئذ إن التاريخ يعيد نفسه » ،

لكننا نطلب من أستاذنا أن يذكر لنا مثلا واحدا من تاريخ الإنسانية كلها تشابهت فيه ثورتان تشابهها تاما لتشابه مقدماتهما كما تشابه قطعنا الحديد إذا تمددنا بفعل الحرارة . الثورة الفرنسية ، والثورة المصرية ، وثورة الإسلام على الجاهلية ، وثورة الاشتراكية على الرأسمالية في إنجلترا اليوم الخ ، كل هذه « ثورات » حدثت ، فأين منها ما تشابه لتشابه مقدماته ؟ كلا ، بل إنى أرى في كل هذه الأمور التي تتصل بالآحياء عامة وبالإنسان خاصة تفردا يستحيل عليه التكرار ، وهذا التفرد الذي لا يقبل التكرار هو صميم الحياة والآحياء ، وإن كان كل فعل إنسانى فريدا بذاته ، فبحال أن يتكرر . ولعل معترضا يقول : ماذا يصنع علم النفس اذا ، اذا لم يكن يستخرج لنا من أفعال الناس قوانين عامة تنطبق على جميع الحالات ، كما يستخرج العالم الطبيعى قوانين عامة تنطبق على قطع الحديد كلها ؟ والجواب هو أنه يستحيل أن تستغرق القوانين العامة كل أفعال الانسان ، بل لابد أن يتبقى لكل فرد حى بقية تميزه من سائر الأفراد ، وهذه البقية الفردية هي وحدها التي تجعله انسانا بالمعنى الصحيح ، وهي التي تجعل من الممكن أن يتصرف الانسان تصرفا

معينا ألف مرة ، ثم يغير هذا التصرف في المرة الحادية بعد
الألف .

فقد تتكرر الظروف بعينها ولا تتكرر الأفعال الانسانية ، ومعنى
ذلك أن التاريخ لا يتحتم أن يعيد نفسه .

بداية قصة

١ - عبء ثقیل

هو عبء الحياة . . .

هكذا قال لي ذلك الرجل العجيب ، الذي رأيته في زحمة الطريق عابسا ، يلتمس لنفسه مسلكا بين مئات الناس الذين خرجوا لتوهم أفواجا من دار السينما ، دون أن يمس أحدا منهم بمنكب أو قدم ، يتأرجح في مشيته بعض الشيء ولا يدق الأرض بعقبه ، نظراته تنحدر نحو الأرض أكثر مما تلتفت إلى أعلى أو أمام ، كأنما أراد أن يتثبت قبل الخطو من موضع القدم ، تبدو على خطواته السرعة وما هي بسرعة ، وتشع من جبهته وفيه جهامة تصرف الناظر إلى وجهه عن رؤية ملامحه عند النظرة الأولى ، حتى إذا ما ثبت الناظر فيه عينيه ، وأزال غلالة الجهامة عن صورته ، رأى ملامح ثابتة غليظة : حاجبان قويان عريضان أسودان ، وأنف طويل مليء ، وشفتان قويتان ظاهرتان ، ولحية وشارب كثيفتان شعرهما سميك غليظ اختلط أسوده بأبيضه ، كلها ملامح تدل على المضاء والحدة والبأس الشديد ، لولا أن عينيه تفصحانه فضيحة كبرى ، إذ تنطقان بأجلى بيان ، أن الرجل هادئ وادع مستسلم مستكين .

رأيتُه يمضي في مزدحم الطريق ، وقد حمل على ظهره ربطة كبيرة

بيضاء ، شـبـبـها برباط تحت إبطيه ، لتظل حركة الذراعين حرة ،
فيطوحنها حيناً ، ويضع إحداهما في جيب سرواله حيناً ، إنه رجل
عجيب يستوقف النظر بين جمع الناس الذى ملاً الطريق ، يبدو من
دونهم جادا مهموما صامتا ، كأنه ينطوى على شيء . . . ثم ما هذا
الحمل الذى حمّله فوق كتفيه ؟

وتعقبته مستطلعا ، فرأيته يخلص من قلب المدينة إلى طرف من
أطرافها بعيد ، وهنالك فى مكان تغلب عليه الظلمة إلا من شعاع خافت
جاءه من مصباح الطريق خلال أوراق الشجر ، جلس على جدار لم
يتم بناؤه ، جلس والحمل على كتفيه ، يتململ ويتأرق ، ويرتكز على
ذراعه اليمنى مرة وعلى ذراعه اليسرى مرة ، والحمل ما زال قائما على
كتفيه ، فسعلت سعدة خفيفة لأشعره بوجودى على مقربه منه حتى
لا يفزع إذا مادنوت منه . ذلك أنى خطوت إليه وحييته .

قالت : هذا مكان هادىء يوحى بالتأمل .

قال : نعم ، تشعر بهدوئه إذا أويت إليه من قلب المدينة الصاخب
قلت : إني لأدهش أن أراك هاهنا ، فما كنت أحسب أحدا
سوائى يفكر فى هذا الركن الهادىء البعيد .

قال : بل العجب عجيب أن أراك ، فأنا أقضى فى هذا الركن
المهزول أكثر ساعات المساء ، فمأيتك قبل وما رأيت أحدا سواك ،
أوى إلى هذا المكان لأستريح .

قالت : لكنك فيما أرى لا تريد لنفسك الراحة ، فملك ما يزال

فوق كتفك !

قال : ما يزال ؟ وهل عرفت أنه من الاحمال التي لا تلتقي عن
الكتفين إلا إذا فاضت الروح ؟ أنا قائم به وقاعد به ونائم به
ومستيقظ به .

قلت : وماذا عسى هذا العبء الثقيل أن يكون ؟ .

قال : إنه عبء الحياة ، أما ترى ؟ هو عبء الحياة وقد أنقض
والله كتفي .

قلت : آه ، إذا فهو حمل نفيس .

قال : ليست نفاسة الحمل بمناعة من أن يكون ثقيلا ، فالحمار الذي
ينوء تحت أثقاله لا يعبا أن تكون أثقاله من ذهب أو من حطب .
قلت : ولسكنك تستطيع أن تلقيه عن كاهلك إذا أردت .

قال : كيف أستطيع ؟ إن رثي لتعلوان وتهبطان في صدرى
كأنهما منفاخ الحداد لا يفر عن النفخ ليظل للنار وهجها واشتعالها
فلا مناص من أن تظل جذوة الحياة مشتعلة بين جنبي - رضيت أو
كرهت - وقد أتمنى لهذه الجذوة المتأججة اللادعة المحرقة أن تنطفئ
فتصبح رمادا تذرروه الأعاصير كيف شاءت على يابس أو ماء .

قلت : وما لرثيكم وهذا الحمل الذي على كتفيك ؟

قال : العلاقة بينهما وطيدة وثيقة ، فهذا الحمل أطرافه في جوفى ،
وهو مشدود هناك إلى أوقاده بما هو أوهى من نسيج العنكبوت ،
مشدود إليها بأنفاسى التي أرددتها شهيقا وزفيرا ، مشدود إليها بموجات
خفية من هواء ، فالويل لى من هذه الأنفاس الواهية التي تنسجها
رثاى خيوطا فتشدها هذا الحمل على كتفى لأنوء به ، فأين أطراف

هذا المنفاخ الذى ما ينفك يعلو فى صدرى ويهبط لى أمسكه عن النفخ لحظة لتخمد إلا نفاس وتتحل الروابط وينفك الوثاق . فيزاح عن كاهلى هذا العبء الثقيل ، إن أطرافه خفية ، أمد البصر فى جميع أقطارى فلا أراها ، وأرهف السمع فلا أقع لها على حفيف أو رفيف ، وكل ما أسمعه هو هذه النفخات تتوالى شهيقا وزفيرا ما يفيض لى نهار أو احلولك ليل ... إني لا أذكر الآن من ذلك الفيلسوف اليونانى الذى قيل عنه إنه ضاق صدرا بأنفاسه التى تتردد برغم أنفه ، وكره أن تشعل له جذوة الحياة بهذا المنفاخ اللعين وهوراعم ، فكتم أنفاسه حتى مات ، لا أذكر اسمه الآن ، لكنى أكبره وأمجده ، وأشعر إزاءه بالضآلة والصغار ، لأنه رأى ففعل ، وأنا أرى ثم لا أفعل شيئا .

قلت : ما هذا الذى تراه ولا تفعله ؟

قال : أرى الحكمة فى التخفف من هذا العبء الثقيل ، ثم لا أفعل شيئا فى سبيل هذا الخلاص ، الحق أنى لست أدري كيف يظل الإنسان مشدودا الى ما ليس يرضى ، ثم يظل مشدودا اليه برغم أنفه وهو عالم كل العلم أن الروابط نفخات من هواء ، يسد عليها الطريق فينتهى كل شيء .

قلت : كلا يا صاحبي ، الروابط التى تشدك إلى حملك هذا أقوى جدا من هذه الأنفاس ، فليست هى بنفخات من هواء كما ظننت ، إنما هو الشعور بالواجب ، نعم إنك تستطيع فى أى لحظة شئت أن تتنكر لواجب الحياة ، لتظفر براحة الجسد راحة أبدية ، لكنه الجحيم

بعينه أن تبث في نفسك القلق إذا ما تخليت عن واجب وجب عليك
أداؤه بحكم وجودك .

قال : لقد حكمت الآلهة على «أطلس» - في الأسطورة اليونانية -
أن يحمل السماء على كتفيه حتى لا ينقض بناؤها ، والسماء هي السماء
بأنجمها الزواهر اللوامع ، فهل رأيت واجبا أسمى وأجدا من أن تكلف
حمل السماء على كتفيك ؟ وحملها «أطلس» ثم ناء بحملها ، حتى إذا
ما جاءه «هرقل» يسأله عن مخبأ التفاحات الذهبية التي كلف بالبحث
عنها في أركان الكون وبين جنباته ، والتي قيل له عنها إن مخبأها ذاك
لا يعرفه الا «أطلس» حامل السماء ، ما جاء «هرقل» إلى «أطلس»
يسأله أين عساه أن يجد بغيته ، حتى وثب «أطلس» إلى هذه الفرصة
النادرة للتخلص من عبئه الذي أنقض ظهره ، وقال لهرقل : لست
بمستطيع أن تجدها لأن منالها عسير ، فاحمل عنى هذه السماء لحظة
حتى أعود إليك بها . ورضى «هرقل» مسرورا بحمل السماء حتى يحقق
له «أطلس» ضالته التي لقي العناء في سبيلها ، وانطلق «أطلس» إلى
حيث التفاحات الذهبية ، ورآها هناك تلمع في بريق الشمس يحرسها
أفعوان جبار عظيم ، فتسلل وغافل الأفعوان وهو في غفوة ، وخطف
التفاحات وعاد مسرعا إلى حيث ترك «هرقل» في انتظاره يحمل
السماء بدلا منه .

لكن «أطلس» حين اقترب من موضع هرقل ، تذكر بشجاعة
الحمل الذي حمّله على كتفيه هذه القرون الطوال ، ترى هل يفى بوعده
ويعطي هرقل تفاحاته الذهبية ، و يسترد عبئه الباهظ ؟ أم هل

ينعم بهذه الحرية التي أتاحتهال الظروف فيخلص من عبئه ذاك إلى الأبد؟
لا إنه لن يعود إلى حمله ذاك ، وسيحتفظ بحريته التي ظفر بها
بمصادفة قد لا تعود ، هكذا اعتزم « أطلس » ، ودنا من « هرقل »
وقال له : ابق حيث انت حاملا السماء على كتفيك ، وسأأخذ أنا
هذه التفاحات الذهبية إلى حيث أردت أنت أخذها ، فتظـاهر
« هرقل » بالرضى والقبول ! أليست هي السماء بأنجمها اللوامع الزواهر
فليحملها راضيا على كتفيه ، لكنه طلب من « أطلس » أن يتفضل
عليه بصنيع واحد صغير ، وهو أن يحمل الحمل لحظة واحدة حتى
يضع الوسائد على كتفيه ، لأن ضغط الحمل شديد على كاهله فأخذت
الشهامة من « أطلس » مأخذها ، وفعل ما طالب إليه هرقل أن يفعل
وكيف يتردد في قبول العناء لحظة أخرى قصيرة ، لقاء حرية يظفر
بها من هذا العبء الثقيل إلى الأبد .

ألقي « أطلس » التفاحات على الأرض ، وحمل السماء عن هرقل
حتى يضع هرقل على كتفيه الوسائد والحشايا التي تهون عليه أداء
هذا الواجب الجديد الذي ألقي عليه - لكن هرقل لم يكذب يزج
عن كاهله حمل السماء ، حتى أخذ التفاحات وهضى ... تاركا أطلس
في مكانه القديم ، ينعم بأداء واجبه ، واجب الوجود ...
قلت : ماذا تعنى ؟

قال : أعنى ما قلته ، أعنى أن عبء الحياة ثقيل ، حتى إن بلغت
من المجد عنان السماء ، وأن الروابط التي تشدنا إلى عبئها إن هي إلا
أنفاس من هواء ، لكن كتم الأنفاس يتطلب الفياسوف .

قلت : يا صاحبي إن الحياة التي تؤرق صاحبها هي الحياة المريضة ،
فأنت لا تشعر بوجود أى جزء من أجزائك الا اذا اعتل ، إنك
لا تشعر بوجود عينك أو أذنك أو معدتك أو قلبك إلا إذا أصابتها
العلة ، أما اذا كانت هذه الأجزاء سليمة فيستحيل أن تشعر بوجودها
فضلا عن أن تحس الألم من حملها .. إن حياتك — فيما أرى —
قد أصابتها العلة فأحسست بوجودها وبحملها ... ولا عجب أن تبرز
حياتك في صورة قتب كبيرة فوق ظهرك ، لأنها حياة علية .
قال : قل ما شئت فيها ، فهي حياتي التي لا املك سواها ، وقد
ضقت ذرعا بثقلها .

* * *

٢ — صومعة خاوية

شغلنى « أحذب الحياة » طول الليل — ذلك الرجل العجيب
المكتئب العابس الذى يحمل عبء حياته قتباً بارزاً على ظهره —
شغلنى طول الليل ، يملأ أحلامى إذا ما غفوت ، وتمثل صريره أمام
عينى إذا ما صحت ، وما زلت طول ليلى بين غفوة وصحو حتى
كان الصباح .

ترى لماذا يحمل هذا المسكين حياته كالدمل الكبير فوق ظهره ؟
أىكون ذلك لأنه ركز انتباهه فيها فوضحت له علتها وبرز سخفها ،
ولو قد تغافل عنها كما يفعل سائر الناس لسرت فى دمه وخفيت عن
بصره ؟ يجوز ، كما تكرر لفظة وتركز سمعك فى جرسها ، فسرعان

ماتعجب لصوتها السخيف يكون بين الناس ذا دلالة ومعنى ، كرر
— مثلا — كلمة امبراطور عدة مرات : إمبراطور ، إمبراطور ،
إمبراطور مبرا ، طور مبرا ، طور مبرا ، طور مبرا . . . صوت
عجيب منكر ، ظهر نكره وشذوذه بتركيز السمع فيه ، وكان
يمكن ألا نقف عنده هذه الوقفة الفاحصة ، فيظل له في النفس
جلال وهية .

كذلك صاحبنا « أحذب الحياة » ، ربما كان الفرق بينه وبين سائر
الناس أنه قد أنعم النظر في معنى الحياة ، فانتهى به النظر إلى أنها
أنفاس فاترة واهية من هواء ، تتردد في صدره شبيهة وزفيرا ،
لأشياء أكثر من ذلك ، وهو لذلك في عجب كيف يمكن
أن يشد وثاقه إلى الأرض بخيوط هي أو هي من خيوط العنكبوت .
وأحسست برغبة قوية في نفسى أن ألقى هذا الرجل لقاء آخر ،
فقصدت إلى المكان المهجور الهادئ الذى لقيته فيه أول مرة ،
ووقفت أقرب من بعيد ، حتى رأيته يسرى في غير صوت بين الظلال
كأنه الشبح ، إنك لا تخطئه من بعيد ، فالجمل الذى على كتفيه يميزه ،
وله مشية خاصة يتأرجح فيها الجذع وتلتف الساقان .

وقفت في مكانى حتى رأيته يستقر في موضعه من الجدار الذى لم
يتم بناؤه ، صعد إليه على كومة وطيفة من هشيم الصخر ، ومسح جبهته
بمנדيل ، ومال مرتكزا على ذراعه اليسرى فدنوت منه .

قلت : السماء الليلة أكثر غماما ، والدنيا أشد ظلاما من ليلة
الأمس ، برغم القمر .

قال : ولم يرتع لرؤيتي - وماذا يصنع القمر في الدنيا إذا اسودت
بظلامها وغمامها ؟ ان من أراد الضوء فضيا رائقا خالصا من شوائب
الظلمة ، فليرتفع عن الأرض وغلافها حتى يجعل الغمام من دونه ،
وعندئذ لا يكون ظلام ... لكن الانسان مشدود إلى الأرض بأحمال
وأثقال ، أستغفر الحق ، بل مشدود اليها بهذه الخيوط الواهية ،
بنفخات من هواء ، وإذا فلا رجاء له في ضوء أكثر مما قد يتسرب
له خلال فتحات السحاب ... العجيب في هذه الدنيا أنها يبيع وشراء ،
لا بد أن تدفع لكل شيء ثمنه ! أتريد أن تمتد بك الحياة ؟ اذا فخذ
هبة من الهواء على شرط أن ترد مكانها هبة مثلاً ، أتريد أن تخلص
من ظلام الأرض ليصفو لك الضوء ؟ اذا فاصعد الى قمة هذا الجبل
العالي حتى تتجاوز السحاز ، عندئذ تجد الضوء الساطع ، لكنك
ستجد كذلك برودة الثلج ...

قلت : وماذا يشقيك من غمام السماء وظلمة الليل ؟ ! انظر الى
الدنيا بعين الفنان تر السماء الغائمة في مثل جمال السماء المقمرة ، ألا
يكون ظلام الليل أحياناً أشد فتنة من ضوء النهار ؟ سل العاشقين
يجيبوك أيهما أفعل في النفس سحراً : الليل الوسنان في ستره ، أم
النهار اليقظان في نشاطه وصحوه ؟ سل العابدين متى تصفو لهم قلوبهم
للعباداة ؟ سل المفكرين متى تهدأ لهم عقولهم للفكر ؟ سل المجان متى
يطيب المجون ؟ سل المتأمرين لماذا يدبرون الأمر بينهم بليل ؟ ...
لماذا لا تلتمس يا أخى في كل شيء وجهه الجميل ؟ إن الذي ينقصك
هو الخيال .

قال : الخيال الذى أهرب به من الواقع ! .

قلت : ليكن ذلك ، ولماذا تستعبد نفسك للواقع إذا أمكن العيش الهانىء فى جو من الخيال ؟ أتدرى ماذا تكون المرأة الجميلة فى « الواقع » ؟ إنها كيس من الجلد محشو بالقذر والبلغم ومختلف السوائل والغضاريف ! أتدرى ماذا تكون الصورة الجميلة فى « الواقع » ؟ إنها خرقة من قماش ، صب عليها خليط من الأحمر والأصفر والأخضر وما شاء الله من ألوان ، واهصر الوردة الجميلة لترى ماذا عساها فى « الواقع » أن تكون بين اصبعيك ؟ . . ان الذى ينقصك — كما قلت — هو الخيال ، الذى يجعل لك من المرأة شيئاً جميلاً ، ومن الصورة شيئاً جميلاً ، ومن الوردة شيئاً جميلاً ، ومن غمام السماء شيئاً جميلاً ، ومن ظلمة الليل شيئاً جميلاً ! لماذا تنظر الى الأرض كما تفعل الديدان ولا تشخص الى السماء كما تصنع الآلهة ؟ .

لست أدري لماذا أخذنى الاهتمام بهذا « الأحذب » ، فامتلات حرارة وأنا أبادله الحديث ؟ لقد أوحى الى عندئذ أن هذا « الأحذب » عليل النفس ، مريض القلب ، كليل الحياة ، وأن الواجب الخلقى يقتضى أن أقوم فيه ما اعوج اذا استطعت الى تقويمه من سبيل ، انه عابس ولا بد أن يبتسم ، يائس ولا بد أن ينبسط أمامه الأمل ، كافر ولا بد أن يؤمن ، أعماه « الواقع » ولا بد له أن يبصر بعين الخيال .

وضاق « الأحذب » صدره بحديثي فيما يظهر ، وأخذ يعتدل فى جلسته مرة ويميل على هذه الذراع أو تلك مرة ، ويشيح بوجهه عني ، كأنه يريد أن يصم الأذن عما أقول ، لكننى لم أعد أنظر الى موقفى

منه نظرة التسلية والعبت ، فلا أقل من أن استطلع بعض سره
وأستخرج شيئاً من مكنون نفسه . وسادت فترة قصيرة من سكون ،
فنزّل عن مكانه من الجدار ، وقال في صوت فيه افتعال وتصنع :
- أنا مضطر أن أعود ، وسينقطع بعودتي هذا الحديث
الجميل .

قالت : الأرجح أن طريقنا واحد ، ولو إلى حين .
ولعله لم يطب نفساً لهذه الصحبة الثقيلة في طريق عودته ، لكنى
تجاهلت ما يريده لنفسه من عزلة الطريق ، وسرت إلى جانبه ، سرنا
بخطوات بطيئة خفيفة ، لكن وقع أقدامنا على حصباء الرمل ومنتور
الحجر ، كان له رنين في ذلك الركن الهادئ البعيد .

قلت : نعم إن الذى ينقصك هو الخيال ، ينقصك مثل أعلى
تعمل من أجله فينسيك الهدف مشاهد الطريق .
قال - وقد ازداد تثاقلاً في خطاه - أصابني مرض الخيال وعلة
المثل الأعلى منذ خمسة وعشرين عاماً ، ولبثت آثار المرض تتراكم
حتى كان هذا البروز الذى تراه شأهاً فوق كاهلي .

قلت لنفسى عندئذ ، دع عنك الواقع والتمس لنفسك سلماً في
دنيا الخيال تصعد على درجاته إلى أجواز الفضاء ، فصحبة الأصدقاء
واقع فلا تأبه لها ، والمرأة واقع فلا تلق باللك إليها ، والطعام والشراب
واقع فلا تحتفل بطعام أو شراب ، هذا الذى حولك كله واقع فاخرج
من نطاقه . وهناك في صومعة وقعت عليها في جوف الجبل ، أثرت
الكفاح في سبيل الخيال .

ولبثت الصومعة يعمرها خيالي عاما في إثر عام ، وعقدا من السنين
بعد عقد من السنين . لم تكن الصومعة خالية في بصرى وسمعى ، كنت
أرى فيها الخيال مجسما حتى لأنسى أنه من خلق أوهامى ، وأحدثه
وأسمع لحديثه ، وأتملقه ويتسم فى وجهى ، وظللت فى صومعت أعبد
آلهة خيالى ، لا أشهد نور الشمس ولا أريد أن أشهده ، ولا أرتد
إلى دنيا الناس والعمران ولا أريد أن أرتد إليها ، ولا استنشق لهواء
الطلق النقي ولا أريد أن استنشقه ... كنت على نقىض فاوست :

فقد اتفق الشيطان مع فاوست أن يممله ردحا من الزمن ، يعمل
فيه فاوست ما يشاء ، على شرط أن يأتيه الشيطان بعد ذلك فيتقاضى
أجر إمهاله ، وليس أجره بأقل من روح فاوست . وكان فاوست عند
أول اتفاه مع الشيطان يظن أنه الكاسب فى هذه الصفقة ، فإذا يهيمه
من نفسه إذا ماترك له الحبل على الغارب عشرين سنة أو ثلاثين ،
لكن السنين انقضت ، وصبر الشيطان جميل طويل لا ينفد ، وجاء
الشيطان ليستل من فاوست حياته ، وعندئذ فقط أدرك فاوست أنه
خسر فى اتفاه مع الشيطان خسرانا مبيها ، كيف يبيع نفسه وحياته
بعشرين عاما أو ثلاثين مهما يكن ما يملأ هذه الأعوام ؟

وأما موقفى من شيطانى فعلى نقىض ذلك ، عقدت معه اتفاقاً أن
أبيعه حياتى ردحا من الزمن ، على أن يردها لى بعد ذلك خصبة مليئة
قوية ، وذهبت إلى صومعتى تلك لا أعرف فيها الحياة ولا أخالط الأحياء ،
أعلل النفس طوال السنين بأن حياتى السلبية مردودة إلى بعد حين ، بعد
أن تكون كل حبة فيها قد أنبتت مائة سنبله وفى كل سنبله مائة حبة .

فلما انقضى على غربى عهد طويل ، طلبت من الشيطان أن يفي
 بوعده كما وفيت له بعهدى ، وفعل فإذا ما يعطينيه نفحات من هواء ،
 هى هذه الأنفاس أرددها فى صدرى شيقاً وزفيراً ، ثم لاشيء غير
 ذاك . وضحك منى الشيطان ضحكة قوية حسبت الأرض ترتج لها تحت
 قدمى ، فابتسمت ابتسامة من زالت عنه غشاوة الخيال لأول مرة ،
 وأبصر بحقيقة الواقع لأول مرة وقلت : أستريح إذاً بعد هذا لعناء
 الطويل . إن الصومعة التى عمرها لى الخيال قد باتت خالية خاوية إلا
 من أصداء أنفاسى ..

لكن مضجعى لم يستقم تحت ظهرى حين أردت الراحة ، لأن عهد
 الصومعة قد خلف لى هذا الورم الاليم ، الذى تراه بارزاً عند كتفى
 نسجته لى الأعوام طبقة فوق طبقة ، كما يفعل مر الأعوام فى
 جذوع الشجر .

وكنا قد باغنا العمران ، وأراد « الأحذب » أن ينصرف إلى
 سبيله ، فقامت له : إن لى معك حديثاً آخر .

٢ - لعبة الحصان

حسب صاحبي « الأحذب » حين افترقنا أنى أدبرت عنه كما أدبر
 عنى ، لكنى تعقبته لأرقبه وهو يلتمس لنفسه الطريق فى زحمة الناس

التماس الحي الذي يخشى أن تلتقي بعينه عيان ، إنه على وعي شديد من نفسه ، إن ذراعيه تحيرانه وتربكانه ، أين يضعهما ؟ وذلك دليل على حيرة نفسه وارتباكها ، ألا إن الذراعين لتخبرانك بمكنون النفس كما تحدثك العيون والشفاه ... إنه لا يمشي في ضوء المصباح إذا وجد الظلام ، ولا يقصد إلى مزجج الطريق إذا رأى الفضاء المهجور ، عيناه مصوبتان نحو الأرض دائماً ، وقدماه تحفان الأرض حفا خفيفاً . عبر الطريق في موضع كثر فيه العابرون ، إنه في العابرين بارز واضح ، إنه لا يفنى في الزحام ، ولا يذوب في الناس ، إنه فيهم كملعقة من الزيت صبت في قدح من الماء ، تحركها إلى أعلى وأسفل ، وإلى يمين ويسار ، فما زال شيئاً متميزاً عن الماء الذي حولها ، إنه في أمواج الناس على طول الشارع لم يفقد معاملته ، أخذ يعلو على تلك الأمواج البشرية حيناً ويهبط حيناً ، أعنى أنه كان يظهر لي حيناً ويختفي حيناً آخر ، حتى انتهى إلى شارع هادئ متباعد المصاييح .

كان ظله مروعاً خيفاً ، يقصر ويطول ، ثم يطول ويقصر ، هو الآن مطروح أمامه ، وهو الآن إلى جانب ، وهو الآن ممدد وراءه يتابعه ويلاحقه ، وهو في كل أوضاعه أبعد ما يكون الظل عن صورة البشر .. وما هو إلا أن دخل « الأحب » داراً ، بخطوات سريعة ، كأنه الأرنب الفارع يأوى إلى جحره ليستكن فيه آمناً من طراد الصائدين . فوقفت بغتة ، ثم سرت مسرعاً نحو الباب الذي قذف « الأحب » بنفسه فيه ، لم أر شيئاً هناك إلا مصباحاً كهربائياً خافت الضوء جداً في الركن الأعلى من بهو السلم . إنه بناء عال من ستة طوابق أو سبعة ،

وحين صعدت بصرى في لحظة سريعة إلى أعلاه ، لم أر إلا نوافذ
وشرفات ، أكثرها معتم وأقلها مضى .

من عسى هذا « الأحذب » أن يكون ؟ ترى هل ينطوى جنباه
على سر دفين ، أم أنه لاسر في الأمر ، وكل ما في جوفه قد برز وربما
على ظهره ؟ لكنه شاذ غريب بغير شك ، إنه يستوقف النظر ، بل
يستوقف الفكر ، إنه لا يندمج مع الناس في عجيته واحدة ، ولا
ينطمس مع من حوله في سديم ، إنه قطعة مشورة وحدها ، والويل
كل الويل ، ثم الخير كل الخير ، من هذه القطع التي تنثرها عجلة الحياة
بعيداً عن إطارها ، فتظل دائرة في فلك وحدها ، من هؤلاء يكون
الثأرون الساخطون الهادمون ، ومن هؤلاء يكون العظماء المصلحون ،
ومن هؤلاء يكون الأنبياء والأولياء ، ومن هؤلاء يكون المجرمون
النوابغ في إجرامهم ، ومنهم يكون الفنانون النوابغ في فهم ، الشبه
قريب جداً بين هؤلاء جميعاً ، على بعدما بينهم من تفاوت واختلاف ،
كسيل الماء العرم ، هو الذي يصلح الزرع ، وهو الذي يفسده ،
حسب ما يحيط به من ظروف .

و « الأحذب » — فيما يظهر لي — قطعة بشرية مشورة
وحدها ، تدور في فلك وحدها ، ترى من ذا يكون وماذا يكون ؟ ،
وبت ليلتي أفكر فيه وأفرض في أمره الفروض ، وعادوني
الشعور بالواجب أن أصلح ما فسد ، فأقيم في هذا المسكين ما التوى ،
وأقوم ما مال واعوج ، أو قل إن حبي لاستطلاع أمره قد غلبني ،
فسترت نفسي وراء الشعور بالواجب . وتذرعت بهذا السلاح

ومضيت عصر اليوم التالى إلى الدار التى دخلها «الأحدب» ليلة
الأمس ، مضيت لا ألوى على شيء ، وأخذت أسرع الخطو حتى
لا يصرفنى التردد عن غايتى .

لم أجد عند الباب أحدا ، وتلفت ها هنا وها هنا ، وتحركت خطوتين
هنا وخطوتين هناك ، ثم دخلت وصعدت الدرج مبطئاً غاية الإبطاء
شاخصاً بصرى إلى أعلى . الأبواب كلها مغلقة . صعدت الدرج حتى
نهايته ، ونهايته سطح نظيف ، وقفت قليلاً وقلبي ينبض نبضاً شديداً ،
من الصعود ومن الخوف معاً ، الخوف من هذا البناء المهجور الذى
لا يعمره إنس ولا جن . لكنى رأيت الضوء منبعثاً من نوافذه ليلة
الأمس ... وهممت بالنزول ، لولا أنى بلفتة غريزية لويت عنقى
ونظرت إلى نافذة مغلقة الزجاج فى ركن السطح ، إن وجهها يطل من
خلف الزجاج ، إنه هو ، إنه «الأحدب» .

لم يعد بينى وبين كشف الغطاء إلا خطوات خطواتها نحو غرفة
«الأحدب» . وفتح لى الباب قبل أن أقرعه . . . إن روعى ليهدأ
قليلاً قليلاً ، إن الخوف لينزاح عنى إزاء هذا الوجه الباسم الذى فتح
لى الباب ليتقبلنى مسروراً مرحباً ، ليس الوجه العابس فى الطريق
عابساً هنا ، والصدر الضيق على الجدار الذى لم يتم بناؤه رحيب واسع
هنا ، ولولا بروز الورم فوق ظهره لقلت إنه إنسان آخر ، إنه استدر
فى الطريق إشفاقى : لكنه فى داره استثار حبنى وإعجابى ، إنه ها هنا
يمزج فى حديثه الجد بالفكاهة ، ويقول النكتة فى إثر النكتة ويضحك
من كل قلبه ، ألا سبحانك اللهم ، تضع الرجلين ، بل جمهوراً

إن مشكلة « الذاتية » التي تحير الفلاسفة لم تعد تحيرني . إن الفلاسفة يصدعون رؤوسهم تصديعاً في محاولة الجواب عن هذا السؤال : كيف يحتفظ الشخص الواحد بذاتية واحدة مع اختلاف ظروفه ؟ إنه يكون صحيحاً ويكون مريضاً ، ويكون طفلاً ويكون رجلاً ، ويكون شعبان ويكون جائعاً ، ويكون غضبان ويكون راضياً ، ويكون يقظان ويكون نائماً ، ومع هذا الاختلاف الشديد الذي يطرأ على حالاته يظل إنساناً واحداً ، فما الذي فيه يخلع عليه تلك الوجدانية مع تعدد حالاته وأوضاعه ؟ ... لم تعد تحيرني المشكلة التي تحير الفلاسفة ، بعد أن رأيت « الأحذب » في الطريق وفي داره ، فلا وجدانية هناك . ليس الرجل رجلاً واحداً ، ولكنه عدة رجال ، هو في كل حالة رجل غير الرجل الذي يكونه في الحالة الأخرى ، فيستحيل أن يكون « الأحذب » العابس الجاد المهموم الحزين الذي رأيتته وتحدثت إليه وهو جالس على الجدار الذي لم يتم بناؤه ، هو نفسه « الأحذب » الضاحك الفكاه المرحب بي وهو في داره .

أدخلني « الأحذب » فعبّرني ردهة لاحظت خلاءها من الأثاث تقريباً ، وانتهينا إلى غرفة هي مأواه ، فيها كل شيء فيها السرير وصوان الملابس ومكتب ومكتبة ومنضدة ومقاعد ومرآة ، أثاثها هزيل لكنه نظيف ، وتنسدل على النافذة ستارة رقيقة فيها خروق ممزقة ، لكنك تشعر في غرفته بالطمأنينة وراحة النفس . وليست ديار الناس في ذلك سواء ، فقد أزور الدار وأحس أثناء زيارتي أنني أتقلب على الشوك ،

دون أن يكون بيني وبين صاحب الدار ما يدعو إلى النفور ، ثم قد
أزور الدار فينبسط صدرى وتطيب نفسى ، وأتمنى لو بقيت فيه اليوم
كله . وقد قلت ذلك لصاحبي « الأحذب » فور جلوسى على مقعده
المريح ، الذى كان — فيما يظهر — جالسا عليه لتوه ، لأن الحشية
كانت ما تزال دافئة بحرارته .

قلت — إن النفس لتحس الطمأنينة فى غرفتك هذه . والمنظر
الذى يطالعك من نافذتك رائع جذاب .

قال — إذن لا أحسب الفجوة بين نفسيينا عميقة كما يبدو للوهلة
الأولى ، فقد أعجبك مأوى هاهنا ، كما أعجبك ملاذى الهادى الذى ألوذ
به من صخب الحياة ، إن النفوس الإنسانية لتشعر بالتقارب والتدانى فى
حالات هدوئها ، حتى إذا ما عجز بها عجز الحياة ألفتها متنافرة متعاركة ،
لا عجب أن يكون الناس جميعاً سواء وهم نيام ، ثم يأتى الموت
فيسوى بينهم إلى الأبد

وخشيت أن ينتقل صاحبي بذكر الموت إلى حانة من حالاته
الكئيبة السوداء ، فغيرت موضوع الحديث ، وجعلت موضوعه
أقرب ما وقعت عليه يدى على المنضدة الصغيرة الوطيئة التى كانت
أمام مقعدى .

فقلت : ماهذه المكعبات الخشبية الملونة المصورة ؟

قال — وكان ورائى مشتغلا بقلب الفناجين والأكواب —
تلك أعبة من لعب الأطفال اشتريتها ألهو بها ، إنها مكعبات ترص
فتكون هذه الصورة أو تلك .

ودنا مني ، الأحذب ، وأشار بأصبعه إلى اللعبة وقد رص ما
يقرب من نصفها ، فإذا هي صورة جواد عليه راكبه ولم يبق من
الصورة إلا أرجل الجواد .

قلت . وأحسبك كنت في سبيل إتمام الحصان بأرجله ؟ .
قال : هذا ما حرت فيه ، حاولت عبثاً منذ ساعة الغداء ، فلم تستقم
للحصان أرجل ، حتى لقد مللت فوقففت أنظر من نافذتي
حين رأيتك قادماً .

قلت : وما فائدة الحصان بغير أرجله ؟ إن راكبه المسكين سيظل
مشلول الحركة حتى تتم لحصانه الأرجل فيسير ،
هنا وضع « الأحذب » قد حين كانا في يده ، وضعهما على ظهر
مكتبته ، وجلس . إنه « الأحذب » الذي رأيته هناك على الجدار ،
وهو « الأحذب » الذي رأيته في الطريق . عبس وجهه وتجهم ، ثم
ساده استرخاء الذي فقد القدرة على الوقوف والحركة ، وابتسم
لكنها ابتسامة غير التي لقيني بها ، هي ابتسامة صاحب النفس المريضة
المعبأة بالهموم . ما أسرع التغير في سماء هذا الرجل : صفو في لحظة ،
وغمام كثيف في اللحظة التي تليها .

قال : لعل ذلك بعينه ما أعجزني عن إقامة الحصان على قوائمه ،
وإذا فما أشبه الجد باللعب . . . كائن بك يا صديقي قد أتيتني لتستطلع
شيئاً من أمري ، هذا هو أمري قد كشفت عنه في لحظة واحدة ، في
هذا الحصان المقعد تتلخص قصة حياتي ، لكل امرئ جواده ، وكل
جواد يسير إذا استقام على أرجله ، وجوادى كاب ، والأرجل هناك ،

لكنها كانت تنتظر العين البصيرة لتضعها مكانها من جسم الجواد فيسير،
إن الذي يرى أحرف الهجاء أمامه ولا يستطيع أن ينشئ منها قصة
مطرودة أو قصيدة من الشعر يكون العجز فيه ولا يكون العيب
في أحرف الهجاء؟ .

قلت : دع عنك الآن هذا الحصان ولعبته ، وانظر ماذا أردت
أن تضع في هذين القدحين من شراب . . .
لكني صممت أن أستطلع قصة « الأحذب » أو قصة هذا
« الجواد الكاكي » .

تصويب الأخطاء المطبعية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧٤	٢	يستثير	يستمر
١٧٤	١٦	يفرضه	يرفضه
١٨٤	٥	تجفيف	تخفيف
٢٠٠	٨	أن ذلك	ذلك أن
٢٠٠	١٩	إنكرانها	نكرانها
٢٣٣	١٩	واحد	واحدا
٢٢٩	١٦	مركرة	مركزا
٢٤١	٢	فاشتريت	فاشتريت
٢٤٤	٧	لاصل	الاصل
٢٤٧	١٢	ضرع	تضرع
٢٦٨	٢	قراش	قائمة
٣١٧	٦	لا	فلا
٣٢٣	١٩	بشجاعة	بشاعة
٣٣٧	١١	السعاز	المسحاب
٣٤١	٦	لعناء	العناء
٣٤٢	١	بنحني	بنحني

فهرس

٣	إلى القارىء
٥	ظلم
٩	يوم الميلاد
١٦	رسالة إلى صديقة أديبة
٢١	يغير مرآة
٢٨	شبكة الصياد
٣٤	المئذنة والهرم
٤٠	حمل المموم
٤٥	سحر الكلام
٥١	النجاح والفشل
٥٧	الصداقة العارة
٦٣	قيص السعادة
٦٨	حمى الحياة
٧٣	الآدمية الصحيحة
٨٠	عندما أطللت من النافذة
٨٦	ضع العقل فى غير موضعه
٩٤	الأخلاق التى لاتزال بخير
٩٩	الطاغية الصغير
١٠٤	غير مطلوب

١٠٩	سبيحار
١١٥	٩ شارع الكرداسي
١٢١	خربة السنين
١٢٨	أرقام
١٢٣	قلوب
١٣٩	أصنام تحطمت
١٤٤	البيغاء والقفص
١٤٩	درع من ذهب
١٥٦	من طبائع الناس
١٦١	القصد في القول والعمل
١٦٧	الرأس والساعد
١٧٢	مطلوب لإنسان
١٧٨	التعميم في الحكم
١٨٤	التفكير النظري والتطبيق
١٩٠	بين الأمان والواقع
١٩٥	من وحي العدالة
٢٠٢	الطير الذي طار وارتفع
٢٠٧	المتعرج واللاعب
٢١٣	الصفير النفيس
٢١٨	شمال وجنوب
٢٢٥	جناية الصحافة على الادب
٢٣٢	حامد سعيد
٢٣٧	طوائف تتنافس
٢٤٣	الادب بين يومه وغده
٢٥٠	السحر والماسحر

٢٥٤	عريان بحلم
٢٥٩	جلا في حركة مرور
٢٧٣	نملتان في الفلفل
٢٧٠	مراحل الطريق
٢٧٦	بين الادب و نقده
٢٩٢	دفاع عن الادب
٣٠١	القطعة السوداء
٣٢٠	التاريخ لا يعيد نفسه
٣٢٩	بداية قصة

DATE DUE

محمود، زكي نجيب

شروق من الغرب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038837

